دراسات فلسفية

موريس كورنفورث

مدخل الى المادية الجدلية

الجزء الثالث
نظرية المعرفة

الطبعة الثانية

ترجمة محمد مستجير مصطفى

دار التقدم

يتناول هذا المجلد ـ وهو المجلد الثالث والاخير من كتاب « مدخل الى المادية الجدلية » ـ الخطوط العريضة للنظرة الماركسية الى بعض المسائل الاساسية في الفلسفة : العلاقة بين المادة والذهن ، واللغة والفكر ، والافكار والواقع ، والحرية والضرورة .

وقد سبق أن أصدرنا المجلدين الأولين من هذا الكتاب عن « المادية والمنهج الجدلي » و « المادية التاريخية » ... ونعيد طباعته الآن بمجلد واحد للطبعة الثانية . ونأمل أن يكون الكتاب بمجلداته الثلاثة عوناً للقارىء العربي على تفهم الأسس الفلسفية للنظرية الماركسية.

الثمن ١٢ ل. ل.
او ما يعادلها

مدخل الى المادية الجدلية
المجلد الثـــالث
نظرية المعرفة

موريس كورنفورث

مدخل إلى
المادية الجدلية
نظرية المعرفة

(المجلد الثالث)

ترجمة محمد مستجير مصطفى

دار الفارابي - بيروت

١٩٨١

هذا الكتاب ترجمة لـ :

Dialectical Materialism
An Introduction

by

Maurice Cornforth

Volume three

Theory of Knowledge

London

Laurence & Wishart Ltd.

1969

جميع الحقوق محفوظة

دار الفارابي ــ ص.ب ٣١٨١ ــ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٧٩

الطبعة الثانية ١٩٨١

مقدمة

تتناول نظرية المعرفة المسائل المتعلقة بالافكار مصدرها ، والطريقة التي تعكس بها الواقع ، والطريقة التي تختبر بها وتتطور،ودورها في الحياة الاجتماعية . وقد شكلت هذه المسائل دائما جانبا هاما من الفلسفة .

وفي الفلسفة البرجوازية وصلت نظرية المعرفة الى احتلال المكان الاول ، على اساس انه قبل ان نستطيع استخلاص اي نتائج فلسفية عن اي شيء فلا بد اولا ان نتحقق مما نعرفه حقا ، واساس معرفتنا له ، لكن الفلاسفة البرجوازيين عموما عالجوا الموضوع باكثر الطرق تجريدا ، فهم لم يعتبروا شيئا مسلما به الا وجود الذهن الانساني الفردي ، وتساءلوا كيف يمكن ان تولد المعرفة فيه وتنمو ؟ ولكن لما كان الافراد ـ وبالاحرى اذهانهم ـ لا يوجدون في فراغ ، فان هذا النوع من البحث كان مقيضا له ان يثير كثيرا من الاسئلة التي لا رد عليها ، وان يظل عقيما نسبيا .

اما الماركسية فانها من الناحية الاخرى ترى ان علينا ان ندرس الموضوع بتحديد اكبر ، وان نتساءل كيف تظهر الافكار فعلا وتتطور وتختبر في الظروف المحددة للحياة الانسانية الواقعية ، في حياة المجتمع

المادية . ويتناول هذا المجلد كيف ينشا الوعي الانساني فعلا ويتطور ، ويحاول تتبع هذه العملية خطوة خطوة منذ بدايتها في الفعل المنعكس الشرطي البسيط ـ وهي الطريقة الاساسية التي يدخل بها كائن حيواني ما في علاقة نشطة بالعالم الخارجي ـ حتى تطور المعرفة الانسانية والحرية الانسانية .

الجزء الاول

الطبيعة ونشأة الذهن

الفصل الأول

الذهن والجسد

المادة والذهن :

من الشائع للغاية ان الذهن ـ وايا كان ارتباطه وثيقا بالجسد ـ متميز ومنفصل عنه . والذهن ـ حسب هذا الاعتقاد ـ « ينفخ الحياة » في الجسد ، ويستخدم اعضاء الجسم لكي يتلقى انطباعات العالم الخارجي ، ولكي يؤثر على العالم الخارجي ، لكن وجوده لا يتوقف على هذا الجسم . وفضلا عن هذا فاذا كان الذهن يستخدم الجسد في بعض اوجه نشاطه فانه لا يستخدمه في بعضها الآخر . وعلى سبيل المثال يستخدم الذهن الجسد في نشاطه الحسي لكنه لا يستخدمه في اوجه نشاطه الفكرية والروحية « الاكثر نقاءا » .

وهذا مفهوم قديم للغاية في جوهره . وهكذا كانت بعض الشعوب البدائية تتصور الروح طيفا رقيقا يسكن الجسد الا انه يستطيع ان يخرج منه ويعيش وجودا مستقلا ، وعلى سبيل المثال ترحل الروح عن الجسد اثناء النوم خارجة من الفم . ويمكن ان تخطىء الروح فتعود الى جسد آخر ـ كما يحدث لمن به « مس » مثلا : اذ يقولون ان المجنون او المصاب بالصرع يعاني من روح شريرة دخلت جسده . وكجزء من هذا المفهوم البدائي عن الروح

ظهر مفهوم بقاء الروح بعد الموت ، وكذلك وجودها السابق على الميلاد .

وليست النظريات الفلسفية المثالية عن الذهن ـ في التحليل الاخير ـ إلا صورا عقلانية مهذبة لمثل هذه الخرافات .

ومن بين هذه الصور العقلانية المهذبة المذهب القائل إنّ الذهن والجسد جوهران متميزان ـ جوهر روحي وجوهر مادي . وللجوهر المادي ـ او الجسد ـ حيز ووزن ، وهو يتحرك في المكان ، اما الجوهر الروحي ـ او الذهن ـ فهو يفكر ويعرف ويشعر ويرغب . وما زالت هذه النظرة واسعة الانتشار . وهي ترى ان خصائص مثل التفكير والشعور وما اليها تختلف كل الاختلاف عن خصائص المادة ، بحيث انه مهما كانت الصلة وثيقة بين تفكيرنا وشعورنا وبين حالة اجسادنا فانهما ينتميان الى جوهر غير مادي متميز عن الجسد هو الذهن .

ويزعم الفلاسفة المثاليون ـ الذين يعتبرون الذهن منفصلا عن الجسد ـ ان الافكار والمشاعر وما اليها ليست باي حال نتاجا لاية عملية مادية . فاذا كنا نفكر ونشعر ونتصرف بذكاء مثلا فان هذا السلوك لا يفسر بظروف وجودنا المادي وانما باداء الذهن المستقل ، صحيح ان الذهن يستخدم اعضاء الجسد ، لكن السلوك الذكي ينبع من حقيقة ان مبدأ غير مادي ، او وجودا روحيا هو الذهن ، ينفخ الحياة في الجسد ويرشده ويسيطر عليه .

لكن مثل هذه النظريات المثالية ـ على انتشارها ـ قد واجهتها منذ امد طويل نظرات مادية معارضة . والمادية لا ترى أن الذهن منفصل عن الجسد بل ترى ان كل الوظائف الذهنية تتوقف على اعضاء الجسم المقابلة لها ، ولا يمكن ان تمارس دونها . ونستطيع ان نتبع كل وعي الناس ونشاطهم العقلي الى اسباب مادية ، بحيث ان مثل هذا النشاط ابعد من ان يكون نتاجا للذهن وحده بل ان الذهن نفسه هو نتاج للمادة ، هو ارقى نتاج لها .

وتستطيع المادية الحديثة ـ المزودة بنتائج الابحاث العلمية في اشكال الحياة العضوية ، وبمفهوم التطور ـ ان تقدم ردا

حاسما على المفهوم المثالي عن الذهن . فالذهن نتاج **لتطور الحياة** تطورا ارتقائيا . ويمكن للأجسام الحية التي بلغت مستوى معينا من تطور الجهاز العصبي ـ كما نجد في الحيوانات ـ ان تطور اشكالا للوعي ، وهي تطورها بالفعل . وفي مجرى التطور يصل هذا الوعي في النهاية الى مرحلة الفكر ، نشاط المخ الانساني . فالوظائف الذهنية ـ من أدناها حتى أرقاها ـ هي وظائف للجسد، وظائف للمادة . والذهن نتاج للمادة عند مستوى مرتفع من تنظيمها .

وما ان نقر ذلك حتى ينتهي هذا المفهوم عن الذهن او الروح كشيء منفصل عن الجسد يمكن أن يغادره ويعيش دونه . ان الذهن دون جسد مجرد حماقة ، فالذهن لا يوجد مجردا عن الجسد .

غير أن قولنا ان الذهن لا يوجد مجردا عن الجسد لا يعني ان العمليات الذهنية لا وجود لها ، او ان ذهن الانسان خرافة . فالذهن والوعي والفكر والارادة والشعور والاحساس وما الى ذلك بالطبع امور **واقعية** . والمادية لا تنكر حقيقة الذهن ، فما تنكره المادية هو ان شيئا يدعى « الذهن » يوجد منفصلا عن الجسد . فالذهن ليس شيئا ، او جوهرا ، متميزا عن الجسد .

ويمكن أن توضح هذه النقطة بأي مثال حين نتحدث عادة عن « الذهن » . لقد تصور الفلاسفة ورجال اللاهوت ان للذهن وجودا مستقلا ، وخصائص ونشاطا مستقلين ، متميزا عن الجسد ، لكننا لا نعني شيئا من هذا القبيل حين نتحدث في الحياة العملية عن الذهن .

فاذا سالك احد مثلا « ماذا في ذهنك ؟ » فان هذا يعني ببساطة « فيم تفكر ؟ » . وبعبارة أخرى فانه نوع من السؤال القائل « ماذا تفعل ؟ » ، وهو لا يعني بأي حال وجود شيء يدعى ذهنك مستقلا عن جسدك .

وبالمثل اذا قيل لك « ان لك ذهناً من الدرجة الاولى » او « ذهنا قديرا » او « ان عليك ان تصلح ذهنك » فانك تفهم كل هذه الملاحظات على أنها تشير الى اعمال تقوم بها عادة . فاذا مت ، او

اذا اصبت في راسك او عانيت بشكل آخر اضطرابا في الذهن ، فان هذه الملاحظات عن ذهنك لا تعود تنطبق . لأن اوجه النشاط التي تشير اليها لم يعد ممكنا ان تؤدى ، لأن وسيلة ادائها قد دمرت .

ومن هنا فان الانسان مزود بالذهن بقدر ما يفكر ويشعر ويرغب وما الى ذلك . لكن كل اوجه النشاط هذه ، هي اوجه نشاط ، وظائف ، للانسان ، لكائن مادي ، لجسد منظم ، تتوقف على اعضاء الجسم المقابلة لها . فحين يوجد جسم يتوفر له التنظيم المناسب وشروط الحياة المناسبة ، تنشأ اوجه النشاط هذه وتتطور . حطم الجسد او اعضاءه فستتحطم اوجه النشاط هذه معه . وكل الوظائف واوجه النشاط الذهنية ـ التي يقال انها نتاج للذهن كشيء متميز عن المادة ـ هي وظائف كائن مادي حي او اوجه نشاطه . والذهن نتاج لتنظيم مادي .

الوعي والجهاز العصبي :

ليس كل جسم قادرا على التفكير والشعور وانما الاجسام العضوية الحية فقط . وليس كل جسم حي يبدي اوجه النشاط التي ترتبط بتطور الذهن . فالواقع ان ظهور الذهن مرتبط بتطور الجهاز العصبي المركزي في الحيوانات .

فحين طورت الاجسام الحية الجهاز العصبي ، وحين تطور الذهن من الجهاز العصبي المركزي ، ظهرت الى الوجود الوظائف الاولية للذهن التي تتركز حول الحس . ومع ازدياد وتطور المخ ـ القشرة المخية ومراكزها العليا التي نجدها في الانسان ـ ظهرت الى الوجود اعلى وظائف الذهن ، وظيفة التفكير . والمخ هو جهاز التفكير ، والتفكير وظيفة يؤديها المخ .

وقليلون هم الذين يمكن ان ينكروا هذه الحقائق في يومنا هذا . ومع هذا تنتشر معتقدات تتناقض معها ، وعلى سبيل المثال الايمان بحياة شخصية بعد الوفاة . ومن يؤمنون بهذا يفترضون عادة ان كثيرا من الاشياء ستصبح اكثر وضوحا لنا في وجودنا

الواعي المقبل بعدالحياة مما هيعليه الآن. وبعبارةاخرىيؤمنون بأن اذهاننا لا تستطيع ان تبلغ تطورها الكامل الا بعد ان نموت . انهم لا يؤمنون بان المخ هو جهاز الفكر بل بان فكرنا لن يبلغ الكمال الا بعد ان لا يكون لنا مخ نفكر به .

وقد اكد لينين انه كان من الضروري للوصول الى « تحليل وتفسير » للعمليات الذهنية ، وحتى نفهم طبيعتها واصلها ، ان « نبدا باجراء دراسة مباشرة للجوهر المادي للظواهر الذهنية ـ العمليات العصبية »(١) . وارست الفسيولوجيا الحديثة ـ التي برزت فيها اعمال عالم الفسيولوجيا الروسي ايفان بافلوف ـ اسس هذه الدراسة .

الكائن والبيئة :

كان الاعتقاد السائد قبل بافلوف هو ان الوظيفة الاولى للجهاز العصبي هي وظيفة تنسيق عمل مختلف اجزاء الكائن ، واطلق سير شارلز شيرينغتون على هذه الوظيفة « الفعل التكاملي للجهاز العصبي المركزي » . الا ان بافلوف اكد ضرورة بحث « جزء هائل آخر من فسيولوجيا الجهاز العصبي » ، لانه كان يعتبره « جهازا يقيم بالدرجة الاولى العلاقة لا بين اجزاء الكائن المفردة التي ظل اهتمامنا مركزا عليها اساسا حتى الآن وانما بين الكائن وبيئته » .

فليست الوظيفة الاولى للجهاز العصبي المركزي هي مجرد تنظيم سير مختلف اجزاء الكائن في علاقتها ببعضها البعض وانما هي تنظيم سير الكائن ككل في علاقته ببيئته .

ويقيم الحيوان في مجرى نشاطه ـ ومن خلال سير جهازه العصبي ـ اكثر العلاقات مع بيئته تعقيدا ، وبفضل هذه العلاقات يستطيع ان يعيش في بيئته ، وان يحصل على احتياجاته، وان يستجيب للظروف المحددة بطريقة محددة . وهكذا يرتبط الحيوان ببيئته بطريقة تجعله يعي بيئته وعيا ايجابيا ، ويستجيب

(١) ف. ا. لينين « من هم اصدقاء الشعب . الخ ... » ـ الجزء الاول .

للأحداث الاستجابة المناسبة ، ويؤثر بدوره عليها . ويستخدم الحيوان حواسه واطرافه للقيام بهذا كله ، والعضو الذي يحكم كل هذه العملية هو المخ .

وابسط اشكال الفعل المنعكس ـ حيث يؤدي تاثير منبه ما على الحواس الى استجابة عضلية ـ هو علاقة او صلة بين الحيوان وبيئته . فمثل هذا المنبه او ذاك يثير هذه الاستجابة او تلك وهذا يشير الى وجود علاقة ايجابية بين الحيوان وبيئته . وقد اوضح بافلوف ان العلاقة الايجابية بين الحيوان وبيئته تبدا من صلات ثابتة دائمة معينة بين الحيوان والعالم الخارجي اسماها **الافعال المنعكسة غير الشرطية**، وتتطور عن طريق اقامة صلات مؤقتة متغيرة اسماها **الافعال المنعكسة الشرطية** .

واستخدم بافلوف حقيقة معروفة للغاية كي يدرس تطور الافعال المنعكسة هي ان الحيوانات تفرز اللعاب من غددها اللعابية استعدادا لتناول الطعام . وهكذا يفرز الكلب كمية معينة من اللعاب حين يقدم اليه الطعام . وهذا فعل منعكس بسيط غير شرطي . قدم الطعام للكلب وسيسيل اللعاب في فمه . ثم وجد بافلوف اننا اذا قرعنا جرسا في كل مرة يقدم فيها الطعام للكلب فسيكون صوت الجرس ذاته كافيا بعد فترة من الزمن كي يفرز الكلب اللعاب حتى ولو لم نكن قد قدمنا اليه الطعام بعد . واسمى هذا فعلا منعكسا شرطيا ، ذلك انه نتيجة لشروط معينة ـ اي الربط المتكرر بين صوت الجرس والطعام ـ اصبح الكلب يستجيب استجابة مشروطة لصوت الجرس ، في حين ان استجابته للطعام ليست مشروطة . وبعبارة اخرى لقد تعلم الكلب الربط بين صوت الجرس والطعام ، واصبح يتوقع تقديم الطعام عندما يسمع الجرس ، ومن هنا فانه يستعد للطعام حتى قبل ان يقدم له فعلا .

وفي حين ان الافعال المنعكسة غير الشرطية جزء من وراثة الحيوان ، تطور في مجرى تطور الانواع ، فان الافعال المنعكسة الشرطية تظهر في مجرى حياة الفرد ـ وكما ظهرت فانها يمكن ايضا ان تغير او تدمر . وهكذا اذا لم يعد الطعام بعد فترة يقدم مع

صوت الجرس فسيكف الكلب عن الاستجابة لصوت الجرس ، أو من الممكن ان نعلمه الا يستجيب لصوت اي جرس وانما لرنين خاص وهلم جرا .

ونجد آلية الافعال المنعكسة في المخ ، في الصلة القائمة بين مراكز الحس ومراكز **الحركة** في المخ . فمراكز الحس متميزة عن مراكز **الحركة** ، لأن وظيفة الاولى هي تلقي الرسائل والثانية هي ارسال الرسائل ، وهي ترتبط فيما بينها بحيث انه حين تاتي رسالة من الحاسة المعينة الى مراكز الحس فانها تنتقل الى مراكز الحركة التي ترسل حينئذ رسالة الى العضلات والغدد ، الخ .. بحيث تحدث الاستجابة المناسبة للمنبه المعين .

وهكذا يقوم الفعل المنعكس غير الشرطي اذن على صلة ثابتة دائمة بين مراكز الحس ومراكز الحركة في المخ . وتقوم الافعال المنعكسة الشرطية على صلات مؤقتة متغيرة ومشروطة ، تتشكل بين مراكز الحس ومراكز الحركة في مجرى حياة الحيوان .

ومثل هذه الصلات بين مراكز الحس ومراكز الحركة داخل مخ الحيوان تشكل صلات بين الحيوان والعالم الخارجي ، لأن وظيفة الصلات داخل مخ الحيوان هي الربط بين الحيوان وما يوجد خارجه ـ اي بيئته .

وهكذا فان صلة الطعام ـ اللعاب- غير الشرطية داخل مخ الكلب تربط الكلب ببيئته بطريقة تؤدي الى ان يستعد الكلب ـ عند تقديم الطعام اليه ـ لتناوله وهضمه . وصلة الجرس ـ الطعام الشرطية داخل مخ الكلب تربط الكلب ببيئته بطريقة تؤدي الى انه حين يقرع جرس ـ تعلم الكلب الربط بينه وبين الطعام ـ فانه ايضا يستعد لتناوله .

ولا يعيش الحيوان الا عن طريق صلاته ببيئته ، اي عن طريق صلاته الخارجية ، التي تقوم عبر الصلات الداخلية في مخه . وقد اوضح بافلوف أن هذه الصلات بين الحيوان وبيئته تتشكل خلال تطور الصلات الشرطية من الصلات غير الشرطية ، اي تطور الافعال المنعكسة الشرطية من الافعال المنعكسة غير الشرطية .

ونوجز ما قلناه فنقول ان الصلة غير الشرطية هي صلة

موروثة ، دائمة نسبيا ، بين الحيوان وبيئته . فاذا مر شيء مثلا امام العين فجاة فلن العين تطرف : تلك صلة غير مشروطة تساعد على حماية العين . وبغض النظر عن الظروف المتغيرة التي يواجهها الحيوان فانه يرتبط بالعالم المحيط به عن طريق مثل هذه الافعال المنعكسة . انه يولد بمثل هذه الافعال المنعكسة ، التي تشكلت في مجرى تطور النوع .

اما الصلة الشرطية من الناحية الاخرى فانها صلة مؤقتة ومتغيرة للغاية بين الحيوان وبيئته ، يكتسبها الحيوان في مجرى حياته الفردية ، ويمكن بالمثل ان تختفي ، وعلى سبيل المثال سيتوجه الكلب الى مكان ما ليجد طعامه ، وتلك صلة اكتسبها في مجرى حياته : لقد تكيّف بحيث يبحث عن طعامه في هذا المكان ، وبعبارة اخرى لقد تعلّم ان يبحث عن طعامه هناك . واذا تغيرت الشروط فان مثل هذه الصلات الشرطية يمكن ان تتغير بالمثل . ويمكن ان يتعلم الكلب البحث عن طعامه في مكان آخر .

واوضح بافلوف ان من وظائف الجهاز العصبي في الحيوانات العليا اكتساب واقامة صلات مؤقتة متغيرة بين الحيوان وبيئته ، يستطيع بها الحيوان ان يكيف استجاباته مع الظروف المتغيرة لبيئته ، وكذلك ان يكيف بيئته ـ عن طريق فعله على بيئته ـ مع احتياجاته .

وتؤدى هذه الوظيفة في المخ . وبالتالي فقد وصف بافلوف المخ بانه « جهاز العلاقات الاكثر تعقيدا بين الحيوان والعالم الخارجي » .

النشاط والوعي ـ الاحساسات :

اكد بافلوف ان النشاط الذهني هو نفسه النشاط العصبي الارقى ، وان مختلف جوانب الحياة الذهنية ينبغي ان تفسر استنادا الى المعلومات التي نحصل عليها من دراسة النشاط العصبي الارقى وقال :

« ان الثنائية التي تنظر الى الروح والجسد كشيئين

منفصلين تماما مـا زالت مغروسة فينا بعمق . ومثل هـذا التمايز مستحيل بالنسبة للعالم » .

ان النشاط الذهني نشاط للمخ . واذا كان المخ هو جهاز العلاقات الاكثر تعقيدا بين الحيوان والعالم الخارجي فلا بـد ان نعتبر النشاط الذهني جزءا من النشاط الذي يربط به الحيوان نفسه بالعالم الخارجي . واساس هذا النشاط هو الافعال المنعكسة الشرطية .

وتبدا الحياة الذهنية حين تبدا الاشياء تـاخذ معنى بالنسبة للحيوان . ويحـدث هذا حين يبدا الحيوان ـ نتيجة لتكوين افعال منعكسة شرطية ـ في تعلم الربط بين شيء وآخـر . ان الشيء يصبح ذا معنى بالنسبة للحيوان حين يتعلم الحيوان الربط بين وجود هذا الشيء ووجود شيء آخر . وعلى سبيل المثـال يتعلم الكلب الربط بين منبه مـا لحاسة الشم ووجود نوع خـاص من الطعام ، او وجود كلب آخر ، او وجود سيده ، الخ .. ويتلقى الحيوان باستمرار عـددا هائلا مـن المنبهات من خـلال حواسه الخـارجية والداخلية ، ويتعلم ربط مختلف المنبهـات بمختلف الاشياء . وهكذا لا تصبح المنبهات المختلفة مجرد منبهات تستدعي اوتوماتيكيا استجابة ثابتة ، وانما تشكل بالنسبة للحيوان شبكة من اشـارات العالم الخارجي ومن علاقـاته بالعالم الخارجي ، تثير دائرة باكملها من الاستجابـات .

وهكـذا يصبح الحيوان مدركا للأشيـاء ادراكا ايجـابيا . وادراك الاشياء هو في الاسـاس حالة ايجابية لا سلبية . فـادراك الاشياء ليس مجرد التاثر بها بل الاستجابة لها .

ويعنـي الادراك ـ في المقـام الاول ـ ان الحيوان يميـز باستخـدام حواسـه سمـات معينة لبيئته عـن مجموع البيئة ويستجيب لهـا . وعلى سبيل المثال فـانه ينتقي طعـامه بالشم واللمس والنظر ويتناوله .

ويعني الادراك ـ ثـانيا ـ ان الحيوان يربط معنى معينـا

بمختلف سمات بيئته ، بمعنى انه يربطها بغيرها من الاشياء . وعلى سبيل المثال تصبح بعض الاشياء بالنسبة للحيوان علامات على وجود الطعام ، او على اقتراب شيء خطر وما الى ذلك ، ويستجيب الحيوان وفقا لذلك .

وهكذا فان الادراك الايجابي للأشياء الذي يتولد عن تكوين افعال منعكسة شرطية يعني ان يتعلم الحيوان الربط بين المنبه الذي يتلقاه فعلا واشياء اخرى لا يتاثر بها مباشرة في نفس الوقت . وبهذا يصبح قادرا على ان يتوقع شيئا ، وان يتعلم من الخبرة .

وبهذه الطريقة يولد تكوين الافعال المنعكسة الشرطية الفارق بين الذاتي والموضوعي . فلهذا الفارق ـ الذي كان موضع الكثير من التكهنات والتعميات من جانب الفلاسفة ـ تفسير طبيعي ، لان الفارق بين الذاتي والموضوعي يبدا في الظهور حالما يبدا الحيوان في ادراك الاشياء . انه ببساطة الفارق بين مجموع الظروف المادية القائمة وجوانبها التي يدركها الحيوان ، والمعنى الذي يربطها به .

ومن هنا فان الذاتي في مقابل الموضوعي ، والذهني في مقابل الجسدي ، والادراك في مقابل ما هو ادراك له ، كل هذه الفوارق تنشا نتيجة تطور النشاط العصبي الأرقى للحيوانات عن طريق اقامة علاقات اكثر تعقيدا بين الحيوان والعالم الخارجي بواسطة الافعال المنعكسة الشرطية .

والذاتي مختلف عن الموضوعي لان (أ) الحيوان لا يدرك الا اجزاء او جوانب من بيئته وليس بيئته كلها ، و (ب) لان المعنى الذي يربطه بالاشياء قد يكون خاطئا ـ اي ان الاشياء قد ترتبط فيما بينها ذاتياً بشكل يختلف عن ارتباطها فيما بينها موضوعيا ، في الواقع الفعلي .

والموضوعي سابق على الذاتي لان (أ) وجود الاشياء شرط لادراكها في حين ان ادراك الاشياء ليس شرطا لوجودها و (ب) لان الاشياء قد وجدت قبل ان يظهر **اي ادراك لها من** جانب الكائنات الحية .

ومن هنا فان **الوعي** ينشأ في نشاط الجهاز العصبي ـ نشاط اقامة علاقات معقدة ومتغيرة بالعالم الخارجي . فحين تبدا

المنبهات التي يتلقاها الحيوان تعمل ـ عن طريق تكوّن الافعال المنعكسة الشرطية ـ كاشارات له ، ويتعلم الحيوان معرفة مثل هذه الاشارات وتنظيم سلوكه وفقا لها ، يظهر الى الوجود كيف جديد في عملية الحيوان العصبية هو الوعي .

فالوعي ليس « شيئا » غامضا يظهر الى الوجود في موازاة عملية حياة المخ المادية وجنبا الى جنب معها . انه بالاحرى الكيف الجديد الذي يميز عملية الحياة هذه . ان عملية المخ تصبح عملية واعية نتيجة لعمل المخ باعتباره « جهاز العلاقات الاكثر تعقيدا بين الحيوان والعالم الخارجي » . والوعي هو الصفة الخاصة لعلاقة الحيوان بالعالم الخارجي المتاثرة بعملية حياة المخ . وتصبح هذه العلاقة علاقة يدرك فيها الحيوان بيئته من خلال المنبهات لمختلف مراكز مخه والصلات التي تقام في المخ . وبقدر ما يعيش الحيوان في مثل هذه العلاقة ببيئته يكون واعيا ، ويكون وجوده وجودا واعيا .

والشكل الاولي للوعي بين الحيوانات هو الوعي الحسي ، او الحس . وهو ينشا حين تكتسب مختلف المنبهات لحواسه معنى من خلال تكوين الافعال المنعكسة الشرطية وتصبح اشارات للحيوان . وبالنسبة للمراقب الخارجي لا تعدو هذه المنبهات ان تكون تحويرات للحواس يستجيب لها الحيوان بطرق محددة . لكن حياة الحيوان اصبحت عندئذ حياة واعية حسياً . لقد اصبحت عملية مخه ـ او بالاحرى جزءا من عملية مخه ـ عملية واعية تصبح فيها منبهات الحواس احساسات .

تطور النشاط الذهني الارقى للانسان :

وليس ثمة هوة لا اجتياز لها تفصل بين نشاط الانسان الذهني الارقى ـ النطق والفكر ـ والوعي الحسي الذي يمتلكه الانسان مع غيره من الحيوانات الاخرى . بالعكس ان هذا النشاط يظهر عن تطور تركيب المخ البشري ووظائفه باعتباره جهاز صلات الانسان بالعالم الخارجي .

يقول بـافلوف :

« حـين وصل العـالم الحيواني المتطور الى مـرحلة الانســان اضيفت اضافة بـالغة الاهمية الى آلية النشـاط العصبي الارقى » .

وهـذه الاضـافة هي النطق ـ وعمليات الفكر والافكـار لا تنفصل عن النطق . ومن المعروف ان للنطق اساسا ماديا في مراكز معينة في المخ البشري شكّل تطورها وفعلها هذه « الاضافة البالغة الاهمية الى آلية النشاط العصبي الارقى » التي تحـدّث عنها بافلوف ، والتي تميز الانسان ، ولو اصيب هذا الجزء او تلف فلن تتاثر او تضيع فحسب ؛ القدرة على النطق بل القدرة على التفكير .

وبتطور النطق كوسيلة للاتصال بين الافراد في المجتمع ، تصبح الحياة الاجتماعية ـ وكذلك بقاء النوع ـ مستحيلة بدونها . وتمتد جذور استخدام النطق ، القدرة على الحـديث وعلى فهم مـا يقال ، الى نشاط الانسان الحسي ، الذي يشترك فيه مع غيره من الحيوانـات . ومن الواضح انه قد تطور كاضافة لهذا النشاط الحسي تولـدت عن الظـرف الفريد لاسلوب الحياة الاجتمـاعية البشرية ، وتقدم على توسيع بنية المخ البشري ووظائفه .

وقـد طوّرت كثيرا من الحيوانـات وسائل للاتصال بغيرها من افراد نوعها حول الاوضاع التي تدركها من خـلال حواسها . وهكـذا تصدر الطيور نداء تحذير لتنبه غيرها مـن الطيور الى الخطر . وفـي بعض الحـالات تحـدث اتصالات على قـدر من التعقيد . وهكذا تؤدي النحلة التي تعود الى الخلية رقصة تطير بقية النحل استجابة لها في اتجـاه محدد وجدت فيه النحلة الاولى الرحيق . ويستطيع الكائن الانـساني بالمثل عن طريق النطق ان يوصل للآخرين وقـائع خاصة ادركها عن طريق حواسه . لكـن النطق يمكننا من ان نفعل اكثر من ذلك ، لانه لا يتالف مـن مجرد صرخات او اشارات ، بل من تجميع الكلمات وربطها .

إنّ الحيوان يعرف بحواسه الاشياء وخصائصها المحسوسة ، ومن ثم يستجيب لمختلف الظروف التي تواجهه . واذ يقيم الحيوان

صلات مشروطة بالاشياء عن طريق الاحساسات فانه يتعلم بالفعل ان يستجيب للاشياء ، ومن ثم يميز ما هو مشترك بين الاشياء المختلفة ، اي يعرف نفس النوع من الاشياء ونفس الصفات للأشياء في مناسبات مختلفة . اما في النطق البشري فان هناك ـ في المقام الاول ـ كلمات تدل على مختلف انواع الاشياء ومختلف صفات الاشياء التي نعرفها من خلال احساساتنا . وهكذا نستطيع بالربط بين هذه الكلمات ان نتحدث كما نريد عن مختلف انواع الاشياء ، وننسب لها صفات مختلفة ، وبذا لا نقوم فقط بتوصيل المعلومات عن وقائع حسية خاصة ندركها ادراكا مباشرا ، وتستدعي استجابة مباشرة ، بل كذلك عن انواع الاشياء التي تحيط بنا ، وما لها من صفات ، وكيف يمكن تغييرها ، وليس عما هو موجود مباشرة وحسيا ، بل كذلك عن الماضي والمستقبل ، وعن البعيد في المكان ، وليس فقط عما هو فعلي ، بل عما هو ممكن او متخيّل .

ويقوم النطق بوظيفة تجريدية وتعميمية بالنسبة لما ندركه عن طريق الحس ، وبذا يصبح من الممكن توصيل الخطط والافكار وكل النشاط الارقى للفكر . فتملك الافكار يعني تملك الكلمات واستخدام النطق . ويتيح لنا هذا صلات اوسع بالعالم المحيط بنا ، وعلاقات فيما بيننا اكثر اختلافا عن العلاقات بين الحيوانات غير الناطقة . ان الكائنات البشرية التي تتصل عن طريق النطق تضع نفسها في علاقة جديدة بالعالم المحيط بها وببعضها البعض اكثر تعقيدا بالمقارنة بالحيوانات الاخرى التي تقتصر على العلاقات التي تقيمها من خلال الحس وحده . والمخ البشري هو جهاز هذه العلاقة ، ونشاط المخ البشري التجريدي والتعميمي والتخطيطي والفكري هو نشاط تطوير هذه العلاقة .

ومن الواضح انه بدون الحس الذي يشترك فيه الناس مع الحيوانات الاخرى فانه لا يمكن ان يوجد نطق او تفكير ، لان هذين يتطوران عن نشاط الانسان الحسي . ومن الناحية الاخرى فان تطور الحس الانساني يعدله النطق . فادراكنا الحسي تحكمه افكارنا وتوجهه . وهكذا ليست لدينا فحسب احساسات الرؤية

والسمع واللمس ، الخ .. التي نستجيب لها بل ان هذه الاحساسات تتكامل في ادراكات لأشياء لدينا افكار عنها ونعرف اسماءها . ويتضح هذا على سبيل المثال من ان تسمية الاشياء جزء لا غنى عنه بالنسبة لتربية حواس الاطفال ، ومن ان الناس الذين نسوا اسماء الاشياء نتيجة اصابة في مخهم يصابون بالخلط في استجابتهم لهذه الاشياء .

وهكذا نستطيع ان نستخلص ان اصل احساساتنا بل افكارنا ايضا وكل نشاط الانسان الفكري والروحي الارقى هو العمليات المادية للكائن الانساني ، وانها تعتمد على عضو جهاز جسدي هي وظائف له ، وتنمو عن التفاعلات بين الكائن الانساني وبيئته ـ الطبيعية والاجتماعية ـ خلال وساطة النشاط العصبي الارقى للمخ .

الفصل الثاني

الذهن نتاج وانعكاس للمادة

العمليات الذهنية عمليات للمخ
تربط الكائن ببيئته :

سنحاول في هذا الفصل ايجاز الاستخلاصات الرئيسية التي توصلت اليها الماركسية عن العلاقة بين المادة والذهن ، والتي اكدها كل بحث علمي ، وان نقابل بينها وبين الافكار التي تعتنقها المثالية .

ان الوظائف الذهنية وظائف للمادة الأرقى تطوراً ، اي للمخ ، والعمليات الذهنية عمليات للمخ ، عمليات لجهاز مادي جدي .

والسمة الاساسية للعمليات الذهنية هي ان الحيوان يقيم باستمرار ـ فيها ومن خلالها ـ اعقد العلاقات ببيئته واكثرها تنوعا . فحين ندرك الاشياء نربط انفسنا بالموضوعات الخارجية خلال نشاط المخ التفكيري .

اما المثالية التي تؤمن بأن الوعي ينتمي لذهن يوجد منفصلا عن المادة فانها تعتمد عموما على منهج الاستبطان كي تفسر وعينا ، ونعني به منهج التأمل داخل وعي الانسان ـ اذا امكن القول ـ ومحاولة تحليل ما نجده هناك .

والمثل البارز على استخدام المنهج الاستبطاني في علم النفس الحديث هو التحليل النفسي . لقد طوّر التحليل النفسي تكنيكا

خاصا للاستبطان المحكوم ، يطبق بالتعاون بين المريض والمحلل النفسي . ويزعم المحلل النفسي انه بدفع المريض الى أن يذكر كل ما يرد الى ذهنه ، ويقص احلامه وما الى ذلك ، يكتشف خلف الوعي مملكة باسرها من اللاوعي . وهكذا تطورت نظرية محكمة للغاية عن مختلف اجزاء الذهن وعلاقاتها ووظائفها ـ عن الوعي واللاوعي والأنا والهو والأنا الاعلى . وليس هذا الا توسيعا للمنهج الذي يستخدمه كل الفلاسفة وعلماء النفس المثاليون حين يحاولون تحليل الاجزاء المكونة للعقل البشري ، فيصنفونها ، ويربطون بينها ، ويحاولون تتبع تطورها ، معاملين الوعي طيلة الوقت وكأنه عالم بذاته ، منفصل عن العالم المادي الخارجي .

وقد استخلص كثير من الفلاسفة ـ بتبني مثل هذا المنهج ـ ان الادراك الحسي والافكار التي تشكل مضمون الوعي هي نوع خاص من الموضوعات له وجود ذهني متميز عن الوجود المادي للموضوعات خارج الوعي .

وبالنسبة لمثل هؤلاء الفلاسفة فان ما ندركه في حياتنا الواعية ليس موضوعات مادية باي حال . اننا لا نعرف الا افكارنا عن الاشياء وليس « الاشياء في ذاتها » . وهكذا يقول الفيلسوف الانكليزي جون لوك في « بحث في الفهم الانساني » :

« ليس للذهن في كل تفكيره وتدليلاته من موضوع مباشر الا افكاره هو ، وهو وحده الذي يستطيع ان يقوم بتأملها » .

ومن هنا يستخلص المثاليون ان الله وحده هو الذي يعرف صفات « الاشياء في ذاتها » ، لانهم يعتبرون احساساتنا وافكارنا نوعا من الجدار داخل وعينا يفصله عن العالم الخارجي ، ويمضي البعض خطوة ابعد ويستخلصون انه ليس ثمة سبب للاعتقاد بان الاشياء المادية الخارجية موجودة اصلا : فلا توجد الا اذهاننا والاحساسات والافكار في اذهاننا . يقول جورج بيركلي في كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » :

« اذا كانت هناك اجسام خارجية فمن المستحيل ان

نصل ابدا الى معرفتها . واذا لم تكن هناك فربما ظلت لدينا نفس الاسباب التي تدفعنا الى الاعتقاد بوجودها شاننا الآن » .

لكن هناك منهجاً آخر لدراسة وعينا ، ونعني به منهج العلم ، الذي يدرس الكائنات الحية الواعية في علاقتها الايجابية ببيئاتها . وهذا المنهج لا يعامل الوعي كموضوع خاص للتامل الاستبطاني ، ومن ثم فانه لا يدرس الوعي وكانه شيء يوجد مجردا عن عملية حياة الكائنات الحية الواعية ، وانما بالعكس يدرس نشاطها الواعي . وكما قال ماركس وانجلز بايجاز في « الايديولوجية الالمانية » فان « الوعي هو دائما وجود واعٍ » .

وجوهر النشاط الواعي ـ كما قلنا ـ هو اقامة علاقات معقدة ومتنوعة بين الكائن الواعي وبيئته ، ويؤدي المخ هذه الوظيفة . وبالتالي فان عمليات الوعي عمليات نربط بها انفسنا بالعالم الخارجي ، ان احساساتنا وافكارنا ابعد من ان تقف في طريق فهمنا للأشياء الخارجية بل انها الوسيلة التي نفهم بها هذه الاشياء .

يقول لينين :

« الاحساس هو الصلة المباشرة بين الوعي والعالم الخارجي . وتكمن مغالطة الفلسفة المثالية في انها لا تعتبر الاحساس الصلة بين الوعي والعالم الخارجي وانما حاجزا ، جدارا ، يفصل الوعي عن العالم الخارجي »(١) .

ومن هنا فان الماركسية اذ تتبنى النظرة العلمية لدراسة الوعي تنكر النظرية المثالية التي تقول اننا حين ندرك اننا نشعر او نفكر فان ثمة **عمليتين منفصلتين** تجريان العملية المادية للمخ والعملية الذهنية للوعي . فليست هناك سوى عملية **واحدة** هي عملية المخ المادية . وليست العمليات الذهنية الا جانبا من جوانب عمليات سير المخ كجهاز لاكثر العلاقات بالعالم الخارجي

(١) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الاول .

تعقيدا .

وهكـذا يقول مـاركس إن التفكـير هو « عملية حياة المخ الانسـاني »(٢) .

الوعي نتاج لتطور المادة :

ترى المثالية ان ظواهر مثل الادراك الحسي والشعور والافكار لا يمكن أن تنتج عن فعل اي جهاز مـادي ، وتؤمن بـأن الصفة الخاصة للوعي ، التي تميز العمليات الذهنية ، لا يمكن تفسيرها كشيء ناشيء عن اي ربط بين ظروف مـادية ، بل هي صفة لا تتفق على الاطلاق مع كل صفات الاجهزة المـادية . وتستخلص المثالية أن مثل هذه الصفة لا يمكن أن تنتمي الا الى شيء غير مـادي هو الذهن .

لكن كل الحقائق المعروفة تشير الى استخلاص ان الوعي نتاج لتطور المـادة ، وبالتحديـد لتطور الاجسام الحية ذات الجهاز العصبي المركزي ، وان المدركات والمشاعر والافكـار هي في الواقع ارقى منتجات المـادة .

يقول انجلز :

« فـاذا هـا اثير السؤال : مـا هو اذن الفكر والوعي ومـن اين جـاءا فسيصبح مـن الواضح انهما نتاج للمخ الانسـاني ، وان الانسان نفسـه نتاج للطبيعة ؛ تطور في بيئته وجنبا الى جنب معها »(٣) .

ثم يقول انجلز في مكان آخر :

« ان العالم المـادي المدرك حسيا هو الواقع الوحيد . ووعينا وتفكيرنـا مهما بديـا فوق الحس هما نتاج لجهاز مـادي ، جسدي ، هو المخ . فالمـادة ليست نتاجا للذهن ،

---

(٢) ك. مـاركس « راس المـال » ـ مقدمة الطبعة الثانية .

(٣) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل الثالث .

بل إن الذهن نفسه ليس سوى ارقى نتاج للطبيعة »(٤) .

فحين تطور الحيوانات جهازا عصبيا وتبدا في ربط نفسها ايجابيا ببيئتها بصلات مشروطة فان العملية العصبية تصبح عملية واعية ، عملية حس ، وعملية تفكير لدى الانسان . ومن هنا فان الاحساسات والافكار نتاج خاص للعملية العصبية .

ويقول لينين إن الحس هو « احد خواص المادة في حركتها » . ويستطرد قائلا :

« فالمادة اذ تؤثر على حواسنا تنتج الحس . ويتوقف الحس على المخ والاعصاب والشبكة ، الخ .. اي على مادة منظمة بطريقة محددة .. فالحس والفكر والوعي نتاج ارقى للمادة المنظمة بطريقة خاصة »(٥) .

الوعي انعكاس للعالم المادي :

يقول كثير من المثاليين الذين يؤمنون بان الذهن يوجد منفصلا عن الجسد ، وان المدركات والافكار لا يمكن ان تكون نتاجا لاية عملية مادية ، ان المدركات والافكار ابداعات للذهن تشغل وعينا بصورة مستقلة عن وجود الاشياء الخارجية المادية .

لكن الماركسية تؤكد ان المدركات والافكار ليست سوى انعكاسات للأشياء المادية . فعمليات الوعي عمليات تعكس الواقع الخارجي المادي ، ولا يمكن ان يولد شيء في الوعي الا انعكاس للعالم الخارجي .

ويقول ماركس :

« فالمثالي ليس سوى العالم الخارجي وقد عكسه الذهن الانساني وترجمه في شكل افكار »(٦) .

---

(٤) ف. انجلز « لودفيغ فيورباخ » ـ الفصل الثاني .

(٥) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الاول .

(٦) ك. ماركس « راس المال » ـ مقدمة الطبعة الثانية .

وهو يرى انه في عملية التفكير ، وفي الوعي عموما ، ينتج انعكاس لمختلف اجزاء او جوانب العالم المادي في عملية مادية خاصة هي عملية حياة المخ . ففي وعينا تترجم مختلف اجزاء او جوانب العالم المادي الى اشكال للوعي ـ مدركات حسية وافكار . وهي تصور في نشاط حياة المخ ، في اشكال تتلاءم مع هذا النشاط .

وهكذا مثلا فان خواص مختلف الاجسام التي تمتص الضوء وتعكسه تصور ـ في النشاط الحسي للمخ ـ في شكل احساسات باللون ، كما ان علاقات الاشياء وسماتها المشتركة تصور ـ في النشاط التفكيري للمخ ـ في شكل مفهومات .

فماذا نعني بالدقة بـ « الانعكاس » حين نقول ان الوعي انعكاس للواقع المادي ؟ ان هناك اربع سمات لعملية الانعكاس ينبغي ان نلفت اليها الانتباه .

الواقع المادي هو الاولي وانعكاسه الذهني ثانوي أو مشتق :

(أ) تتضمن عملية الانعكاس علاقة بين عمليتين ماديتين منفصلتين ، بحيث ان سمات العملية الاولى تصور في سمات مقابلة للعملية الثانية . والعملية الاولى هي الاولية اما الثانية فهي الثانوية او المشتقة ، لان العملية الاولى تتطور في استقلال كامل عن الثانية في حين ان تصوير سمات العملية الاولى عن طريق الانعكاس في العملية الثانية لا يحدث الا اذا كانت هذه السمات موجودة اولا كي تصور او تنعكس .

ويمكن ايضاح هذه السمة الاساسية لأي عملية انعكاس بالانعكاس في مرآة ـ رغم اننا سنرى ان الانعكاس الايجابي للواقع الخارجي في الوعي يختلف في جوانب هامة عن الانعكاس السلبي الذي يحدث في مرآة .

وهكذا فحين تنعكس موضوعات ما في مرآة فان هذه الموضوعات التي توضع امام المرآة لا تعتمد ـ في وجودها او في

خصائصها ـ على انعكاسها في المرآة ، لكن الانعكاس في المرآة من الناحية الاخرى يعتمد على ما يوضع امام المرآة ، ولا ينعكس في المرآة شيء لا يصور بشكل او آخر خصائص ما يوضع امام المرآة . ومن هنا فان الموضوع اولي والانعكاس ثانوي او مشتق .

وبالمثل لا يعتمد وجود الموضوعات المادية على وعينا بها ، ولكن من الناحية الاخرى ليس ثمة شيء في وعينا لا يصور بشكل او بآخر شيئا موجودا في العالم المادي .

ان كثيرا من خصائص الاشياء لا يصور في احساساتنا ؛ غير انه لا يوجد احساس لا يتجاوب ـ بصورة او اخرى ـ مع بعض الخصائص المحددة للأشياء . وكثير من العلاقات بين الاشياء وسماتها المشتركة لا تصور في مفهوماتنا ، لكننا لا نستطيع ان نكوّن في ذهننا مفهوما لا يصور ـ بشكل او بآخر ولو بصورة خيالية ـ (كما يحدث في مرآة مشوهة) بعض سمات الاشياء او علاقاتها .

وبالطبع تبدو كثير من المفهومات وكانما ليس لها اساس من انعكاس الواقع المادي ، لأن المفهومات ـ حالما تتشكل ـ يمكن ان تربط بكل الطرق الخيالية . وعلى سبيل المثال نعرف جميعا ان مفهوم عروس البحر لا يعكس حيوانا واقعيا ، بل ان هذا المفهوم قد تكوّن بالربط بين افكار عن حيوانات واقعية هي النساء والاسماك . وبالمثل يستطيع الماديون ان يقولوا في اتساق انه ليس ثمة موضوع واقعي يتمشى مع مفهوم الله كثالوث يتمتع بقدرة غير محدودة ومعرفة غير محدودة ، وانما ان مفهومات الاشخاص والقدرة والمعرفة واللانهائية قد تكوّنت جميعها كانعكاس للواقع المادي .

ومن هنا فحين نقول إنّ الواقع المادي ينعكس في الوعي فاننا نعني ان سمات الواقع المادي تصوّر في الوعي ، وان الواقع المادي اولي وتصويره في الوعي ثانوي او مشتق .

يقول لينين :

« ليس وعينا الا صورة للعالم الخارجي . ومن الواضح ان الصورة لا يمكن ان توجد دون الشيء الذي

تصوّره ، وان هذا الاخير يوجد مستقلا عن صورته »(٧) .

الواقع المادي ينعكس في الوعي في أشكال يحددها نشاط المخ :

(ب) ان ما يوجد في شكل ما في العملية الاولية يصوّر في شكل آخر في العملية الثانوية او الانعكاس . فما يوجد مستقلا في شكل ما يترجم ـ اذا امكن استخدام التعبير ـ في شكل آخر في عملية الانعكاس . ومن هنا فان عملية الانعكاس هي عملية ترجمة او تحويل من شكل الى آخر . ويتوقف شكل الانعكاس بالطبع على طبيعة عملية الانعكاس .

ومن هنا فحين نقول إنّ الواقع المادي ينعكس في الوعي فاننا نعني ان سمات العمليات المادية تصوّر ـ في عملية مادية اخرى هي عملية حياة المخ ـ في اشكال خاصة هي اشكال المدركات الحسية والافكار .

وتخلق هذه الاشكال في فعل عمليات الذهن . وهكذا يصور الواقع المادي او ينعكس في الوعي في أشكال تخلقها الاحتياجات العملية للكائنات الحية الواعية وتتكيف مع هذه الاحتياجات .

فاحساساتنا مثلا هي انعكاسات لسمات الاشياء المادية في عملية مخنا الواعية ، لكن هذه السمات ليست ذاتها احساسات وانما هي تنعكس في احساسات ، واحساساتنا هي الشكل الذي نعيها به على الدوام وبذا نستطيع الاستجابة لها .

وهكذا فحين نرى الالوان مثلا فاننا لا نرى اشياء لا توجد الا في اذهاننا ـ كما زعم بعض الفلاسفة ـ وانما نرى اشياء توجد مستقلة خارج اذهاننا . فالصفات التي توجد في الاشياء الواقعية كصفات امتصاص الضوء وانعكاسه تنعكس في وعينا الحسي في شكل احساسات بالالوان .

---

(٧) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الاول .

وهكذا يقول لينين في الفصل الذي سبق ان استشهدنا به :

« اذا كان اللون احساسا لا يتوقف الا على الشبكية (كما يجبرك العلم الطبيعي على الاعتراف) فان اشعة الضوء التي تسقط على الشبكية تنتج احساسا باللون . ويعني هذا انه توجد خارجنا ، وفي استقلال عنا وعن اذهاننا ، حركة للمادة ... تنتج حين يؤثر على الشبكية احساس الانسان بلون خاص . وتلك بالتحديد هي الطريقة التي ينظر بها العلم الطبيعي الى المسألة ، انه يفسر الاحساسات بمختلف الالوان باختلاف اطوال الموجات الضوئية التي توجد خارج الشبكية الانسانية ، خارج الانسان ومستقلة عنه »(٨) .

والفكر ايضا ينتج انعكاسا اكثر تجريدا ، اكثر عمومية ، للواقع من الادراك الحسي، ففي اي شكل ينعكس الواقع في افكارنا ؟ انه ينعكس في شكل قضايا ، فالفكر يظهر في قضايا يربط فيها موضوع ما بمحمول ما مثلا . والعالم المادي لا يوجد في شكل ربط بين الموضوعات والمحمولات . فهذا الربط نتاج للنطق ، لنشاط المخ التفكيري ، وخلاله ينعكس الواقع في الفكر ، وتلك هي الطريقة التي « يترجم بها » العالم المادي « الى اشكال للفكر » .

فلنأخذ مثلا موضوعا ما ، وليكن قلماً احمر . فحين نفكر في مثل هذا الموضوع نعبّر عن استخلاصاتنا عنه في قضايا مثل « هذا القلم احمر » . وتنقسم هذه القضية الى موضوع ومحمول يرتبطان في القضية ، لكن الموضوع ليس مقسماً بهذه الطريقة في الواقع العيني . فالقلم الاحمر لا ينقسم الى جزئين ، موضوع هو القلم ومحمول هو احمر . غير أنه من الواضح اننا حين نقول « هذا القلم احمر » فان القضية تعكس واقع القلم الذي « يترجم الى اشكال الفكر » ترجمة صحيحة .

---

(٨) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الاول .

يحدث انعكاس الواقع الموضوعي في الوعي خلال العلاقة الايجابية بين الكائن الحي وبيئته :

(ج) الانعكاس دائما نتاج للعلاقة والتفاعل بين العملية التي يجري فيها الانعكاس والعملية الاولية التي تنعكس ؛ ومصدره هو العملية الاولية .

وهكذا فان عملية حياة المخ تصور او تعكس في منتجاتها ـ المدركات الحسية والافكار ـ الواقع المادي المحيط الذي هو مصدر كل المدركات الحسية والافكار . ويحدث هذا الانعكاس في الفعل المتبادل بين الكائن الحي وبيئته ونتيجة لهذا الفعل . وينظم المخ هذا التفاعل باعتباره جهاز اكثر علاقات الحيوان ببيئته تعقيدا . والمخ ينشط دائما في عملية الانعكاس ، وينتج دائما انعكاسا للموضوعات الخارجية في الوعي .

ويترتب على هذا اذن ان الطريقة التي ينعكس بها العالم الخارجي في الوعي تحكمها العلاقة الايجابية بين الكائن الحي الواعي وبيئته ، تحكمها ظروف الحيوان وحالته الداخلية وعلاقاته الخارجية .

واذا اخذنا هذا في اعتبارنا فسيصبح من الواضح ان الموضوعات المنعكسة يمكن ان تتغير كثيرا في عملية انعكاس الواقع المادي في وعينا ، لأن الانعكاس ليس بأي حال شبيها بصورة مرآة مباشرة للموضوع ، وانما هو نتاج لعملية تفاعل مركبة ينشط المخ فيها على الدوام .

وهذا هو المسؤول عن الحقيقة المعروفة وهي ان ادراكاتنا الحسية عن الموضوعات كثيرا ما تكون مضللة ، فهي قد تسيء تصوير الموضوعات او حتى تقودنا (كما في بعض الاوهام والهلوسات) الى افتراض وجود موضوعات ليست موجودة حقا .

وقد عارض كثير من الفلاسفة الفكرة المادية القائلة ان الوعي يعكس الواقع الخارجي . وتقوم احدى الحجج التي قدموها لمعارضة هذه الفكرة ببساطة على طبيعة ادراكاتنا الحسية .

انهم يقولون « خذ بنساً . . إنك تعتقد أن للبنس المادي شكلا وحجما محددين ، وان هذا الموضوع المادي ينعكس في ادراكاتك الحسية حين تنظر اليه . حسنا ، لو انك نظرت الى هذا البنس من بعيد فسيبدو صغيرا ، واذا قرّبته من عينك فسيبدو كبيرا ، ولو انك امسكته بطريقة ما فسيبدو مستديرا في حين انك لو امسكته بطريقة اخرى فسيبدو بيضاويا . والواقع ان إدراكاتك الحسية له تختلف بكل الطرق في حين ان الموضوع المادي ــ الذي يزعم ان ادراكاتك الحسية ليست سوى صورة له ــ لا يتغير على الاطلاق . فكيف اذن يمكن ان يقال إنّ الادراكات الحسية تعكس الواقع الخارجي اذا كانت تتغير في حين لا يتغير هذا الاخير ؟ » .

ونستطيع بسهولة ان نرد على هذا السؤال الذي يطرح بثقة كأنه حجة لا رد لها ضد نظرية الانعكاس . إنّ الفلاسفة الذين يناقشون بهذه الطريقة قد نسوا ببساطة ان الانعكاس عملية إيجابية ، تحكمها العلاقات الفعلية بين الكائن وبيئته .

وهكذا فاذا نظرنا الى نفس الشيء من ابعاد مختلفة او من زوايا مختلفة فسينعكس بالطبع بصور مختلفة في ادراكاتنا الحسية ــ وسيختلف حجمه أو شكله . كذلك لو اننا رأينا شيئا ما خلال اوساط مختلفة فسيبدو بالطبع مختلفاً ــ كما تبدو العصا السليمة منكسرة حين توضع في الماء . كما ان الانعكاس سيتغير بالضرورة نتيجة حالة حواسنا الفعلية ــ إضغط على زاوية عينك وسترى كل شيء شيئين . ضع احدى يديك في ماء ساخن والاخرى في ماء بارد ثم اغمسهما معاً في وعاء به ماء وستشعر بان الماء ابرد بالنسبة لاحدى اليدين منه بالنسبة للاخرى . واخيرا فلما كان الادراك الحسي نشاطا للمخ فليس بالغريب انه بعد ان تنعكس الموضوعات في هذا النشاط فان المخ يستطيع ان يصور انعكاسات لهذه الموضوعات في ظروف معينة حتى حين لا تكون موجودة ــ كما في الاحلام والاوهام من كل نوع وفي الهلوسات .

واكثر من هذا فاننا يمكن في عمليات التفكير ان نسيء تصوير

خواص الاشياء امام انفسنا ، وان ننسب لها صفات ليست لها ، ونفكر في اشياء لا وجود لها على الاطلاق . وعن طريق الفكر كثيرا ما نصحح اوهاما تحدث في الادراك الحسي ، لكننا ايضا كثيرا ما ننتج اوهاما جديدة اكبر .

انعكاس الواقع في الوعي عامل ايجابي في توجيه ممارسة تغيير الواقع :

(د) تعني حقيقة ان الانعكاس في الوعي نتاج لنشاط الحياة، لنشاط الكائن في علاقته ببيئته ، ان وعي الانسان ـ كلا من إدراكاته الحسية وافكاره ـ تحكمه باستمرار خبرته ونشاطه الاجتماعي .

فما يدركه الناس حسيا وما يفكرون فيه لا ينشأ عن عملية تصوير مباشرة للواقع الخارجي في الادراك الحسي والفكر وانما تحكمه خبرتهم واسلوب حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية .

وهكذا فان من المعروف ان الاختلافات في خبرة الناس واسلوب حياتهم تحدد الاختلافات فيما يدركونه عن الاشياء . فادراكات المهندس الماهر الذي يفحص آلة معقدة مثلا ليست نفس ادراكات رجل لا يعرف مثل هذه الآلات رغم ان حواسهما قد تتاثر بطرق متشابهة تماما . وادراكات فلاح ينظر الى مشهد ريفي ليست نفس ادراكات ساكن المدينة ، كما ان الفنان يدرك نفس المشهد بطرق اخرى .

واكبر من ذلك الاختلافات التي تنشأ بين مفهومات الناس وافكارهم عن الاشياء على اساس الاختلافات في الطبقة والخبرة والتربية .

كما ان الافكار عن الاشياء تمارس لدى الكائن الانساني تاثيرا مرتدا على الادراكات الحسية . فحقيقة اننا لا ندرك الاشياء حسيا فحسب بل نكوّن عنها افكارا ، تؤثر على الادراك الحسي . والواقع ان هذا قد تجسّد في الامثلة التي ضربناها . فاذا كان المهندس الماهر يدرك المزيد عن الآلة عن غيره من الناس فذلك لان لديه المزيد من الافكار عنها عما لديهم . وكما ان الفنانين قد يدركون

في الاشياء اكثر مما يدرك غير الفنانين فان مختلف الفنانين بدورهم يدركون الاشياء بصورة مختلفة وفقا لافكارهم عنها . ويتضح هذا على سبيل المثال في الطرق المختلفة التي يصور بها الرسامون ذوو النظرة المختلفة ، البشر .

ان انعكاس بيئاتنا وعلاقاتنا ببيئاتنا في وعينا عامل ايجابي للغاية في تحديد نشاطنا لتغيير بيئاتنا . ولا يعني كون الوعي انعكاسا انه ليس عاملا ايجابيا في الحياة . فالوعي هو في المقام الاول نتاج لنشاط الحياة ، وهو ثانيا نتاج يلعب دورا رئيسيا في توجيه هذا النشاط الذي هو نتاج له . لقد انتجت الحياة ـ في الوعي ـ وسلية توجيه الحياة نحو اغراض محددة .

والوجود الواعي هو نشاط الحياة الذي يحكمه انعكاس الظروف الخارجية في المخ . وهذا الانعكاس هو ـ في المقام الاول ـ نتاج للعلاقات الايجابية بين الكائن الواعي وبيئته ، وهو بدوره يحكم بصورة ايجابية التطور اللاحق لهذه العلاقات خلال ممارسة الانسان لتغيير بيئته . فوعي الانسان نتاج لممارسته يلعب دور توجيه هذه الممارسة .

واخيرا لا بد ان نضع في ذهننا ونحن ندرس دور الوعي الايجابي ان انعكاس العالم المادي في الوعي لا يتخذ فقط شكل الادراكات الحسية والافكار ، فالانسان في وجوده الايجابي الواعي يشعر ايضا بالعواطف .

ويرى كثير من المثاليين ان العواطف تفيض عن وجود الانسان الروحي الداخلي . لكن العواطف لدى الماديين هي ايضا اساليب لانعكاس الواقع المادي في وعي الانسان . إنها تعكس العلاقة الايجابية بين الانسان وبيئته . فالانسان اذ ينشط ، واذ يتأثر بالاشياء في هذا النشاط ، ويتخذ موقفا محددا من الاشياء والتغيرات الممكنة فيها، يشعر بعواطف عن هذه الاشياء ، وتدفعه العواطف في نشاطه . فالانسان في وجوده الواعي لا يدرك الاشياء في ادراكاته الحسية وافكاره فقط ، بل يشعر كذلك عاطفيا بعلاقته الايجابية بالاشياء .

ومن هنا فان الوعي العاطفي جزء ضروري من الحياة .

فالانسان يرتبط بالواقع المحيط به بادراكه حسيا ، وبتكوين افكار عنه ، لكن هذه العلاقة لا بد ان تكتمل بالعواطف التي يحسها عنه . وبالمثل لا بد ان تسترشد العواطف بالادراكات الحسية والافكار .

المادة وانعكاسها :

ولنوجز ما قلناه :

ليس ثمة وعي بمعزل عن مخ حي . ومصدر كل وعي ، كل ما يدخل الوعي ، هو العالم المادي . ويحدث في الوعي انعكاس للعالم المادي في عملية حياة المخ ، وهذا الانعكاس هو الذي يشكل مضمون الوعي .

ومن هنا فليس هناك مجالين منفصلين متميزين للوجود ، مجال مادي ومجال روحي . ليس هناك عالمين ، عالم مادي وعالم روحي ، وانما هناك عالم مادي فقط ، عمليات مادية فقط .

يقول لينين :

« ليس للتضاد بين المادة والذهن دلالة مطلقة الا داخل اطار مجال محدد للغاية ، الا داخل اطار المشكلة الاساسية ، مشكلة ايهما سيعتبر اوليا وايهما سيعتبر ثانويا . وخارج هذه الحدود فان الطابع النسبي لهذا التضاد امر لا ريب فيه »(٩) .

وفي مجرى التطور المادي يظهر انعكاس العمليات المادية في عملية مادية خاصة هي عملية حياة المخ . وحين نميز بين المادي والروحي ، بين المادة والذهن ، فاننا انما نميز بين الوجود المادي ـ الحركة في المكان والزمان ـ وبين انعكاسه في عملية حياة المخ .

وكل من العملية التي تولد الانعكاس والعملية التي يجري فيها الانعكاس عملية مادية . لكن الانعكاس ليس ماديا وانما ذهني ـ وبعبارة اخرى انه ليس مادة ، لكنه انعكاس للمادة .

---

(٩) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثالث .

الفصل الثالث

العمل الاجتماعي والتفكير الاجتماعي

المخ الانساني وماذا نصنع به

المخ الانساني ـ الذي يستطيع وحده انتاج الافكار العامة ، الوعي من خلال المفاهيم ، التفكير ـ هو نتاج تطور طويل لاشكال الحياة . انه تتويج لعملية تطور في حجم المخ وبنيته ، وبشكل خاص فان القشرة المخية اكبر بكثير لدى الانسان منها عند الحيوانات الاخرى ، كما ان جزءا كبيرا من القشرة اصبح مختصا بالتحكم في الايدي واعضاء النطق .

صحيح اننا لا نزال في بداية المعرفة العلمية لطريقة عمل المخ ، لكننا نعرف ما يكفي لكي نؤكد عن ثقة ان المخ هو جهاز التفكير ، وان التفكير يتم بواسطة المخ ، وان تطور حجم وبنية معينين للمخ كان شرطا ضروريا لقدرتنا على التفكير به .

وقد حدث التطور البيولوجي للمخ الى جهاز قادر على التفكير في المرحلة قبل الانسانية من تطور الانسان ، من تلك المرحلة التي كانت الحيوانات الشبيهة بالقرود تتطور فيها الى انسان . وربما جرت الخطوة الحاسمة في تطور الانسان حين اتخذت هذه الحيوانات وضعا منتصبا ، فقد ادى هذا الى تحرر اليد التي انجز بها كل نشاط الانسان الانتاجي ، ومع استخدام اليد مضى

تطور اليد الفيزيائي الى اليد الانسانية ، ومعه تطور المخ الذي يتحكم في اليد الى مخ انساني .

وكان لدى الانسان الاول بالفعل نفس المخ الذي لدينا ، تماما كما كان لديه نفس النوع من الايدي والاقدام والعيون والآذان والاسنان والمعدة وما الى ذلك . فاعضاؤنا ـ بما فيها المخ ـ لا تختلف عن اعضائه ، رغم اننا في نفس الوقت قد علمناها القيام باشياء لم يكن يقوم بها .

وهكذا بعد ان انتج التطور البيولوجي المخ والايدي البشرية بدا الانسان نوعا جديدا من التطور خاصا به . فتطور الانسان ليس تطورا بيولوجيا . وما يطوره الانسان هو تنظيمه الاجتماعي وتقنياته وثقافته ومعرفته ، وسيطرته الواعية على نفسه وعلى الطبيعة الخارجية .

ومن هنا فان ما تطور منذ ان وجد الانسان ليس هو مخه وانما استخدامه له ـ تطويره للقدرات التي يحويها . لقد طوّر الانسان اوجه نشاطه المادية ، وادراكاته الحسية وافكاره ، ومن خلال ذلك اضفى طابعا ثوريا على ظروف حياته ، وزاد قدراته وطاقاته .

من الادراك الحسي الى الافكار :

التفكير لا ينشأ الا عن الادراك الحسي ، ولا بد ان يسبقه هذا الادراك الحسي . فحتى نفكر في العالم لا بد اولا ان ندركه حسيا ، ولا نستطيع ان نكوّن اي مفهوم لا يقوم على الادراك الحسي ولا يدفعه هذا الادراك . وبشكل عام لا تتشكل اية افكار دون الادراكات الحسية التي هي المادة الضرورية التي يعمل عليها النشاط التفكيري .

وعلى سبيل المثال لو ان انسانا عزل منذ مولده في مكان مغلق فقد يكون لديه نفس المخ الذي لدى غيره ، ولكن ما سيفكر فيه سيكون قليلا للغاية ، وستكون افكاره ودائرة افكاره محدودة

للغاية . وبالمثل فان دائرة افكار الشعوب البدائية محدودة بالمقارنة بالمتمدنين ، رغم ان امخاخهم ليست ادنى باي حال .

ان افكارنا انما تتطور مع ازدياد ادراكاتنا الحسية بازدياد النشاط والاتصالات الاجتماعية .

وهكذا فان التفكير ينمو عن الادراك الحسي . ولا يحدث هذا التطور الا داخل العلاقة الايجابية بالعالم الخارجي التي يقيمها الناس لانفسهم في مجرى نشاطهم الاجتماعي العملي وخلال هذه العلاقة . والادراك الحسي نفسه ليس مجرد تلق سلبي للانطباعات من الموضوعات الخارجية ، فتطور الحس الى ادراك حسي هو نتاج تطور العلاقات الايجابية بالعالم الخارجي . وكلما تنوعت علاقة الكائن الايجابية ببيئته وتعقدت تنوّع مضمون ادراكه الحسي لهذه البيئة وتعقّد .

يقول ماركس وانجلز :

« تتوقف الثروة الفكرية الواقعية للفرد كلية على ثروة صلاته الواقعية »(١) .

وادراك الانسان الحسي اوسع في نطاقه من ادراك اي حيوان آخر ، وذلك لأن للانسان نشاطا واهتمامات اوسع ، وهو في تطويره لهذا النشاط والاهتمامات قد احدث تطورا مقابلا في حواسه . ولأن الانسان قد طوّر نشاطه وادراكاته الحسية فقد اصبح قادرا على التفكير وتطوير افكاره ــ وكان لهذا ردة فعل ثانية على تطور نشاطه وادراكاته الحسية اللاحق .

يقول انجلز :

« النسر يرى ابعد مما يرى الانسان ، لكن العين الانسانية ترى في الاشياء اكثر مما ترى عين النسر ، وللكلب حاسة شم احدّ من حاسة الانسان لكنه لا يميز واحدا على مائة من الروائح التي تمثل بالنسبة للانسان سمات

(١) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » ــ الجزء الاول ــ القسم الثاني .

محددة لأشياء مختلفة . وقد تطورت حاسة اللمس ـ التي كان القرد يمتلكها بالكاد ـ جنبا الى جنب مع تطور آليد الانسانية نفسها ، من خلال وساطة العمل »(٢) .

وقد ارسى اسلافنا اساس هذا الادراك الحسي الأرقى ودائرة الادراكات الحسية الاوسع لدى الانسان حين بدأوا يقفون منتصبين ، ويتطلعون حولهم ، ويستخدمون ايديهم لا للقفز بين اغصان الاشجار والتقاط الطعام وانما لصياغة الادوات والمعدّات .

ومع تطور نشاط الانسان تطورت كذلك ثروة صلاته بالعالم المحيط به . لقد حقق الانسان ادراكا حسيا ارقى ودائرة ادراكات حسية اوسع ، ثم حقق النطق ، الذي مثّل الانتقال من الادراكات الحسية العينية الى الافكار المجردة العامة . وادى تفاعل افكار الانسان واحساساته في مجرى نشاطه الى تطور اكبر لادراكاته الحسية ، ومن ثم ثانية الى مزيد من تطور افكاره .

وتتحقق قدرة المخ الانساني على الادراك الحسي ثم على التفكير وتتطور في النشاط الانساني .

العمل :

يعيش الانسان في مجتمع ، ويتصرف الى جانب غيره من الناس ، وكل اسلوب حياته اجتماعي ، ومن ثم فكما انه يوسع ادراكاته الحسية في النشاط الاجتماعي فانه في النشاط الاجتماعي ـ وانطلاقا من هذه الادراكات الحسية ـ يبدأ في تكوين الافكار ، في التفكير وفي تطوير افكاره .

واساس نشاط الانسان الاجتماعي هو العمل . وفي العمل وخلاله بدأ الانسان يوسع ادراكاته الحسية ، وبدأ يستخدم مخه في التفكير ـ في تكوين الافكار وايصالها ، وفي تطوير الفكر واللغة .

واذن فاننا نجد في العمل مصدر الفكر واللغة ومنشأهما .

---

(٢) ف. انجلز « دور العمل في الانتقال من القرد الى الانسان » .

يقول انجلز في بحثه عن « دور العمل في الانتقال من القرد الى الانسان » :

« العمل ... هو الشرط الاساسي الاول لكل وجود انساني ، وذلك الى حد ان علينا ان نقول ان العمل قد خلق الانسان نفسه » .

واوضح انجلز ان الخطوة الحاسمة في تطور الانسان جرت حين اتخذ وضع الانتصاب ، فقد اطلق هذا حرية اليد ، وحين بدأ الناس يصوغون الادوات والمعدات بايديهم لاستخدامها في تغيير الموضوعات الخارجية وانتاج وسائل معيشتهم . كانت هذه هي البداية الحقيقية للناس وللمجتمع الانساني .

يقول ماركس وانجلز :

« المقدمة الاولى لكل تاريخ انساني هي بالطبع وجود الافراد الانسانيين الاحياء . وهكذا فان اول الحقائق التي ينبغي اقرارها هي التنظيم الجسدي لهؤلاء الافراد وعلاقتهم المترتبة عليه ببقية الطبيعة » .

لكن من الضروري وقد ارسينا هذه الحقيقة ان نرسي كذلك ما يفعلونه ـ نشاطهم واسلوب حياتهم .

« فالناس ... يبدأون في تمييز انفسهم عن الحيوانات حالما يبدأون في انتاج وسائل معيشتهم ، وهي خطوة يحكمها تنظيمهم الجسدي . واذ ينتج الناس وسائل معيشتهم فانهم ينتجون بشكل غير مباشر حياتهم المادية الفعلية »(٣) .

وفي انتاج وسائل معيشتهم وبالتالي انتاج حياتهم المادية الفعلية بشكل غير مباشر ـ محكومين بتنظيمهم الجسدي ـ يبدأ الناس يتصرفون ككائنات انسانية ، ويطورون تنظيمهم الاجتماعي ، وبذلك يكونون الافكار ويفكرون وينطقون .

---

(٣) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » ـ الجزء الاول ـ الفصل الاول .

السمات المميزة للعمل الانساني

ما هي السمات المميزة للعمل الانساني بالمقارنة بالطرق التي تؤمّن بها الحيوانات الاخرى حياتها ؟

(١) اولا ان الناس يصوغون ادوات ومعدّات ، ويغيرون الموضوعات الخارجية كي يستخدموا خواصها لتحقيق الغايات المرغوبة .

يقول ماركس :

« اداة العمل هي شيء ، او مركّب اشياء ، يدخله العامل بينه وبين موضوع عمله ، ويعمل كموصل لنشاطه . وهو يستخدم الخواص الميكانيكية والفيزيائية والكيميائية لبعض المواد كي يخضع موادا اخرى لغاياته »(٤) .

اما الحيوان من الناحية الاخرى فانه يجمع الموضوعات التي في متناوله ويعيد تنظيمها ، لكنه لا يحولها ويستخدم خواصها والقوى الطبيعية التي تحويها لانتاج وسائل معيشته ، ولاحداث تحول واسع في بيئته وفقا لاحتياجاته .

يقول انجلز :

« تتضمن الاداة نشاطا انسانيا نوعيا ، رد فعل الانسان التحويلي على الطبيعة ، الانتاج . ولدى الحيوانات بالمعنى الاضيق كذلك ادوات ، وانما كاطراف لاجسادها : النملة والنحلة والقندس . والحيوانات ايضا تنتج ، لكن جهدها الانتاجي على الطبيعة المحيطة لا يعني شيئا على الاطلاق بالنسبة لهذه الطبيعة . والانسان وحده هو الذي نجح في ان يضع طابعه على الطبيعة، لا بنقل العالم النباتي والحيواني من مكان الى آخر فحسب ، بل كذلك بتغيير ملامح موطنه ومناخه ، وحتى النباتات والحيوانات ذاتها ، بحيث ان

(٤) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل السابع ـ القسم

آثار نشاطه لا يمكن ان تختفي الا بفناء الكرة الارضية كلها »(٥) .

ويقول انجلز في مكان آخر :

« والحيوانات تغير الطبيعة الخارجية بنشاطها كما يفعل الانسان وان لم يكن بنفس الدرجة ... ولكن اذا احدثت الحيوانات تاثيرا دائما على بيئتها فان هذا يتم دون قصد ، وهو مجرد صدفة من زاوية الحيوانات . الا انه كلما ازداد الانسان بعداً عن الحيوانات اخذ تاثيره على الطبيعة يتخذ بصورة اكبر شكل العمل المدبر المخطط الموجه نحو غايات محددة معروفة مقدما ... » .

« وباختصار فان الحيوان انما يستعمل الطبيعة الخارجية ، ويحدث تغييرات فيها بمجرد وجوده ، اما الانسان فانه بتغييره لها يجعلها تخدم غاياته ، يسيطر عليها »(٦) .

واذن فالانسان بعمله يسيطر على الطبيعة ، ويصوغ الادوات ويستخدمها كي يجعل الطبيعة تخدم غاياته . يقول ماركس :

« في عملية العمل يحدث نشاط الانسان ـ بمساعدة ادوات العمل ـ تغييرا ، مرسوما منذ البداية ، في المادة التي يعمل عليها »(٧) .

وفي هذه السيطرة على الطبيعة وتغييرها يغير الانسان ذاته ، ويطور ملكاته الانسانية .

(٢) وتنبع السمة المميزة الثانية للعمل الانساني من السمة الاولى ، وتكمن في طابعه الواعي والتعاوني .

---

(٥) ف. انجلز « جدليات الطبيعة » ـ المقدمة .

(٦) ف. انجلز « دور العمل في الانتقال من القرد الى الانسان » .

(٧) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل السابع ـ القسم الاول .

فالانسان بصنعه للأدوات واستخدامها، وباجباره الموضوعات الطبيعية والقوى الطبيعية على خدمة اغراضه ، يعي هذه الاغراض؛ ولديه فكرة عن النتيجة التي يعتزم تحقيقها . ويعمل الناس متعاونين ـ وفقا لتصميم وخطة واعية ـ لتحقيق هذه الاغراض التي يريدون بلوغها .

واذا كانت مخلوقات اجتماعية كالنحل مثلا تقيم ابنية محكمة فانها تفعل ذلك بطريقة اوتوماتيكية ، بالغريزة . اما البناة الانسانيون فانهم يعملون وفقا لخطة واعية .

يقول ماركس :

« اننا نفترض العمل في شكل يطبعه بطابع انساني محض . فالعنكبوت يقوم بعمليات تشبه عمليات النساج ، والنحلة تزري بكثير من المهندسين في بناء خلاياها . لكن ما يميز اسوا المهندسين عن افضل النحل هو ان المهندس يقيم بناءه في خياله قبل ان يشيده في الواقع . وفي نهاية كل عملية عمل نحصل على نتيجة كانت موجودة من قبل في خيال العامل عند بدايتها »(٨) .

العمل والنطق والفكر :

ان هذه السمات المميزة للعمل ـ ان العمل هو استخدام الادوات والمعدّات لاحداث تغييرات في الموضوعات الخارجية بواسطة كائنات انسانية تتعاون لتحقيق نتائج وضعوها بوعي نصب اعينهم ـ تفسر لماذا يولد العمل بالضرورة النطق والفكر ، ولا يمكن أن يتطور دون مساعدة النطق والفكر .

« ان السيطرة على الطبيعة ، التي تبدا بتطور اليد ، بالعمل ، قد وسعت افق الانسان عند كل تقدم جديد ،

(٨) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل السابع ـ القسم الاول .

لقد كان يكتشف على الدوام خواصا جديدة غير معروفة من قبل للموضوعات الطبيعية »(٩) .

بهذه العبارات يوضح انجلز ان العمل حتى في اكثر اشكاله بدائية ـ كما في صياغة واستخدام معدات صيد الحيوانات والاسماك ـ يجعل الناس يدركون الاشياء باهتمام جديد ، ويوسع إدراكاتهم الحسية ، « يوسع افقهم » ، ويجعلهم يتبينون خلال نشاطهم العملي وادراكاتهم الحسية مزيدا من خواص الموضوعات الطبيعية . والحق انه منذ هذه البداية الاولى استطاعت الاجيال المتعاقبة من الناس ـ خلال تقدم سيطرتهم على الطبيعة ـ ان يعرفوا المزيد والمزيد عن خواص الموضوعات الطبيعية : وكانت كل مرحلة تقدم تعني ادراكات حسية اوسع ، واكتشافات جديدة ، وآفاقا ارحب .

ويستطرد انجلز قائلا :

« ومن الناحية الاخرى ساعد تطور العمل بالضرورة على تقريب افراد المجتمع بمضاعفة حالات المساندة المتبادلة والنشاط المشترك ، وبايضاح ميزة هذا النشاط المشترك بالنسبة لكل فرد . وباختصار وصل الناس الذين كانوا ما يزالون في مرحلة التكوين الى نقطة **اصبح لديهم عندها شيء يقولونه** لبعضهم البعض »(١٠) .

وكان هذا الشيء الذي « يقولونه لبعضهم البعض » يتعلق ـ في المقام الاول ـ بخواص تلك الموضوعات التي يمكن للانسان ان يستخدمها ، والاغراض التي ينبغي بلوغها ، والنتائج المستهدفة من التعاون الانساني . وهذا بالتحديد شيء لا يمكن الا ان « يقال »، لا يمكن التعبير عنه الا **بالنطق الملفوظ** ، وليس بصيحات او اشارات كتلك التي تستخدمها الحيوانات .

واشار انجلز الى ان :

---

(٩) ف. انجلز « دور العمل في الانتقال من القرد الى الانسان » .

(١٠) المصدر السابق .

« القليل الذي تحتاج حتى ارقى الحيوانات تطورا الى ان توصله لبعضها البعض يمكن ايصاله حتى دون مساعدة النطق الملفوظ »(١١) .

فالحيوانات تشير لبعضها البعض الى وجود موضوعات خاصة ـ كما في الحركات التي تقوم بها النحل ، تلك الرقصات التي تشير بها الى مصدر للشهد في اتجاه معين ـ وهي تثير بعضها البعض الى اعمال معينة ـ كما في صيحات قائد القطيع . لكن هذا كل شيء . ولو كان من شأن اسلوب حياتهم ان يتطلب اتصالا فيما بينهم بشأن مختلف خواص الاشياء ، وكيف ينبغي استخدامها ، والاغراض التي يستهدفون تحقيقها بمختلف اشكال النشاط التعاوني ، فان مثل هذه الاشارات والصيحات لن تعود كافية ، اذ سيكون عليهم حينئذ لا ايصال ما هو خاص وانما ما هو عام . وليست لدى الحيوانات مثل هذه الحاجة . لكن لدى الناس مثل هذه الحاجة حالما يبداون اكثر اشكال العمل الاجتماعي بدائية ، وعندئذ يكون لديهم ما يحتاجون الى ان **يقولوه** لبعضهم البعض كما اوضح انجلز ، ومن هنا فانهم يطورون الوسيلة لقوله . ويستطرد انجلز قائلا :

« وادت الحاجه الى خلق عضوها . واخذت حنجرة القرد غير المتطورة تتحول ببطء ـ وانما بشكل مؤكد ـ عن طريق تغييرات تزيد تدريجيا ، وبدات اعضاء الفم تتعلم بالتدريج نطق حرف ملفوظ بعد الآخر . وتبين المقارنة بالحيوانات إن هذا التفسير لنشاة اللغة من عملية العمل وخلالها هو التفسير الوحيد الصحيح »(١٢) .

لقد احتاج الناس ان يتصلوا فيما بينهم بشأن خواص الموضوعات والاستخدام العملي لهذه الخواص . ويصف انجلز هنا كيف طوروا استخدام الحنجرة والفم كي يلفظوا الكلمات

(١١) المصدر السابق .
(١٢) المصدر السابق

والجمل التي يقومون خلالها بهذا الاتصال .

الافكـــار

يمثل النطق بداية التقدم من الحس الى الافكار .

فاللغة تحوي كلمات تدل على خواص وعلاقـات الموضوعات التي تعرّفنا عليها عن طريق حواسنا في مجرى الحياة العملية . وهكذا فبينما لا **نترك** الا مـا يواجهنا فعلا ، ووفقا للانطباعـات التي يتركها على حواسنا ، فاننا نستطيع ان **نتحـدث** و **نفكر** عن الموضوعـات التي ندركها لا في علاقـاتها المعطاة فقط ، بخواصها المعطاة ، وانما ايضا في علاقـات مختلفة ، وبخواص متغيرة . ومن هنا نستطيع ان نتحدث ونفكر فيما نستطيع ان نفعله بالموضوعات مختلفة الانواع ، وكيف يمكن ان نغير خواصها لمختلف الاغراض .

وهنا تكمن قوة الفكر . اننا نستطيع ان نفكر فيما يمكن ان نفعله بالاشياء ، في التغييرات التي نعتزم اجراءها ، ونستطيع ان نضع الوسـائل لاجراء هذه التغييرات . ونحن في التفكير نقوم في رؤوسنا بتجارب ـ اذا امكن استخدام التعبير ـ تمثل مـا ينبغي القيام به ، مـا يجب ان يحدث ، حتى يمكن ان نحقق تغييرا ما . وبعدئذ نراجع نتائج التجربة في الفكر مع نتائج الممارسة . وهذا هو جوهر عملية التفكير كما تنشأ عن عملية العمل .

وينبغي هنا ان نلاحظ ان الافكار ليـست هي نفـسها الصور ، ففكرة او مفهوم لون او شكل مـا مثلا ليست هي نفس صورة اللون او الشكل التي يمـكن ان نشكلها في خيالنا . وقـد اعتاد الفلاسفة التجريبيون القدامى (وبخاصة بيركلي وهيوم) ان يخلطوا بين الافكـار والصور ، الا انه لا بـد على العكس من التمييز بينها بعناية . فالصور ليست الا استمرارا للحس ، لكن الافكـار تمثل تطـور النطق ، تمثل تجريـدا مـن الواقع ، وتتيح لنا تكـوين التعميمات .

ولا شك ان الحيوانـات العليا ـ شانها شـان الانـسان ـ تستطيع ان تشكل في اذهانها صورا حسية للموضوعات . وعلى

سبيل المثال لا شك أن الثعلب يستطيع أن يصور لنفسه عملية اكتشاف أرنب واصطياده وقتله واكله . انه يستطيع أن يبدي ـ ويبدي فعلا ـ قدرا كبيرا من المكر وبعد النظر في تحقيق غرضه . لكن الانسان الذي يستخدم حتى ابسط ادوات الانتاج يستخدم أساليب لا يمكن لحيوان آخر أن يستخدمها . فهو لكي يصنع ويستخدم حتى ابسط ادوات الانتاج لا بد الا يكون فحسب قد صوّر الاشياء لنفسه بل ان يكون قد شكّل افكارا عن خواص الاشياء التي يمكن استخدامها في تحقيق الغايات التي يرغب فيها .

وهكذا نستطيع ان نرى باي طريقة يكون الفكر شكلا للوعي ارقى من الادراك الحسي . فالادراك الحسي يصور الاشياء كما تظهر مباشرة عن طريق فعلها على الحواس . اما حين نشكل الافكار فاننا نستطيع ان نفكر في الاشياء ، في طابعها الجوهري بمعزل عن وجودها الخاص واسلوب ظهورها ، ومن هنا نستطيع ان نصور لانفسنا في الفكر اي تحولات تمر بها الاشياء في مختلف الظروف ، وكيف تتفاعل ، ومختلف امكاناتها ، وعلاقاتها الداخلية وقوانين التغيير والحركة .

ومن هنا تتضح اية قفزة تحققت في تطور الوعي حين تشكلت الافكار. وكانت هذه الوثبة الى الوعي الانساني هي ببساطة الجانب الفكري للوثبة من اسلوب الحياة الحيواني الى اسلوب الحياة الانساني ، وهي الوثبة التي تحققت حين بدا الناس يصممون الادوات ويستخدمونها .

وكما لم يعد الانسان يقتصر على جمع الموضوعات الطبيعية واعادة تنظيمها واستخدامها كما يفعل الحيوان وانما يسيطر على الطبيعة فانه في افكاره لا يقتصر على تسجيل مظاهر الاشياء ـ كما في الادراك الحسي ـ وانما يتتبع علاقاتها الداخلية واسبابها .

الفصل الرابع

الفكر واللغة والمنطق

اللغة والفكر :

ان قدرة الافكار على ان تمثل الاشياء لا في وجودها المباشر كما تعرض على الحواس وانما على تمثيل الخواص والعلاقات مجردة عن الاشياء الخاصة ـ هذه القدرة هي من نتاج النطق ، فتطور التفكير وقوة الفكر لا ينفصلان عن تطور القدرة على النطق ويتوقفان عليها .

وينشأ النطق ـ كما قلنا ـ في نشاط الانسان الاجتماعي ، كنتاج واداة ـ في المقام الاول ـ للعمل الاجتماعي . وهو يخدم منذ البداية الاولى كوسيط للاتصال الاجتماعي الانساني . ومن هنا فان من الواضح ان النطق لا يمكن ان يتطور كحيازة شخصية او خاصة للأفراد ، يستخدمها كل منهم لأغراضه الخاصة دون علاقة بغيره من الافراد ، بالعكس انه ينشأ لأن الناس ـ منذ بدايات النشاط الاجتماعي الانساني ـ يحتاجون الى ان يوصلوا الافكار والنتائج العامة الى بعضهم البعض وهكذا يطورون الوسيلة للقيام بذلك .

ومن هنا فان النطق ينشأ عن طريق تكوّن **لغة** مشتركة بين مجموعة اجتماعية. وهؤلاء الناس يعرفون ويفهمون لغة يستطيعون

ان يستخدموها للاتصال فيما بينهم . وتمضي الارض المشتركة والنشاط الاقتصادي المشترك والتقاليد المشتركة الى جانب اللغة المشتركة وهذا هو السبب في ان اللغة المشتركة تشكل جزءا من تعريف الشعوب والامم .

وتتالف اللغة من مفردات ونحو ـ اي من رصيد من الكلمات تحددت دلالتها الدائمة في الاستخدام المشترك لمجموعة اجتماعية ما ، وقواعد تحكم الطريقة التي تربط بها الكلمات معا لأغراض الاتصال .

وحين يبدأ الناس في استخدام الادوات للانتاج الاجتماعي يبداون ايضا في الحديث ويطورون اللغة، وبدا يشكلون افكارا عن العالم المحيط بهم . فقد نشأت اللغة « في عملية العمل وخلالها » . وتفسر هذه النشأة السمات الجوهرية الاولية للغة كاداة للاتصال وتبادل الافكار .

لكن اللغة التي ظهرت بهذه الصورة في نشاط الانسان الانتاجي تخدم كل الاتصال والنشاط الاجتماعي الانساني الذي يتطور مع الانتاج وعلى اساسه . فالناس يستخدمون اللغة في كل ما يصنعونه معا ، ولا تولد كل افكارهم وخططهم وامانيهم ، كل افكارهم عن العالم وعن بعضهم البعض ، الا لان لديهم لغة يستطيعون بها ان يعبروا عنها ويوصلوها .

هل يمكن أن يوجد فكر دون لغة ؟

تؤدي بنا دراسة طبيعة الفكر واللغة ـ اساسهما المادي ووظائفهما وقوانين تطورهما ـ الى استخلاص ان تكوين الافكار وتبادلها مستحيلان دون اللغة ، وان الافكار لا تتشكل ولا تتطور الا بواسطة اللغة .

فالافكار لا تتكون ولا تتشكل الا عبر الكلمات وتجميع الكلمات ، وعن طريق الكلمات وتجميع الكلمات في جمل تصوّر الواقع في الفكر . ولا تصبح الافكار افكارا محددة الا بقدر ما تكون ـ كما قال ستالين في كتيبه « عن الماركسية واللغة » ـ « مسجلة

ومثبتة في كلمات ، وفي كلمات مربوطة في جمل » . فالافكـار دون لغة غير موجودة شانها شان الارواح دون اجساد .

هل يعني هذا ان التفكير هو نفسه التفوه بكلمات وان عملية التفكير هي عملية « تحدث مع النفس » ؟ كلا ، اولا لان من الممكن ان نتفوه بكلمات وجمل دون ان نعني بها شيئا . وثانيا لانه حالما يتعلم المرء استخدام اللغة فان كثيرا من عمليات الفكر يمكن ان تؤدى دون ان نتفوه فعلا سواء بصوت مسموع او « مع النفس » بكل الكلمات والجمل التي سنحتاج الى استخدامها للايضاح الكامل للأفكار التي تشملها هذه العمليات .

فمن المعروف مثلا بالنسبة لاناس كثيرا ما ناقشوا معا موضوعا ما ان بضع كلمات تكفي كيما يتفهموا نقطة معقدة ما قد يتطلب شرحها لغيرهم كثيرا من الكلمات ، وذلك لانهم قد قاموا بهذه الشروح من قبل ، وتكفيهم هذه الكلمات لاسترجاع هذه الشروح .

ونفس الشيء يحدث في عمليات التفكير في مخ الفرد . فالمرء يمكن ان يتوصل الى استنتاجات دون وساطة عمليات نطق داخلية محكمة . لكن المرء في نفس الوقت يخدع نفسه اذا تصور ان لديه افكارا عن اشياء يفتقر الى الكلمات عنها ، او ان لديه افكارا يعجز عن التعبير عنها باللغة .

وبالطبع لا يعني هذا انه ليس ثمة فارق بين فكرة ما وبين كلمة او عبارة معينة . وانما هو يعني ان الافكار لا توجد الا مجسدة في كلمات او عبارات معينة ، فليس للأفكار وجود منفصل غير متجسد بمعزل عن التعبير عنها .

وعلى سبيل المثال تعبر الكلمة الانكليزية « red » والكلمة الفرنسية « rouge » عن نفس الفكرة عن اللون . وهكذا لا يمكن المطابقة بين الفكرة واي من هاتين الكلمتين ، لكن فكرة اللون ايضا لا توجد بمعزل عن الكلمات التي تعبّر عنها الا بقدر ما يوجد اللون بمعزل عن موضوعات معينة ذات لون . وما يجعل الكلمتين تعبّران عن نفس الفكرة هو ان لهما نفس الدلالة في كل من اللغتين ـ اي ان الكلمتين تلعبان ادوارا متشابهة في اقامة صلات بين

الانسان والعالم الخارجي من خلال اللغة . وليس النشاط التفكيري للمخ الا مثل هذه الاقامة للصلات بالعالم الخارجي ، ولا يتم هذا قبل اللغة ، ولا بمعزل عن اللغة ، وانما بالتحديد بواسطة اللغة فحسب .

الاتفاقات اللغوية وماذا تعبر عنه ؟

من سمات اللغة طابعها التحكمي او الاتفاقي ، فصوت ما يستخدم للدلالة على غرض معين في لغة ما ـ لكن صوتا آخر كان يمكن ان يفعل المثل ،وربما كان يستخدم لنفس الغرض في لغة اخرى .

ولقد كان اكتشاف ان الكلمات علامات تحكمية او اتفاقية بهذه الطريقة ـ على ما يبدو عليه من وضوح ـ اكتشافا هاما بالنسبة للعلم . فقد كان من الشائع الاعتقاد ـ وما زال البعض يعتقد ذلك حتى يومنا هذا ـ ان كلمة معينة هي بصورة غامضة « الكلمة الصحيحة » التي تدل على شيء معين ، وان الكلمات ترتبط بالاشياء برابطة داخلية ، وليس بمجرد الاتفاق اللغوي .

وقد ارتبط المفهوم القديم عن الرابطة السرية بين الكلمات والاشياء بالسحر والدين . وهكذا كان من المعتقد ان لكل انسان اسما هو اسمه هو ولا يمكن ان يناسبه اسم آخر ، ومن ثم فقد كان « اسمه الحقيقي » يبقى سرا ، اذ كانوا يعتقدون انه لو عرفه اعداؤه فسيعلنون اسمه وبذا يلحقون به بعض الأذى . وبالمثل كان من المعتقد ان اسماء الآلهة من صفاتهم الجوهرية . ونفس الشيء بالنسبة للكلمات الاخرى غير اسماء الأعلام . وهكذا كان هناك مثل قديم (استشهد به س. ك. اوغدين و ا. ا. ريتشاردز في كتابهما « معنى المعنى ») يقول « لقد سمي المقدس مقدسا بحق » : ويعبر هذا عن الفكرة القائلة ان ثمة شيئا مقدسا في كلمة « مقدس » .

وليست مفردات اللغة هي الاتفاقية وحدها بل كذلك قواعدها الاجرومية ونحوها ، فاللغات المختلفة تستخدم قواعد مختلفة .

وهكذا فان قواعد اللغة الصينية مثلاً مختلفة كل الاختلاف عن قواعد اية لغة اوروبية ، وقواعد اللغة الانكليزية مختلفة عن قواعد اللغة اللاتينية او السلافية ، وقواعد ما يروق لنا ان نسميه لغات « بدائية » مختلفة عن هذه جميعا . ورغم هذا فاننا نستطيع ان نعبّر عن نفس القضية في كل هذه اللغات ، ويمكن لاي منها ان تترجم الى الاخرى . ويبين هذا ان المفردات ليست وحدها السمة الاتفاقية للغة بل كذلك الاجرومية .

ومن ثم فان الاصوات المعينة التي تشكل الكلمات في لغة ما ، والقواعد المعينة لاجروميتها ، اتفاقية . وهي اتفاقية بمعنى ان هذه الاصوات والقواعد يستخدمها شعب معين لأسباب تاريخية في حين ان نفس الافكار يمكن بالمثل ان تجد تعبيرا عنها باصوات مختلفة وقواعد مختلفة ، كتلك التي تستخدمها لغات الشعوب الاخرى التي تطورت تاريخيا، لكنها ليست بالطبع اتفاقية بمعنى انها تقررت وحددت بقرار لغوي معين من الشعب المعني . وبشكل عام تتشكل الاتفاقات اللغوية بواسطة عملية غير واعية في حياة الشعوب . وهي لا تسجل في قواميس واجروميات ، ولا يبدأ الناس بتسجيل اتفاقات لغتهم بوعي وعمد ، الا في مرحلة متاخرة .

ولكن اذا كانت كل من المفردات والاجرومية اتفاقية بالمعنى السابق فان اي كلمات تملكها لغة ما ـ بمعنى الاشياء التي تشير اليها بمفرداتها ـ ليست مسالة اتفاقية ، وانما تحددها الظروف والمتطلبات الموضوعية لحياة الشعب الذي يستخدم اللغة.

وعلى سبيل المثال لا بد ان تكون في لغة ما ـ وايا كانت الاصوات المستخدمة لهذا الغرض ـ كلمات تدل على كل الاشياء والخواص والعلاقات ، الخ .. ذات الاهمية العملية في حياة الشعب . وبشكل عام فكلما كانت مرحلة الانتاج ارقى زاد بالضرورة رصيد اللغة من الكلمات .

وبالمثل فان العلاقات والصلات بين الاشياء والناس ـ التي تجد تعبيرا عنها بربط الكلمات في جمل وفقاً لقواعد الاجرومية والنحو ـ ليست ايضا اتفاقية وانما يحددها ما ينبغي ان ينعكس

في الجمل .

وعلى سبيل المثال فايا كانت اجرومية لغة ما فلا بد ان تكون لديها اتفاقات للتعبير عن فعل شيء على آخر ، وعن الصلة بين الشيء وخواصه المختلفة او المتغيرة وما الى ذلك . وتستخدم مختلف اللغات اتفاقات مختلفة للتعبير عن القضايا لكن كل هذه الاتفاقات ينبغي أن تشبع جميعها نفس الاحتياجات الناشئة عما ينبغي التعبير عنه وهو مشترك بين كل اللغات .

ومن هنا ففي حين أن الناس يحددون اتفاقات لغتهم ـ سواء بالنسبة لرصيد الكلمات او الاجرومية ـ فان هذه الاتفاقات تعبّر عن احتياجات موضوعية مشتركة في كل لغة ، ولا بد دائما ان تشبع هذه الاحتياجات .

اللغة والمنطق :

ايا كانت الافكار التي نفكرها ، وايا كانت اللغة التي نعبّر عنها ، فلا بد أن تشبع الاحتياجات الاساسية لعكس الواقع في الفكر . وتولد هذه الاحتياجات قوانين الفكر ، مبادىء المنطق . لأن الافكار انعكاسات للعالم الواقعي ، وفي عملية الانعكاس ـ كما قال ماركس ـ يترجم العالم المادي الى اشكال الفكر . ولعملية الانعكاس والترجمة هذه قوانينها الخاصة ـ قوانين الفكر ، مبادىء المنطق .

وتشمل قوانين الفكر ـ بادىء ذي بدء ـ المبادىء المنطقية لبناء قضايا ذات دلالة .

فهناك على سبيل المثال قضايا بسيطة وقضايا مركبة . ويشمل بناء القضايا البسيطة عمليات منطقية مثل الاثبات والنفي والنسبة وما اليها . وتبنى القضايا المركبة بالربط بين قضايا بسيطة عن طريق عمليات منطقية كتلك التي نعبّر عنها بكلمات « و » و « أو » و « اذا ... فان » وما اليها . وهكذا فان عبارات « هذا احمر » و « هذا ليس احمر » و « هذا الشيء آخذ في الاحمرار » و « هذا اكثر احمرارا من ذاك » كلها قضايا بسيطة ،

وعبارات « هذا احمر وذاك اخضر » و « اما ان هذا احمر او اني مصاب بعمى الالوان » و « اذا كان هذا احمر فانه سيصبح سريعا اخضر » قضايا مركبة . ويشمل بناء كل هذه القضايا مبادىء منطقية محددة تحكم بناء القضايا ذات الدلالة .

وتشمل قوانين الفكر ثانيا المبادىء المنطقية لتحديد اي قضايا تنتج منطقيا عن غيرها من القضايا وايها غير متسقة منطقيا معها . وتلك هي المبادىء التي نستخدمها في النقاش والتدليل .

وعلى سبيل المثال « اذا كان كل ا هو ب ، وكل ب هو حـ ، فان كل ا هو حـ » . هذا مبدأ منطقي عام يدلنا على ان القضية الثالثة تنتج منطقيا عن القضيتين الاولتين . وقد كان ارسطو هو اول من صاغ هذا المبدأ واسماه « الشكل الاول للقياس » .

ومثل هذا المبدأ بالطبع لا يحوي اي ضمان بصدق القضايا : إنما يعنيه هو علاقاتها المنطقية بعضها ببعض وليس بالحقيقة . وهكذا فانه يدلنا اننا لو اكتشفنا أن القضيتين الاولتين صادقتين فلسنا بحاجة الى مزيد من البحث لنتاكد من صدق القضية الثالثة ، لانها تنتج من القضيتين الاولتين . ولكن اذا كانت الاولتان في الواقع غير صادقتين فان القضية الثالثة ـ ورغم انها تنتج عنهما ـ قد تكون صادقة او كاذبة . فالمنطق بذاته لا يقول لنا شيئا عن صدق القضايا ، الذي لا يمكن اكتشافه والتحقق منه الا بالبحث التجريبي .

ومثال آخر للمبدأ المنطقي هو مبدأ عدم التناقض ، والذي ربما كان من الافضل ان نسميه « مبدأ الاتساق » . ويقرر هذا المبدأ ان قضية ما ينبغي الا تربط بنفيها . ونفي « ا هو ب » هو « ا ليس ب » واذا انت قلت « ا هو ب و ا ليس ب » فان جزئي العبارة التي قلتها يلغي احدهما الآخر وكانك لم تقل شيئا (كما يلغي الزائد والناقص في الحساب بعضهما بعضا) . وفي هذه الحالة فان ما تقوله غير متسق ومتناقض مع ذاته .

وجدير بالذكر انه منذ ان صاغ ارسطو للمرة الاولى مبدأ عدم التناقض فقد قاد الى كثير من التشويش في مناقشة المنطق . وهكذا صاغه الفلاسفة المدرسيون كقانون يحكم الطريقة

التي تنسب اليها « الصفات » الى « الموضوعات » . ويقول هذا القانون المزعوم إن نفس الصفة لا يمكن ان تنسب ولا تنسب لنفس الموضوع ، واقترن هذا القانون بقانون آخر اسمي « قانون الوسط المرفوع » يقول إن الصفة اما ان تنسب الى الموضوع او لا تنسب اليه ، وفسر هذا بمعنى انك تستطيع دائما ان تحدد اي القضيتين صادقة : « ا هو ب » و « ا ليس ب » . فاحداهما لا بد ان تكون صادقة والاخرى كاذبة .

غير انه ليس من الصعب ان نرى اننا لا نستطيع ان نقرر ذلك دائما ، ومن ثم فان هذه ليست صياغة صحيحة لقانون من قوانين المنطق ، لانه لما كانت الاشياء لا توجد الا في علاقة متداخلة وحركة فان شيئا ما قد لا تتجلى فيه بعض الخصائص الا في جوانب وعلاقات معينة لا في غيرها ـ بحيث لا تستطيع ان تقرر بشكل قاطع ما اذا كانت له هذه الصفة او ليست له . ومن الواضح بالمثل انه اذا كان شيء ما في عملية تغير فقد يكون من المستحيل ان نؤكد او ننكر بصدق ان له بعض الخصائص المحددة .

وقد وضع الفلاسفة ذوو النظرة الميتافيزيقية غير الجدلية كثيرا من الصياغات الفجة غير الدقيقة للمبادىء المنطقية . ويوضح لنا الجدل كيف نصحح مثل هذه الاخطاء . لكن الجدل لا يقف بهذا ضد مبادىء المنطق او بغيرها . فهدف المنهج الجدلي هو انه يمكننا من ان نعبر عن العلاقات الواقعية وحركة الاشياء بصورة منطقية متسقة .

وعلى سبيل المثال هل هذا الرجل « اصلع » او « غير اصلع » ؟ وفقا للفلاسفة المدرسيين او الميتافيزيقيين ـ بصياغتهم غير الدقيقة لمبادىء المنطق ـ لا بد من ان نصدر قرارا محددا . ولكن اذا كان من الممكن ان نقرر في بعض الحالات فان مثل هذا القرار المحدد ليس ممكنا في كثير من الحالات الاخرى . فهل نحن عندئذ مساقون الى ان نقبل عدم الاتساق المتمثل في قولنا « انه اصلع وليس اصلعا » ؟ كلا على الاطلاق ، فمثل هذه الحالات يمكن ان توصف باتساق عن طريق تحفظات او تعديلات : « انه اصلع جزئيا » او « انه في طريقه الى الصلع » .

ويحاول ذوو النظرة الميتافيزيقية التعبير عن الاشياء المتغيرة بمقولات ثابتة ، ويحاولون التعبير عن علاقات الاشياء بمقولات لا تصلح الا للتعبير عن الاشياء المنفصلة . ونتيجة لذلك كثيرا ما يصلون الى عدم الاتساق . وكما نعرف حين تدمدم سيارة ما ان ثمة عيباً ما في المحرك فاننا نعرف حين يتناقض شخص مع نفسه ان ثمة عيبا في افكاره . ويمكننا الجدل من ترتيب افكارنا حتى نبقى بعيدين عن التناقضات المنطقية ونكون متسقين تماما . ومن هنا فان الجدل يحترم دائما مبدا عدم التناقض او مبدا الاتساق المنطقي ، رغم ان الميتافيزيقا كثيرا ما تقود الى انتهاكه .

ومبادىء المنطق قوانين للفكر وليست قوانين للواقع ، انها ليست قوانين العمليات المادية ، وانما قوانين انعكاس العمليات المادية ، ولانها متطلبات انعكاس الواقع في الفكر ، تنشا عن ذات طبيعة شكل الانعكاس كما تطور في مجرى الممارسة الانسانية ، فان من الضروري اتباع قوانين المنطق في وضع الآراء والتعبير عنها ، فلو ان افكارنا تنتهك قوانين المنطق فانها تصبح غير متماسكة ومتناقضة مع ذاتها .

وهذا يفسر ما نسميه احيانا الطابع « المعياري » لقوانين المنطق ، وطبيعتها كضرورة « منطقية » في مقابل الضرورة « الطبيعية » . وافكارنا ليست منطقية بالضرورة ، لكنها ما لم تكن منطقية فانها لا تستطيع ان تشبع احتياجات عكس الواقع : وهذا هو السبب في ان قوانين المنطق تشكل « معيارا » للفكر . وتنشا قوانين المنطق عن طبيعة الفكر ذاتها ، وفي استقلال تام عن موضوع الفكر الخاص : ولهذا فان لقوانين المنطق طابعا بديهيا جليا بذاته ، على خلاف قوانين الطبيعة التي ينبغي ان تكتشف عن طريق بحث تجريبي للواقع الخارجي .

وهكذا فايا كانت الآراء التي تصاغ في المجتمع فانها جميعا تخضع لنفس قوانين الفكر ، لنفس مبادىء المنطق . وكما تستخدم نفس اللغة للتعبير عن الآراء المختلفة فان الآراء المختلفة تستخدم نفس قوانين الفكر ، نفس المنطق .

ومن هنا فان الآراء الجديدة لا تولد منطقا جديدا ، تماما

كما انها لا تولد لغة جديدة . بالعكس إنّ قوانين المنطق ملازمة لعملية الفكر ذاتها والتعبير عنها باللغة ، ولا تتغير مع تغير الآراء .

وبعض الناس بالطبع يتجاهلون المنطق في صياغة آرائهم . ومغبة هذا سيئة على آرائهم لكنه لا يعني انهم وضعوا منطقا مختلفا ، بل يعني بالاحرى انهم عجزوا عن ان يكونوا منطقيين .

فاية مناقشة او مناظرة او جدال او تطوير للفكر ايا كان غير ممكن لو ان قوانين الفكر تغيرت واختلفت باختلاف الناس . وكل من يعتقد ان قوانين الفكر تتغير ، وان للعصور المختلفة منطقا مختلفا ، ينكر بذلك اي امكانية للفكر كانعكاس للواقع الموضوعي . فالمنطق ينشأ عن المتطلبات الكلية لانعكاس الواقع في الفكر ؛ وليس عن المصالح الخاصة التي قد تخدمها عمليات الفكر الخاصة من وقت الى آخر .

وهكذا فاذا تناقش مثلا اشتراكي مع احد المدافعين عن الراسمالية فان كليهما يستندان ويحاولان ان يقيما حججهما على نفس مبادىء المنطق ، تماما كما انهما يتحدثان نفس اللغة . وكما ان « اثنين زائد اثنين يساوي اربعة » لكل من المحاسب الراسمالي ومحاسب المؤسسة الاشتراكية فان قضية انه « اذا كان كل ا هو ب فان بعض ا هو ب » صحيحة بالنسبة للمدافع عن الاشتراكية او عن الراسمالية . وبالمثل فان كل من قرا تقارير اعمال الارساليات التبشيرية بين الشعوب البدائية سيدرك ان كلا طرفي النقاش كانا يستندان الى نفس قوانين المنطق ، وان كان علينا ان نعترف بان الشعوب البدائية كثيرا ما كانت اكثر منطقية من رجال الارساليات .

وما قلناه هنا عن المنطق لا ينطبق بالطبع على الآراء الفلسفية التي يعرضها اولئك الذين وضعوا كتبا في المنطق . فهذه الآراء الفلسفية ـ التي كثيرا ما تسمى « منطقا » ـ هي بالطبع آراء طبقات خاصة وعصور خاصة .

وهكذا نستخلص ان اللغة تتطور كوسيلة لتعبير اناس يعيشون في مجتمع وللاتصال بينهم ، وانها تنشأ وتتطور في مجرى

نشاطهم الانتاجي وكل الوان نشاطهم الاجتماعي الاخرى ، وان افكار الناس ـ التي يعبّرون عنها باللغة ـ تخضع للمنطق ، لقوانين الفكر كانعكاس للواقع المادي . وفي الوقت نفسه فان الآراء الاجتماعية التي تجد تعبيرا عنها في اللغة وتصاغ بمساعدة المنطق تتطور على اساس علاقات الناس الاقتصادية ، ونشاط ومصالح الطبقات الاجتماعية .

الجزء الثـــاني

تطور الافكار

الفصل الخامس

الافكار المجردة

تكوين الافكـــار المجردة :

اذا كان التفكير والافكار تنبع ــ كاللغة ــ من العمل ، فـــان الناس بالمثل يطورون تفكـــيرهم وافكـــارهم في مجـــرى نشاطهم الاجتماعي بـــأسره .

وقد اوضح ماركس وانجلز وهما يتحدثان عن تطور الافكار او الوعي الانـــساني ــ لان خاصية الوعي الانـــساني هي ان الانـــسان لا يعي الاشياء خـــلال الادراكات الحسية فحسب ، بل كذلك خلال الافكار ــ ان وعي الانـــسان لا ينشأ ولا يتطور :

« الا من الحاجة ، من ضرورة الاتصال بغيره من الناس . . .
فالوعي اذن نتاج اجتماعي منذ بدايته الاولى ، ويظل كذلك طالما ظل الناس موجودين »(١) .

فالافكار ليست نتاج عمليات فكرية خالصة ، وليست مجرد استجابـــات اوتوماتيكية لمنبه يصلنا من الموضوعـــات الخارجية ، وانما ينتجها المخ البشري في مجرى النشاط الاجتماعي الانـــساني . انها تعكس صلات الناس بعضهم ببعض وبالعالم الخارجي ، تعكس

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلـز « الايديولوجية الالمـانية » ــ الجـزء الاول ــ الفصل الاول .

ظروف وجود الانسان الواقعية .

ومضى ماركس وانجلز ليوضحا ان :

« الوعي في البداية مجرد وعي يتعلق بالبيئة الحسية المباشرة ، ووعي بالصلات المحدودة بالاشخاص الآخرين والاشياء ... وهذه البداية حيوانية شانها شان الحياة الاجتماعية نفسها في هذه المرحلة . انه مجرد وعي القطيع »(٢) .

واول الافكار واكثرها بدائية هي الافكار المستمدة من الاتصال العملي المباشر . وهي تتشكل باطلاق اسماء على السمات المشتركة للاشياء التي نتعرف عليها في الادراك الحسي . ومن هذه البداية ـ كما اكد ماركس ـ ينشأ « انتاج الافكار » عن « النشاط المادي والاتصال المادي بين الناس » . ومن هذا النشاط والاتصال الماديين في اكثر مستوياتهما بدائيةيتشكل بالفعل تركيب منالافكارالبدائية عن الموضوعات الخارجية وعن الذات وعن الآخرين ـ عن انواع الموضوعات وخواصها ومختلف صلاتها بالناس واستخدامهم لها .

وتنعكس في مثل هذه الافكار بشكل مباشر بدرجة اوباخرى السمات البارزة للموضوعات ،ولاوجه النشاط الانساني كما ندركها بشكل مباشر في الادراك الحسي . وتشكل مثل هذه الافكار الاداة الاساسية الاولية للفكر والاتصال الانسانيين . وتجد تعبيرا عنها في كلمات تشير الى الموضوعات المالوفة وخواص الموضوعات وعلاقاتها المالوفة ، والنشاط اليومي .

ولدينا جميعا اداة غنية من مثل هذه الافكار . ويمثل تملكنا لها انجازا اجتماعيا كبيرا ، لكننا ناخذها كشيء مسلم به ، ونستخدمها طيلة الوقت ، ويتعلمها كل طفل في سن مبكر . ومثالها هو ما لدينا من افكار عن الاشياء المحيطة بنا والتي تتعلق بها امورنا العادية مثل الرجال والنساء والموائد والمقاعد والسيارات والاشجار والزهور والكلاب والقطط ، الخ .. الخ .. والخواص

(٢) المصدر السابق .

المحسوسة للأشياء مثل الاحمر والازرق والصلب واللين والكبير والصغير ومـا الى ذلـك ، والتصرفات والعلاقـات مثل الجري والمشي والسقوط والاعلى والاسفل ، الخ .. الخ .. ومن الواضح ان عدتنا من الافكار الاولية اوسع كثيرا من عدة الانسان البدائي ، وذلك بالتحديد لاننا نقوم بالمزيد من الامور ، ونهتم بالمزيد من الموضوعـات والعلاقات . ورغم هذا فـان الوعي المتمثل في مثل هذه الافكـار الاولية يظل ـ كما قال ماركس وانجلز ـ « وعيا يتعلق بالبيئة الحسية المبـاشرة ، ووعيا بالصـلات المحـدودة بالاشخاص الآخرين والاشياء » .

وسمة مثل هذه الافكـار الاولية هي ان لها مضمونـا عينيا حسيا ، اذ تتجاوب معها موضوعـات تدركها الحواس مباشرة . الا ان تطور الاتصال الاجتماعي يؤدي الى تشكل افكـار لا تتجاوب معها موضوعـات تدرك مباشرة ادراكا حسيا .

هل نستطيع ان نشكل افكارا لا تتجاوب معها موضوعـات تدرك ادراكا حسيا مباشرا ؟ نعم نستطيع بالطبع ، ونحن نفعل ذلك فعلا . وعلى سبيل المثال فـان الناس موضوعات تدرك ادراكـا حسيا مبـاشرا . لكننا ايضا نفكـر في الناس بعبارات اخرى غير هذه ، رغم انه لا يقابل مـا نفكر فيه عنهم شيء واضح مبـاشرة للحواس . فاذا انـا رايت رجلا بدينا وقلت « هذا راسمـالي منتفخ » ، فـان بدانته المحسوسة تتقابل مع كلمة « منتفخ » ! الا انه ليس ثمة صفة تتجاوب مع كلمة «راسمالي» . غير ان فكرتي « راسمالي » و « راسمالية » فكرتـان راسختان مستقرتـان تماما . فنحن في الواقع نستخدم في حديثنا العادي ـ وبدرجة اكبر في العمل النظري ـ دائرة هائلة من مثل هذه الافكار . وعلى سبيل المثال فـان كل انواع الافكار الاجتماعية والسياسية ، والافكـار الاخلاقية والقانونية ، والافكار العلمية ، والافكار الجمالية ، هي افكار من هذا النوع .

وعلينا لكي نفهم كيف تنشأ مثل هذه الافكار ، ووظيفتها في

عمليات الفكر التي ينعكس العالم فيها في صورة افكار ، ان نذكر إن الافكار تتجسد دائما في كلمات . فان تكون لديك فكرة ما يعني أن تستخدم كلمات معينة ؛ ومختلف انواع الافكار تتجاوب مع استخدامات مختلفة للكلمات . فاذا انت قلت مثلا « الرجل البدين يجري » فانك تستخدم الكلمات بطريقة تشير الى الحركة المدركة حسيا (يجري) لموضوع مدرك حسيا (الرجل البدين) . ومن السهل تماما أن تشرح ما تعنيه ، فيكفي أن تشير الى رجل بدين والى شخص يجري وتقول « اعني ان رجلا كهذا يفعل مثل ذلك » ، غير انك اذا قلت ـ من الناحية الاخرى ـ « الراسمالي يستغل العمال » فانك لا تزال تشير الى موضوعات حسية مالوفة (الناس) لكنك في نفس الوقت تقوم بتعميم عنهم يشير الى علاقة بينهم ليست مكشوفة امام الملاحظة المباشرة ، وانما تتطلب تحديدا محكما للغاية بعبارات من علاقات اخرى . فانت لا تستطيع أن تفسر ما تعنيه بـ « راسمالي » و « استغلال » بنفس الطريقة التي تستطيع ان تفسر بها ما تعنيه بـ « بدين » و « يجري » . انك بحاجة الى تفسير معقد من نوع آخر ، ذلك النوع من التفسير الذي احتاج ماركس صفحات مستفيضة من « راس المال » ليقدمه . ففكرة « الاستغلال الراسمالي » تولد بالتعميم وليس من المقارنة المباشرة بين عدد من الموضوعات المدركة حسيا ؛ وانما بالتفكير في عمليات وعلاقات معقدة للغاية تدخل فيها مثل هذه الموضوعات .

ومن هنا فان أفكارنا لا تقتصر على ان تعكس السمات المشتركة للموضوعات الخارجية الحاضرة امام الحواس . فالافكار تتشكل دائما وفقا لاحتياجات الاتصال الاجتماعي . ومع تطور الانتاج وما يتبعه من تطور العلاقات الانتاجية ـ والعلاقات الاجتماعية والنشاط الاجتماعي عموما ـ تتطور الافكار الى ابعد من مرحلة الوعي بالسمات المشتركة للموضوعات المدركة من خلال الحواس ، ويشكل الناس مفهومات وآراء عن العالم وعن حياتهم الاجتماعية . وتتشكل هذه الافكار وتتجسد في كلمات وفي استخدامات للكلمات ، كنتاج لعلاقة الناس الايجابية بالطبيعة

الخارجية وببعضهم البعض ، وتخـدم تطور الاتصال الاجتماعي القائم على هذه العلاقـات ، ولكن لا تتجاوب معها موضوعـات تدرك ادراكا حسيا مباشرا .

ومثل هذه الافكار هي التي نطلق عليها « الافكار المجردة » .

مصادر الافكـــار المجردة :

ومصدر كل الافكار المجردة ـ دون استثناء ـ هو الخبرة في العالم المادي الموضوعي ، هو علاقـات الناس العملية بالاشيـاء وببعضهم البعض ، لأن خبرات الناس المحددة ـ المستمدة من صلتهم بعضهم ببعض وبالطبيعة ـ هي التي تقودهم الى تشكيل افكار مجردة . وتخـدم هذه الافكار استمرار وتطور الاتصال ، وتعكس علاقـات محددة توجـد موضوعيا بين الاشياء ، وبـين الناس ، وبين الناس والاشياء ، تجـد ترجمة لها في أذهان الناس في صورة افكـار .

ومن المصادر الهامة لتطور الافكـار المجردة تطور العلاقـات الاجتماعية بـين الناس . وهكـذا مثلا يولـد التنظيم البدائي العشائري للمجتمع ـ بقواعده المعقدة عمن يستطيع أن يتزوج من ، ومن ينتمي الى اية عشيرة ، وبشكل عـام من يستطيع ان يفعل مـاذا ـ مجموعة بأسرها من الافكار عن العلاقـات الاجتماعية ، هي في الوقت نفسه نتاج لهذه العلاقـات الاجتماعية ومنظم لها . وفيما بعد تنشأ افكار عن الحالة الاجتماعية وشياخة القبيلة ومـا الى ذلـك . ثم فيما بعد ـ ومع تطور الملكية ـ تنشـا افكـار ترتبط بعلاقـات الملكية .

وعلى سبيل المثـال فحين يستولي بعض الناس على الارض تتشكل افكـار عن ملكية الارض ومـا يتمشى معها من واجبات وحقوق وامتيازات . ومثل هذه الافكـار عن الملكية افكار مجردة ، لا يقابلها اي موضوع تدركه الحواس مباشرة . وهكذا فـان فكرة حقل محروث مثلا هي فكرة واقع حاضر امـام حواسنا ، لكـن فكرة ملكية هذا الحقل فكرة مجردة لا يقابلها اي موضوع تدركه

الحواس مباشرة . وبالمثل فـان نتاج هذا الحقل واقع عيني مدرك حسيا ـ نستطيع ان ناكله على سبيل المثال . لكن حق مالك الارض في هذا النتاج ليس امرا مدركا حسيا . بيد ان هذه الافكار المجردة هي الانعكاس المثالي لشيء واقعي وموضوعي ـ علاقـات الانتاج القائمة في مرحلة معينة من تطور الانتاج الاجتماعي .

وتتشكل الافكار المجردة الاخرى نتيجة لتطور نشاط الناس الاجتماعي وغيره من الوان النشاط المتعلقة بالطبيعة الخـارجية . فهذا على سبيل المثال هو مصدر افكار مثل السبب والنتيجة وكل الافكـار المتعلقة بالحساب والقياس مثل افكـار العـدد والمكـان والزمـان .

ومن التأثيرات البالغة الاهمية في تطور افكـار الناس جهلهم النسبي وعجزهم في خضم نشاطهم الاجتماعي ؛ فهذا يطلق تطور كل انواع الافكـار المجردة الغامضة الوهمية .

ففي مرحلة مبكرة للغاية من مراحل المجتمع يبدا الناس في التفكير في الاسباب الكـامنة التي تعمل في مختلف العمليات التي يألفونها والتي يعتمدون عليها في معيشتهم . وهكذا مثلا يرى الناس المحصولات وهي تنمو ، او الحيوانـات وهي تتكاثر ؛ ويدركون ان عليهم انفسهم أن يدفعوا هذه العمليات ، لكنهم لا يرون ولا يدركون الاسباب الكامنة التي تعمل في هذه العمليات ، وليست لديهم اية وسيلة كافية للتحكم فيها ، ومن هنا يبدأون في تشكيل مفهومات عن قوى غير مرئية ؛ ولدى اغلب الشعوب البدائية مفهوم عن قوة خفية تكمن في الناس والحيوانـات والاشياء ، يعتبرونهـا شيئا لا تدركه الحواس الا انه يتخلل كل الاشياء المحسوسة ويتحكـم فيهـا . وهكـذا تسمي بعض قبائل الهنـود الحمر هـذه القوة « الواكاندا » ؛ وقـال احد شيوخهم وهو يحاول ان يشرح الفكرة لزائر من علماء الانثروبولوجيا : « ان احدا لـم ير الواكاندا » . ومن هذ االطراز من الافكار المجردة ـ فكرة القوى غير المرئية ـ تتطور الافكـار المجردة عن الدين واللاهوت .

انفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي :

تتشكل الافكـــار المجردة ــ كما نستطيع ان نرى مـــن هذه الامثلة القليلة ــ نتيجة لعملية التطور الاجتماعي . وقد ربط ماركس وانجلز تطور الافكار المجردة بالعملية الاجتماعية الاساسية لتقسيم العمل .

فتشكيل كل الافكـــار المجردة ــ من اي طراز ، وايـــا كان المصدر الخـــاص للأفكـــار ــ يفترض تطورا معينا لقوى الانسان الانتاجية وعلاقـــاته الاجتماعية ، ومن هنا فـــانه يفترض تقسيما معينـــا للعمل . ويبدا هـــذا التقسيم للعمل في فصل المجموعـــة الانتاجية الواحدة او « القطيع » الى افراد متميزين ، لا متميزين فقط كافراد مختلفين للنوع وانما كاشخاص لهم وظائف ومواقع اجتماعية متميزة ، لهـــم فرديتهم . ويولـــد هذا اوجه النشاط والعلاقـــات والخبرات التي ينشا عنها تشكيل الافكـــار المجردة ، وهو بالمثل ينهي مـــرحلة وعي « القطيع » ، ويتيح تطور الفكـــر الفردي .

ومع ظهور الافكـــار المجردة يظهر انفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي . ويمثل هذا بداية محددة للعمل الذهني كشيء متميز عن العمل اليدوي ، والى جانب هذا يبدا في الظهور الحكماء والشيوخ ومختلف انواع القادة ، الذين يتخصصون في الافكـــار ويعرضونها ويطورونها . ويتطور هذا التخصص في الافكار كـــمة لا غنى عنها للحياة الاجتماعية ، فبدون الافكـــار لا يمكن الابقـــاء عـــلى تقسيم العمـــل ومختلف العمليات الانتـــاجية والعلاقـــات الاجتماعية المترتبة عليه او تطويرها . وهكذا لاحظ ماركس وانجلز في « الايديولوجية الالمـــانية » ان :

« تقسيم العمل يصبح حقا تقسيما للعمل منذ اللحظة التي يظهر فيها انقسام العمل الذهني عن العمل اليدوي » .

وبشكل عـــام يتجاوب تكوين الافكـــار المجردة مع ظهـــور احتياجات اجتماعية جديـــدة . وفي الوقت نفسه يصبح تطوير

الافكار شكلا خاصا من النشاط الاجتماعي ، قسما خاصا من تقسيم العمل ، ويؤدي ما يعقب ذلك من انفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي الى مزيد من النتائج .

فحالما تظهر فكرة مجردة وتتجسد في كلمات تظهر امكانية استخدام هذه الكلمات للدلالة على انواع خاصة من الموضوعات توجد بمعزل عن موضوعات العالم المادي التي تنعكس في الادراكات الحسية ، وتكون هذه الامكانية اقرب ما يكون الى التحقق كلما اصبحت معالجة الافكار المجردة نشاطا اجتماعيا خاصا منفصلا عن العمل اليدوي .

ومن الواضح ان هذا الامر يتم بمفهومات عن قوى غير مرئية وكائنات فوق الطبيعة وما الى ذلك . ويعتبر اولئك الذين يستخدمون هذه الافكار ان كائنات وقوى غامضة معينة ـ وجودها منفصل عن وجود الاشياء المادية المحسوسة ومستقل عنه ـ تقابل هذه الافكار . وقد وضع السحرة او الكهنة او رجال اللاهوت الذين تخصصوا في مثل هذه الافكار مذاهب محكمة للغاية استنادا اليها .

لكن اوهاما مماثلة يمكن ان تنشأ حول كل الافكار المجردة . فمن خصائص الافكار المجردة انه ليس ثمة موضوعات محسوسة تقابلها . لكنها ترتبط بموضوعات محسوسة . ومن الضروري لتفسير مثل هذه الفكرة ، لكي نذكر ما تعنيه الكلمة التي تتجسد فيها ، ان نرجع الى موضوعات وعمليات محددة مدركة حسيا ، والى علاقاتها التي تنعكس في هذه الفكرة . ومن الناحية الاخرى فان من الممكن ان ننسى الواقع العيني المنعكس في هذه الافكار ، وان نعامل الافكار وكأنها تعالج مملكة منفصلة للتجريدات مكشوفة للعقل لكنها مستقلة عن عالم الخبرة والممارسة المحسوس .

يقول لينين في « الملاحظات الفلسفية » :

« ان معالجة الذهن لشيء خاص ما ، تقديم صورة له . ليس فعلا بسيطا مباشرا ، ليس صورة مرآة لا حياة فيها . وانما فعل مركب مزدوج متعرج . تكمن فيه امكانية

تحليق الخيال بعيدا عن الواقع ، واكثر من هذا تكمن فيه امكانية تحويل الفكرة المجـردة ـ بشكل غير محسوس او مقصود ـ الى خيال ـ وفي المـدى الطويل الى الـه ، لان ابسط التعميمات واكثر الافكـار العامة اولية هي شظايـا من الخيال » .

و « تحليق » الفكرة المجردة بعيدا عـن الواقع اقـرب الى الحدوث كلما زاد انفصـال العمل الذهني عن العمل المادي ، كلما زاد انفصال النشاط النظري عن النشاط العملي .

واذن فمع تطور الافكـار المجردة لا يعود التفكير مرتبطـا بسـمات الاشـياء وصلات الاشخاص والاشياء التي ندركها مباشرة في الممارسة عن طريق الحواس ، ولان التفكير يصبح مجـالا خاصـا للعمل الذهني كشيء متميز عن العمل اليدوي يزداد ابتعادا عـن الممارسـة وعن خبرات الحياة العملية العادية ، ويصبح حرا في وضع كل انواع المفهومات العـامة والافكار العامة عن العـالم وعن المجتمع . ان مـا نفكر فيه يصبح متميزا عما نجربه او نمارسه .

يقول ماركس وانجلز :

« ومنذ هذه اللحظة يستطيع الوعي حقـا ان يطري ذاته باعتباره شيئا آخر غير وعي الممارسة القائمة ، وبـانه في الواقع يتصور شيئا دون ان يتصور شيئا واقعيا [اي شيئا تدركه الحواس مباشرة ـ م. ك.] . منذ ذلـك الحين يصبح الوعي قـادرا على ان يتحرر من العالم ، وينطلق الى تكوين النظرية الخـالصة واللاهوت والفلسفة والاخـلاق ، الخ ... »(٣) .

تعلم كيف نفكر :

من شروط تطور الافكـار المجردة انفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي . وهذا يتضمن داخله امكانـات متناقضة ، فهو

(٣) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » .

ـ من ناحية ـ يتيح اكتساب معرفة بالصلات الواقعية للأشياء ، وبظروف الوجود الانساني ؛ اعمق من المعرفة التي يحويها الوعي الحسي المباشر . ومن ناحية اخرى يسمح بنمو كل انواع الخيالات والاوهام .

وبالتالي فان كل عملية التطور الفكري للمجتمع تمثل جوانب متناقضة . فقد كان هناك ـ من ناحية ـ هذا النمو الذي لا شك فيه للمعرفة الحقة ، وبعبارة اخرى للأفكار الصادقة ـ التي امكن التحقق من تجاوبها مع الواقع ـ عن المجتمع وعلاقات الناس بالطبيعة . ومن ناحية اخرى كان هناك هذا النمو للأفكار الموهومة واحكامها . ومع تطور المجتمع طوّر الناس في اذهانهم اوهاما عن انفسهم وعن العالم الذي يعيشون فيه . وقد اضاف كل عصر الى رصيد المعرفة الانسانية ، وفي الوقت نفسه انتج كل عصر اوهامه المميزة التي حددت الانتاج الفكري لهذا العصر وتخللته ولونته .

فهنا اذن نجد جذر التعارض والصراع بين الاتجاهات المادية والمثالية الذي استمر طيلة تطور الفكر .

فالتعارض بين الاتجاهات المادية والمثالية تعارض اساسي ، ينشأ عن طبيعة الفكر ذاتها حالما يتطور الى مستوى الافكار المجردة ، انه ينشأ مع انفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي . فحين يبدأ العمل الذهني في « التحرر من العالم » كنشاط نظري ، و « يصبح شيئا آخر اغير الممارسة القائمة » ينشيء على الفور طريقا النظرية البديلان ـ السعي الى فهم الاشياء في صلاتها الحقيقية ، وتفسير ما يحدث في العالم المادي من العالم المادي ذاته ، وتلك هي المادية ، او السير الى مملكة الفكر الخالص ، وتصوير العالم المادي المحسوس كشيء تابع للفكر ونتاج للفكر ، وتلك هي المثالية . وبعبارة اخرى اعتبار الوجود سابقا للفكر ، او اعتبار الفكر سابقا للوجود .

واذا نحن فهمنا صراع الاتجاه المادي في الفكر ضد الاتجاه المثالي في هذا الضوء فسنفهمه كصراع استمر عبر عصور التاريخ

الانـــاني ، منذ الازمنة البدائية حتى يومنا هذا ، وفي المستقبل ، كي نتعلم كيف نفكر تفكيرا صادقـــا صحيحا ، بطريقة تعكس بصدق ظروف الوجود الانـــاني الواقعية ، وتساعد التقدم الانـــاني . انه الصراع من اجل المعرفة والتنوير ضد الجهل والخرافة

الفصل السادس

الايديولوجية

تكوين الايديولوجيات :

في مجرى تطور المجتمع تستخدم الافكار المجردة لوضع نظريات او مذاهب او آراء عن الاشياء بدرجة او اخرى من الشمول . وتقوم الآراء العامة وطرق التفكير وانساق الافكار المجردة كسمة لنظرة مجتمع باسره ، او قسم من اقسام المجتمع .

وتوجد فوارق كبيرة بين الآراء السائدة في مختلف المجتمعات، وفي مختلف مراحل التطور الاجتماعي ، فلكل منها آراؤه الاجتماعية المميزة عن السياسة والاخلاق والقانون والملكية والدين والفلسفة ـ وتتخلل هذه الآراء التفكير الاجتماعي في كل الموضوعات الخاصة ، وتصوغ تطور افكار كل الافراد وتؤثر عليها .

فمع تطور الملكية الخاصة والدولة مثلا تتشكل دائما افكار عن « الحقوق » القانونية والسياسية . لكن الافكار السائدة عن الحقوق ـ النظريات السائدة عنها ؛ المذاهب المنظمة عن الحقوق ـ تختلف كثيرا في مختلف مراحل تطور الملكية . ففي المجتمع العبودي كان المعتقد ان العبيد ليس لهم حقوق على الاطلاق . وفي المجتمع الاقطاعي كان المعتقد ان لكل شخص حقوقا ، لكن طابع حقوقه يتوقف على مركزه الفعلي في النظام الاقطاعي ، بحيث لم تكن حقوق القن مساوية لحقوق السيد الاقطاعي ، ومع ظهور

الراسمالية بدات نظرية « حقوق الانسان » تتشكل ـ فكرة ان لكل انسان ـ ككائن انساني ـ « حقوقا انسانية مقدسة » هي نفسها بالنسبة لكل الناس ـ وكثر الجدال عن التعريف الدقيق لهذه الحقوق ، ومما ينبغي ان تستمد .

ومنذ البدايات الاولى للانتاج الاجتماعي شكّل الناس افكارا عن العمليات السببية في الطبيعة . لكن الآراء عن السببية في الطبيعة اختلفت كثيرا في مختلف مراحل المجتمع . واكثر النظريات بدائية هي نظرية الحيوية التي تنظر الى كل شيء باعتباره حيا واعيا . وفيما بعد هجرت النزعة الحيوية واصبح المعتقد ان كل شيء توجهه صورته او مبداه النوعي الذي يحدد طبيعته ، ومكانه في سلم الوجود ، وطرقه الخاصة في الفعل على غيره من الاشياء والانفعال بها . وطورت هذه النظرة للسببية بتفصيل كبير في العصور الوسطى . ثم تطورت النظرة الميكانيكية عن السببية التي ميزت بدايات العلم الطبيعي الحديث ، ووفقا لها تحكم مجموعة واحدة من القوانين الطبيعية حركة كل الاجسام ، ويحدد التفاعل الخارجي للأجسام الذي يجري وفقا لهذه القوانين كل ما يحدث .

ومثل هذه الآراء المنظمة بدرجة او اخرى ، والتي تطورها تاريخيا مجموعة اجتماعية محددة ، في مراحل محددة من التطور الاجتماعي ، والتي تختلف وفقا لأصلها الاجتماعي ؛ تسمى **الايديولوجيات** . ويسمى تطور مثل هذه الآراء **التطور الايديولوجي**.

الاساس المادي للتطور الايديولوجي :

الايديولوجية في الاساس نتاج اجتماعي لا فردي . ونحن حين نتعرض لتطور الايديولوجية نتعرض لتطور الافكار الاجتماعي. ولا يعنينا كيف تتشكل الافكار وتنضج في ذهن الفرد بقدر ما يعنينا كيف تتشكل تيارات الافكار الواسعة كسمة مميزة لحقبة بأسرها من التطور الاجتماعي .

وبالطبع يسهم الافراد كافراد ـ بقدر طاقاتهم وظروفهم ـ

في تكوين الايديولوجيات . ومن الناحية الاخرى فان الايديولوجيات السائدة او الصاعدة في المجتمع تمثل خلفية وشرطا لتطور آراء كل فـــرد في المجتمع ونظراته . ويتاثر الافـــراد دائما ــ في آرائهم ونظراتهم الخاصة ــ بالايديولوجيات ويعبّرون عنها ، وينطقون باسمها .

وفي مجـــرى التطور الاجتماعي يحـــدث تغير وتطور فـــي الايديولوجية . وتحل ايديولوجية محل اخرى . وفي نفس المجتمع تتفاعل الايديولوجيات المختلفة والمتنازعة وتصطدم فيما بينها . لكن الايديولوجية ليس لها تطور مـــستقل . فليس هناك « تاريخ للفكر » مستقل عن تطور الظروف المـــادية للحياة الاجتماعية .

والايديولوجية دائما ايديولوجية انـــاس محددين ، يعيشون في ظروف محـــددة ، ويعتمـــدون في حياتهم عـــلى اسلوب انتاج محدد ، بعلاقـــات انتاج محـــددة ، ويقومون باشياء محـــددة ، برغبات واهداف محددة . ولا تتشكل ايديولوجيتهم بشكل مـــستقل عن عملية حياتهم المـــادية .

يقول ماركس وانجلز :

« اننا ننطلق من الناس الواقعيين ، النشيطين ، وعلى اســـاس عملية حياتهم الواقعية نبـــين تطور الانعكاســـات والاصداء الايديولوجية لعملية الحياة هذه . فالاشباح التي تتشكل في المخ الانساني هي ايضـــا تساميات لعملية حياتهم المادية التي يمكن التحقق منها تجريبيا ، والمرتبطة بمقدمات مادية . وهكذا لا تعود الاخـــلاق والدين والميتافيزيقا وبقية الايديولوجية ومـــا يتجاوب معها من اشكال الوعي تحتفظ بمظهر الاستقلال . انها ليس لها تاريخ ، ليس لها تطور ، ولكن الناس اذ يطورون انتاجهم المـــادي واتصالهم المـــادي يغـــيرون ــ مع تغيير وجـــودهم الواقعي هـــذا ــ تفكيرهم ومنتجات تفكيرهم »(١) .

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » ــ الجزء الاول ــ الفصل الاول .

ان تطور الانتاج ، ومـا يتبعه مـن تطور علاقـات الانتاج والاتصال الاجتماعي القائم عليه ، هو الذي يوفر الظروف لتكوين الافكـار المجردة ، وللاحتياج الاجتماعي الى التطوير الايديولوجي لمثل هذه الافكـار . ولا تتطور الايديولـوجيات كنتيجة للفعل الداخلي لاذهـان الناس المستقل عن حياة المجتمع المـادية وانما كنتيجة لتطور حياة المجتمع المـادية ، التي تحكـم ناتج الانتاج الفكري .

ومن هنا تـاخذ الايديولوجيات في المجتمع الطبقي طابعـا طبقيا . وتتطور الآراء المختلفة على اسـاس المواقع المختلفة التي تشـغلها مختلف الطبقات في الانتاج الاجتماعي ، وعلاقاتها المختلفة بوسـائل الانتاج ، وادوارها المختلفة في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وطرقها المختلفة في الحصول على نصيبها من الثروة الاجتماعية ، ومصالحها المـادية المختلفة . وهكذا تتطور الايديولوجيات المختلفة في خدمة مختلف المصالح الطبقية .

الانعكاس الايديولوجي للواقع :

واذن فالتطور الايديولوجي يحكمه التطور المادي للمجتمع ـ تطور الانتاج ، وعلاقـات الانتاج ، والطبقات ، والصراع الطبقي .

ومن هنا فاننا نجد الاسباب التي تدفع التطور الايديولوجي في هذا الاتجاه او ذاك ـ في التحليل الاخير ـ لا داخل نطاق التطور الايديولوجي ذاته وانما في مجال ظروف الحياة المـادية . ومن الضروري مثلا لكي نفسـر لمـاذا حلت الفكرة البرجوازية عن حقوق الانسان محل الفكرة الاقطاعية عن الحقوق ان ندرس التغيرات التي تجري في اسلوب انتاج الحياة المـادية ـ لأن هذه التغيرات ولّدت تناقضا بين الفكرة الاقطاعية عن الحقوق والحقوق الفعلية التي كان الاعتراف بها لازماً للسير باسلوب الانتاج البرجوازي ، والتي استلزمت تغييرا في فكرة الحقوق يتمشى مع الواقع . وبالمثل في مجال الافكار عن الطبيعة اضفت نفس هذه التغييرات في اسلوب الانتاج اتجاها جديدا على تطور الافكـار عن الطبيعة .. وبشكل

عـــام حلت الايديولوجية البرجوازية محل الايديولوجية الاقطاعية لأن العلاقـــات الاجتمـــاعية البرجوازية كـــانت تحل ــ في حياة المجتمع المـــادية ــ محل العلاقات الاجتماعية الاقطاعية .

لكن للتطور الايديولوجي كتطور للتفكير المجرد ــ في الوقت نفسه ــ خصائصه المميزة ، قوانينه الداخلية . ان اتجاهه يحدده تطور حياة المجتمع المـــادية ، وكل ايديولوجية تتطور على أساس علاقـــات واوجه نشاط اجتماعية مـــادية محددة في خدمة مصالح مـــادية محـــددة . ولكن يظل صحيحا مع هذا أن الايديولوجية ينبغـــي ان تشبع دائمـــا احتياجـــات فكريـــة معينة ، وان هذه الاحتياجات تطرح باستمرار وتشبع في مجرى التطور الايديولوجي.

فالايديولوجيات تطوّر لخدمة مصالح طبقية محددة ، انهـــا ادوات فكرية ، اسلحة فكرية ، تصنعها وتصهرها طبقات محددة ، بما يتمشى مع مركز هذه الطبقات المـــادي واحتياجاتها ، ولكن لانها ادوات فكرية واسلحة فكرية فـــان صلاحيتها تستوجب أن تشبع احتياجات فكرية . ولا بد أن تخضع لقواعد صياغة الافكار ، تماما كما ان الادوات المـــادية والاسلحة المـــادية لا بد ان تخضع لقواعـــد صياغة المعادن على سبيل المثال .

مـــن اين تنشأ هذه المتطلبات الداخلية ، الفكرية ، للتطور الايديولوجي ؟ انها تنشأ عن ان الايديولوجية انعكاس للعالم المادي الواقعي في شكل افكـــار مجردة . فكل ايديولوجية هي محـــاولة يقوم بها انـــاس معينون لفهم وشرح العالم الذي يعيشون فيه ــ او بعض جوانبه ــ ولفهم وشرح حياتهم ، حتى يمكن ان تخدمهم في الظروف المحددة التي يعيشون فيها . ومن هنا لا بد ان يسعوا دائما الى تطوير ايديولوجياتهم كنسق متماسك من الافكار يتفق مع الوقـــائع بقدر مـــا مارسوهـــا وتحققوا منها . وهذا يفرض متطلبات فكرية ينبغي أن تستوفيها الايديولوجيات ، واستيفاؤها قانون يعمل دائما ويؤثر على تطور الايديولوجيات .

ولا بـــد ان تستوفي الايديولوجيات ــ في المقـــام الاول ــ المتطلبات العامة لانعكاس الواقع في افكار ، اي قوانين المنطق . ولا بد أن تستوفي ثانيا المتطلبات الخاصة لانعكاس جزء خـــاص من

الواقع ، اي لا بـد ان تتفق مع الوقائع بقدر مـا مارسها الناس وتحققوا منها .

ومـن هنا فـان الايديولوجيات تطور على اسـاس البنية المعطاة للمجتمع ، لخدمة مصالح طبقة او اخرى ، وتبذل الجهود دائما في هذا التطور الايديولوجي لجعل الآراء المتطورة متسقة مع ذاتها ومنطقية ، وجعلها تغطي الوقـائع الاسـاسية الناشئة عن خبرة المجتمع في مرحلة معينة من تطوره ، وتقدم تفسيرا لها .

ويولد هذا تناقضات مستمرة في تطور الايديولوجيات . فمن نـاحية يتضح ان الآراء التي يطورها ممثلو مختلف الطبقات غير متسقة منطقيا ، وغير متسقة مع الوقـائع الصريحة ، ومن الناحية الاخرى تقود الوقائع ومتطلبات المنطق الى استنتاجـات لا تتفق مع آراء يتشبث بها البعض بعناد . وتولد مثل هذه التناقضات عملية مستمرة لانضاج الايديولوجيات ، اذ يحاول الايديولوجيون ايجاد مخرج منها ، ووسيلة لحلها .

نقـد الايديولوجيات :

ايـا كان مجال الافكار الذي ندرسه فـان تطور الافكار يعبّر عن الجهد لـدعمها ، ولجعلها متسقة ، وعرضها عرضا منطقيا ، وتكييفها مع وقـائع الخبرة . ويلعب هذا الجهد دورا رئيسيا في الانضاج التفصيلي للايديولوجيات . فالحق اننا كلما درسنا تطور الايديولوجيات الخاصة دراسة عينية ـ اي كلما درسنا تطورها بالتفصيل ولم نقصر اهتمامنا على سماتها الاكثر عمومية ـ كـان مـن الضروري ان نـاخذ في اعتبارنـا الجـانب الفكري للتطور الايديولوجي ، ذلـك ان الجهـد للتوفيق بين الافكـار والوقائع البارزة ، وللقضاء على التناقضات وعرض قضايا متسقة مدعمة ، يؤثر تاثيرا كبيرا على تطور الافكـار الواقعي . ويحدث حتما ـ في مجرى هذا التطور ـ ان يكون التعبير عن العلاقـات الاقتصادية والمصالح الطبقية في مجال الافكـار المعطى اقل وضوحـا ، واقل مباشرة ، واكثر غموضا والتفافا .

وهكذا يقول انجلز ـ مثلا ـ عن تطور الايديولوجية القانونية :

« فالقـانون لا ينبغي فحسب أن يتمشى مع الظرف الاقتصادي العام ويكون تعبيرا عنه ، بل لا بد أن يكون تعبيرا **متماسكـا داخليا** ، لا ينتهي الى لا شـيء نتيجة تناقضاته الداخلية . ومن اجل تحقيق ذلك يعـاني الانعكاس الامـين للظروف الاقتصادية بصورة متزايدة . . . وهكذا فان مجرى تطور القـانون لا يتألف ـ الى حـد كبير ـ الا مـن : اولا المحـاولات للتغلب عـلى التناقضات الناشئة عن الترجمة المباشرة للعلاقـات الاقتصادية الى مبادىء قانونية ، واقامة نسق قانوني منسجم ، ثـم من التصدعات المتكررة في هذا النسق نتيجة تاثير وضغط المزيـد من التطور الاقتصادي الذي يدخله في مزيد من التناقضات »(٢) .

وتحـدث نفس العملية في كل المجالات الايديولوجية ـ في الفلسفة واللاهوت والافكار الاخلاقية والافكار عن الطبيعة ومـا الى ذلـك .

والايديـولوجية عرضة دائما ومكشوفـة للنقد مـن زاوية التناقض الذاتي ، والعجز عن اعطاء الاعتبار للوقـائع المجربة . واولئك الذين يعتنقون ـ كممثلين فكريين لطبقة معينة ـ وجهة نظر عـامة في الايديولوجية ، كثيرا مـا يسـاقون لهذا السـبب الى احكام بناء ايديولوجيتهم ، مما يقودهم الى خلق ابنية ايديولوجية كثيرا مـا تكون معقدة مفتعلة . وبعدئذ ـ وكما لاحظ انجلز ـ تصبح هذه الابنية غير ملائمة لخدمة المصالح المعنية في ظروف جديدة ، وتبدا العملية من جديد . ويتجلى هذا في الفلسـفة مثلا في تكـاثر « الانسـاق » الفلسفية .

واذا كانت عملية النقد هذه تجري في تطور ايديولوجية طبقة معينة فانها تتخذ طابعا مختلفا اكثر حـدة حين تبدأ افكار جديدة

(٢) ف. انجلز ـ رسالة الى س. شميدت في ٢٧ اكتوبر ـ تشرين الاول ١٨٩٠ .

منازعة تعبّر عن مصالح طبقات مختلفة تتشكل على أساس عوامل جديدة في حياة المجتمع المادية . ولا تنشأ مثل هذه الآراء الجديدة الا بعد ان يولدها تطور الحياة المادية ، لكنها ما ان تنشأ حتى تهاجم اوجه عدم الاتساق المتعددة في الآراء القائمة من وجهة النظر الجديدة ، انها تستخدم المنطق وتلجأ الى الوقائع كاسلحة فكرية قوية تحط بها من شأن الآراء القديمة وتدمرها .

وكثيرا ما اخطأ مؤرخو الافكار بمحاولة فهم التطور الايديولوجي من زاوية طرح المتطلبات الفكرية واستيفائها فحسب . فهذا امر لا يمكن القيام به كما اوضح ماركس وانجلز ، لان المرء لا يستطيع ان يقول لماذا ينبغي ان تظهر آراء جديدة في اوقات معينة ، ولماذا ينبغي ان تكون هذه الآراء من هذا الطراز وليس ذاك ، دون ان يبحث عن الاسباب في حياة المجتمع المادية . لكن من المستحيل كذلك تتبع تطور الايديولوجيات دون ان نأخذ المتطلبات الفكرية في الاعتبار . ولم تقل الماركسية بالتاكيد ابدا ان علينا ان نحاول ذلك .

فهذا هو الخطأ المضاد الذي سقطت فيه بعض مدارس علماء الاجتماع ـ وبالتحديد اولئك الذين يعتنقون مذهب « الحتمية الاقتصادية » ، ـ التي تعتبر النشاط الاقتصادي العنصر الوحيد الذي يحدد كل التطور الاجتماعي في كل جوانبه . فهم اذ يعجزون عن ادراك انه تحدث في الايديولوجية عملية انعكاس للعالم الواقعي في افكار الناس ، يعتبرون الايديولوجية مجرد تطور لمختلف الافكار التي تعبّر عن مختلف المصالح المادية الاقتصادية وتخدمها . ويقودهم هذا الى واحدة من نتيجتين . فهم من ناحية يستخلصون انه ما دامت كل الافكار مجرد ادوات عملية تخدم مختلف المصالح المادية فان اية افكار ـ بما فيها افكارهم ـ لا يمكن ان تزعم انها تعكس الواقع عكسا صحيحا ـ بحيث ان كل الايديولوجيات ـ بما فيها ايديولوجيتهم ـ وهمية كغيرها في كل الجوانب . ومن الناحية الاخرى قد يسبقون الى ان يستثنوا انفسهم وافكارهم ، ويصورون انفسهم كاناس خاصين تجاوزوا ـ بمعجزة فكرية ما ـ كل وجهة نظر طبقية ، ويستطيعون ان يطلوا على سائر

البشرية من البرج العاجي لـ « الموضوعية » الكاملة المطلقة . وهم في كلتا الحالتين ينغمسون في تناقض ذاتي .

غير ان هناك ـ وكان هناك دائما ـ اساس لنقد الايديولوجيات من زاوية العقل والخبرة ـ اي لمقارنتها النقدية بالواقع . وقد جرت هذه المقارنة باستمرار في مجرى التطور الايديولوجي ذاته ، ولم يقم بها انـاس نجحوا في ان ينفصلوا عن الحياة الاجتماعية ، فلا يوجد مثل هؤلاء الناس ، وانما جرت في مجرى تطور الممارسة الانسانية الطويل ـ تطور الانتاج والعلم والصراع الطبقي .

وهكذا يجري في تطور الايديولوجيات تطور للانعكاس الصادق المتماسك للعالم الواقعي في افكار الناس ، لان العملية المستمرة لأخذ الوقائع في الاعتبار ، والسعي الى الاتساق ـ رغم ما يصحبها في كل المراحل من عدم امانة فكرية وادعاءات خاصة وابتداع وخيال وسفسطائية وعدم اتساق ـ تؤتي باستمرار نتائج ايجابية . ويجري التحقق من هذه النتائج باستمرار ودعمها ونقدها والسير بها الى الامام عن طريق الممارسة الانسانية المتطورة .

الحقيقة والاوهام في الايديولوجيات :

كل الافكار انعكاس الواقع المادي الموضوعي الذي هو مصدرها النهائي . ولكن اذا كان هناك في الايديولوجية ـ كما راينا ـ تطور للانعكاس الصادق للواقع في الافكار ، فان هذا يحدث وسط تطور كل انواع الاوهام والانعكاس المتخيل المشوه للواقع .

ويعبّر التعارض والتداخل بين الحقيقة والوهم في التطور الايديولوجي عن حقيقة ان انعكاس الواقع في الافكار يجري بطرق مختلفة ، وخلال عمليات مختلفة ، وفي مسارات مختلفة .

فمن الطرق التي تتشكل بها افكارنا عن الاشياء وتنضج عملية تفاعلنا العملي مع الاشياء ، التي تقوم على ممارستنا العملية وتختبر فيها ، وتزداد تطورا بالبحث العلمي للعمليات الواقعية ،

وللخصائص الواقعية للأشياء ، وحركاتها وتفاعلاتها . وبقدر ما تتشكل الافكار عن الاشياء بهذه الطريقة تكون الافكار والاستخلاصات عنها ، المتجسدة في الايديولوجيات ، صادقة الى حد او آخر ـ اي انها تعكس الواقع بصورة صحيحة الى حد او آخر وتتمشى معه .

لكن هذا ليس الطريق الوحيد الذي تتشكل به الافكار ، فهي تتشكل ايضا بطريق اكثر لا مباشرة والتفافا ، والافكار التي تتشكل بطريق اكثر لا مباشرة والتفافا ذات نفوذ عميق في تكوين الايديولوجيات .

وتتضمن هذه العملية الالتفافية التي تدخل في تكوين الايديولوجيات ثلاث خطوات رئيسية . فاولا تتشكل الافكار المجردة على اساس مختلف علاقات الناس الاجتماعية وخبراتهم . وثانيا تنفصل هذه الافكار المجردة عن الخبرات والعلاقات الفعلية التي استمدت منها . وثالثا تجري صياغة كل من الاستخلاصات الخاصة والافكار العامة بعدئذ بمساعدة هذه الافكار المجردة .

وعلى سبيل المثال فحين ينقسم المجتمع الى طبقات وتتشكل طبقة حاكمة ، تتشكل ـ على اساس العلاقات الاجتماعية والخبرات واوجه النشاط الاجتماعية المحددة ـ فكرة العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وسلطة الحاكم واختصاصاته . وتكون الخطوة الثانية بعد ذلك هي فصل هذه الفكرة المجردة عن العلاقات التي استمدت منها اصلا ، والنظر اليها كتعبير عن حقيقة عامة عن الكون ، والمضي الى تشكيل فكرة الاله ، حاكم الكون . والخطوة الثالثة والاخيرة هي المضي الى تفسير العلاقات الاجتماعية القائمة كاوامر من الاله ، وتفسير الطبيعة باعتبارها من خلق الاله .

وحين تشكل الافكار عن الاشياء وتصاغ بهذه الطريقة ، فان هذا يعني اننا نعالج الاشياء وفي اذهاننا بالفعل مفهومات مسبقة محددة بدرجة او اخرى عنها . والحق ان هذه المفهومات المسبقة كثيرا ما تكون مثبتة في اذهاننا نتيجة للتربية والعادة حتى اننا لا نحلم باثارة الشك فيها ، وانما ناخذها كبديهيات ، كطرق للتفكير طبيعية واضحة ، ثم نكوّن آراءنا العامة واستخلاصاتنا

الخاصة عن الاشياء لا كنتيجة للبحث النقدي والتحقق العملي من الاستخلاصات بالدرجة الاولى وانما في استقلال عن الممـارسة ، وبصورة غير نقـدية ، ودون بحث .

وحين تتشكل الافكـار عن الاشياء بهذه الطريقة فانها تكف عمومـا عن ان تكون صادقة ، وتصبح وهمية بدرجة او اخرى . انها لا تعكس الواقع ولا تتجاوب معه بصورة صحيحة ، وانمـا هي بالعكس تقدم صورة غير صحيحة او موهومة او خيالية او مشوهة عن الواقع .

غير ان الاوهام تقوم دائما على الواقع . انها ليست ابداعات خالصة للذهن ، وانما هي تنشأ ـ كما راينا ـ عن عملية تشكيل الافكار من مصدر مـا ثم تعميمها (اي توسيعها الى خارج المجال الذي قامت فيه اصلا) واستخدامها كمفهومات مسبقة تطبق في سياقـات كثيرة مختلفة ، وتحل محل التكوين النقدي للأفكـار والتحقق منها خلال الممارسة والخبرة الفعليتين .

ولكل وهم مصدره في الواقع . انه يعكس ظروفـا محددة للحياة المـادية ، وينشأ عن علاقـات اجتماعية وخبرات واوجه نشاط محددة . وهذا هو السبب في الحـاح كثير من الاوهام . فالمسالة ليست مجرد مذهبة الافراد بافكار موهومة معينة ، وانما هي مسالة العلاقـات الاجتماعية التي تولد بـاستمرار اوهامـا معينة ، وخدمة هذه الاوهام لمصالح مـادية معينة .

وتتخذ الاوهام شكلين رئيسيين :

ففي المقام الاول تنشأ اوهام عن الاشياء الواقعية ـ تصورات خـاطئة عن العمليات والعلاقـات الواقعية المـالوفة في الخبرة والممارسة . ومثالها الوهم القائل ان علاقات ومؤسسات اجتماعية معينة تنبع من الطبيعة الانسـانية ، او يمليها العقل .

وثانيا تتطور الاوهام الى ميثولوجيا وخيال خالص ، وابتداع اشيـاء متخيلة . وهكـذا لا يسيء الناس فحسب تصور الطبيعة والمجتمع ، وكلاهما يوجـد بالفعل ، بل يشكلون ايضا افكارا عن السماء والجحيم ، والعالم الروحي ، وما الى ذلك ، ليس لها وجود ، انهـم يبتدعون كل انـواع الكـائنات المتخيلة كالآلهة والجنيات

والشياطين .

وينبغي في هذا الصدد ان نلاحظ ان الوهم لا يمكن ان يعادل ببساطة بالخطأ . فالوهم خطأ بالطبع ، لكنه نوع خاص من الخطأ .

فلنفترض مثلا ان احدا قال ان مربع ١٣ يساوي ١٦٦ . ان هذا خطأ بسيط (لأن الاجابة الصحيحة هي ١٦٩) . لكن لنفترض من الناحية الاخرى انه قال ان ١٣ رقم شؤم . ان هذا ليس شبيها بالخطأ في الحساب الذي يمكن ان يقع فيه اناس لديهم بشكل عام افكار صحيحة عن الارقام ، وانما هو يعبّر عن وهم هو ان الارقام سعيدة او مشؤومة . ومثل هذا الخطأ لا ينشأ ببساطة عن خطأ في التعامل بالارقام ، وانما هو ينشأ عن تطبيق افكار مسبقة عن الحظ على الارقام ، وهي افكار وان كان لها مصدر محدد في الخبرة والممارسة ، فانها تطبّق بصورة خاطئة غير انتقادية على الارقام .

وبالمثل لو قال احد ان الدستور البريطاني قد عرضه اوليفر كرومويل على البرلمان فستكون هذه عبارة خاطئة ، نشأت عن عدم كفاية دراسة تاريخ بريطانيا الدستوري . ولكن تصور انه قال ان الدستور البريطاني تعبير عن العبقرية الفريدة للعنصر الانكلو ـ سكسوني ، او انه هبة الله للشعب البريطاني ، فان هاتين العبارتين ـ وان كانتا ايضا خاطئتين ـ ليستا مجرد خطأ في التاريخ . وانما هما تنشآن عن تطبيق آراء مسبقة عن عبقرية العناصر او عن الله على الشؤون الاجتماعية .

وهكذا تمثل الاوهام نوعا خاصا من الخطأ ، ينشأ عن اسلوب محدد لسوء تصور الاشياء بعبارات من افكار مسبقة .

الايديولوجية العلمية والايديولوجية الوهمية :

تدخل كلتا عمليتي تكوين الافكار المجردة ـ اي عملية تشكيل افكار صادقة بدرجة او اخرى بصورة نقدية من خلال الخبرة العملية والتفاعل مع الاشياء ، وعملية تشكيل افكار موهومة بدرجة او اخرى كتصورات مسبقة تطبّق في تشكيل

الآراء ـ في تكوين الايديولوجيات الفعلية . وفي الوقت نفسه فان واحـدة او اخرى من هاتين العمليتين يمكن أن تسود في تشكيل ايديولوجيات معينة ، بحيث تكـون في اساسها علمية في حـالة ووهمية غير علمية في حالة اخرى .

وكل ايديولوجية في المجتمع الطبقي يطورها المثلون الفكريون للطبقات المحددة ، وتتجاوب مع المركز الفعلي للطبقات المحـددة ، وتخدم احتياجاتها في الصراع الطبقي . ولمـا كان الامر كذلك فاننا نستطيع ان نرى كيف تتفاعل العمليتان وتتداخلان حتما في تكوين الايديولوجيات الطبقية .

فمن ناحية ـ وبقدر ما تتطلب مصالح طبقة ما فهما صادقا للواقع يقوم على بحث نقدي من نوع ما ـ فان ايديولوجيتها تحوي بالفعل عنصرا علميا . وعلى سبيل المثـال تتطلب المصالح الطبقية للطبقة الراسمـالية بالتـاكيد القيام بالكثـير لاكتشاف القوانين الواقعية التي تحكم مختلف العمليات الطبيعية ؛ وتلعب مثل هذه الاكتشافات دورا في الايديولوجية البرجوازية . كما تتطلب نفس المصالح القيام بابحـاث اجتماعية معينة ، ومن هذا المصدر ايضا تدخل الايديولوجية البرجوازية عنصر علمي معين .

ومن الناحية الاخرى ـ وبقدر مـا تولد مصالح طبقة مـا والمكان الذي تشغله في الانتاج الاجتماعي تصورات مسبقة واوهاما معينة تخـدم الطبقة في صراعها ـ فان ايديولوجيتها تكون وهمية . وهكذا مثلا لو درسنا الايديولوجية البرجوازية فسنجد كثيرا من العناصر التي لا تعدو ان تجسد اوهام الطبقة البرجوازية ، والآراء الخاصة بالمجتمع البرجوازي .

والحق ان الايديولوجية البرجوازية قـد تشكلت بتطور كلتا العمليتين . وهـذا يولد التناقضات في تطورهـا ؛ لان نتـاجي العمليتين يتناقضان باستمرار ؛ وينبغي البحث عن حل مثل هذه التناقضات في تطور الايديولوجية . وكان نفس الشيء صحيحـا بالنسبة لايديولوجيات الطبقات الاخرى ، وان كان العنصر العلمي اقوى في الايديولوجية البرجوازية بحيث اصبحت التناقضات اكثر حـدة .

وهكذا حدث في تطور الفلسفة البرجوازية مثلا جهد مستمر للتوفيق بين الاكتشافات العلمية والتصورات المسبقة البرجوازية . واوضح الطرق التي وجد بها هذا التناقض تعبيرا عنه في الفلسفة البرجوازية هو التناقض بين الصورة المادية للعالم التي تقدمها الاكتشافات العلمية والآراء الدينية التي تشكل جزءا اساسيا من التصورات المسبقة الايديولوجية . وبحث الفلاسفة باستمرار عن طرق ووسائل لحل هذا التناقض ؛ لقد ظلوا يحلونه كما يحلو لهم ، وكلما حلوه كان يعود فيبرز من جديد .

وفي العلم البرجوازي دائما ما تفسر الاكتشافات ـ بمساعدة الفلاسفة ـ بعبارات من التصورات البرجوازية المسبقة. ونستطيع ان نرى هذا اليوم مثلا في تطور الفيزياء ، حيث تفسر اكتشافات فيزياء الكم لتعني ان الاحداث لا يمكن التنبؤ بها ، وان طبيعتها الواقعية غير قابلة للمعرفة . وهذا ببساطة تطبيق للتصورات الايديولوجية البرجوازية المسبقة التي ولدتها الازمة العامة للراسمالية على علم الفيزياء . ومن الناحية الاخرى كان لا بد من التخلي عن تصورات مسبقة معينة ـ على الاقل في اشكالها القديمة ـ واحلال اخرى محلها لتناقضها مع تقدم معرفة الطبيعة . وقد حدث هذا مثلا للمذاهب الدينية التي كثيرا ما عدلت في مجرى الصراع للتوفيق بين الدين والعلم ـ كما حدث عندما نبذ علماء اللاهوت في النهاية آدم وحواء كتنازل لنظرية التطور .

ونستطيع ان نرى ونحن ندرس مثل هذه الامثلة ان التعارض والتداخل بين العناصر العلمية والوهمية في الايديولوجية لا يمكن تصوره ببساطة وكان الافكار عن شيء ما علمية والافكار عن شيء آخر وهمية . فالواقع ان العناصر العلمية والوهمية تتعارض وتتداخل في الافكار التي تتشكل عن نفس الشيء .

وهكذا فان الايديولوجية البرجوازية مثلا تركيب متناقض من العناصر الصادقة والوهمية ، تؤكد فيه هذه الاخيرة ذاتها دائما وتتشبث بالبقاء ، ويمكن ان نقول ان العنصر العلمي اقوى في الآراء البرجوازية عن العمليات الطبيعية ، في حين ان العنصر

الوهمي اقوى في الآراء البرجوازية عن العمليات الاجتماعية . لكن كلا العنصرين يدخلان في كل اجزاء الايديولوجية البرجوازيـــة وكل مجالاتها . والعنصر الوهمي هو الـــسمة الاكثر تمييزا للايديولوجية البرجوازية . فمـــا يضفي على الايديولوجية البرجوازية طـــابعها البرجوازي الخاص هو طابع اوهامها .

ونـــستطيع ان نقـــول نفس الشيء عن ايديولوجيات المـــاضي الاخرى . وفي الوقت نفـــه نستطيع ان نؤكـــد باتـــساق ـ ونحن نؤكـــد فعلا ـ ان الايديولوجية الاشتراكية او المـــاركـــسية هي بالدرجة الاولى ايديولوجية علمية ، وانها بهذا الصـــدد تتميز عن كل ايديولوجية اخرى دون استثناء . وذلـــك لأن النضال لانهـــاء الراســـمالية ومعها كل اســـتغلال انـــسان لانسان ـ وهو مـــا تخدمه هذه الايديولوجية ـ يتطلب في المقـــام الاول فهما صـــادقا للواقع ، ويتعارض مع كل اوهام المجتمعات القائمة على الاستغلال .

الفصـــل السّـابع

الأوهام الايديولوجية

الانعكاس الايديولوجي لعلاقات الانتاج :

ندرس في هذا الفصل تطور المفهومـــات المـــبقة او الاوهـــام الايديولوجية ، ثم ننتقل في الفصلين التاليين الى تطور الافكـــار العلمية .

وهنـــاك خمس سمـــات رئيسية مميـــزة لتطور الاوهـــام الايديولوجية في المجتمع المنقسم الى طبقات يمكن تتبعها في كل ايديولوجية حتى الايديولوجية البرجوازية .

١ ــ والسمة الاولى للأوهام الايديولوجية هي انهـــا تنشـــا دائما كانعكاس لعلاقـــات انتاج معينة تشكلت تاريخيا . فمصدرها هو علاقـــات الانتاج في المجتمع .

ففي تطور الاوهام الايديولوجية يبدو وكأن الافكار المجردة ، والنظريـــات العامة ، تنسج من رؤوس الناس ــ فهي تتطور على مـــا يبدو من عملية التفكير ذاتها وتحكمها هذه العملية . ولكـــن كيف وصلت مثل هـــذه الافكـــار الـــى رؤوس الناس ؟ مـــا هو مصدرها ؟ مـــا لم نعتقد ان الافكار تتشكل عفويـــا في الذهن . او اننا نولد مزودين فعلا بـ « افكـــار فطرية » ، فلا بد أن نفترض اننا نـــستطيع ان نجـــد مصدرا في الواقع الموضوعي خـــارج الذهن لكل

افكارنا ، بما فيها اكثرها تجريدا ووهما ـ مصدر تستمد منه ، وتمثل انعكاسا له .

فليس الوعي الا انعكاس للوجود المادي ، فهناك اولا المادة ، الوجود الموضوعي ، ثم ثانيا الوعي ، انعكاس المادة . وليس للذهن مصادر داخلية خاصة ، يمكن ان تستمد منها الافكار ، فكل فكرة ، كل عنصر من عناصر الايديولوجية ، مستمد من الواقع الموضوعي ، ويعكسه ، مستمد من جانب واقعي ما من جوانب العالم المادي .

ومصدر الاوهام في الايديولوجية هو دائما بنية المجتمع الاقتصادية الواقعية . فكما يعيش الناس يفكرون . وفي تجاوب مع العلاقات التي يدخلونها في انتاج وسائل معيشتهم ينتجون افكارا اجتماعية ونظريات اجتماعية .

وهكذا مثلا كانت العلاقات الواقعية بين ملاك الارض والاقنان القائمة في نموذج الانتاج الاقطاعي هي التي انعكست في الافكار الاقطاعية عن ملكية الارض ، وفي الايديولوجية الاقطاعية عموما . وبالمثل فان العلاقات الراسمالية هي التي تنعكس في الايديولوجية الراسمالية . وكانت العلاقات الاكثر بساطة داخل القبيلة ، وتضامن الفرد مع القبيلة ، هي التي انعكست في الايديولوجية « البدائية » للشيوعية البدائية .

وهكذا اذ يتطور المجتمع تنضج الافكار التي تعكس علاقات الانتاج في المجتمع في شكل انساق ونظريات تتعلق بالسياسة والحقوق والالتزامات الاجتماعية والقانون وما الى ذلك . ولكل من هذه الايديولوجيات مصدرها في علاقات الانتاج الاجتماعية ، ولا تشكل ـ في التحليل الاخير ـ الا انعكاسا ايديولوجيا لهذه العلاقات .

وينطبق نفس الشيء على الايديولوجية الاخلاقية ، فاذا كانت لدينا افكار عن المقاييس المطلقة للخير والشر ، للصواب والخطأ ، للفضيلة والرذيلة ، فان هذه الافكار ليست انعكاسات لصفة موضوعية ، في اشخاص او افعال ، وانما انعكاسات للعلاقات الاجتماعية التي دخل فيها الناس ، والتي يجري فيها نشاطهم .

فلا عجب اذن ان تتغير الاحكام الاخـلاقية مع التغيرات الاساسية في العلاقـات الاجتماعية ، وان يكون هناك معيار موضوعي واحد للقول بـان اخلاقية ما ارقى من اخلاقية اخرى وهو انها تعكس وتخـدم نظاما اجتماعيا ارقى .

كما ينطبق نفس الشيء على ايديولوجية مـا فوق الطبيعة ، على الايديولوجية الدينية . فعالم ما فوق الطبيعة الذي يستحضره الناس في افكارهم ليس ـ في التحليل الاخير ـ الا انعكاسا لعـالم المجتمع الواقعي ، للعلاقـات الاجتماعية التي يعيش فيها الناس حياتهم الارضية . ودائما مـا يؤدي عالم مـا فوق الطبيعة دور حـارس النسيج الاساسي للمجتمع . فالدين القبلي يحرس القبيلة ويحمي العلاقـات القبلية تماما كما كيفت افكـار المسيحية اليوم بحيث يبدو ان السماء تحرس نظـام المجتمع البرجوازي . فعالم مـا فوق الطبيعة الذي يحرس النظام الاجتماعي ويبرره يخلق على صورة هذا النظام الاجتماعي .

تلك امثلة للطريقة التي تتطور بها مختلف اشكـال الاوهام الايديولوجية في شكل افكـار مجـردة يكمن مصدرهـا في تطور العلاقـات الاجتمـاعية ، وبالتحديـد علاقـات الانتاج . وليس الواقع الموضوعي الذي ينعكس في مثل هذه الافكـار الا التركيبة القـائمة للعلاقـات الاجتمـاعية التي تنبعث من انتاج وسـائل المعيشة المـادية .

الطابع العفوي للاوهام الايديولوجية :

٢ ـ والسمة الثانية للأوهام الايديولوجية هي انها ـ ورغم ان مصدرها يكمن في تركيبة العلاقـات الاجتماعية الواقعية ـ لا تستنبط بوعي مـن هذا المصدر ، ولا تطرح كتحليل للعلاقـات الاجتماعية القائمة .

فالافكـار التي يستخـدمها الناس قـد تعكس علاقـاتهم الاجتماعية ، لكن اوهامهم الايديولوجية لا تخلق بتأملهم **الواعي** في علاقـاتهم الاجتماعية ، وصياغتهم لانفسهم ـ بطريقة علمية ـ

عرضا دقيقا منظما للبنية الاجتماعية التي يجدونها قائمة .

ان افكار الاقتصاد السياسي مثلا ـ كما هي معروضة في كتاب مثل كتاب ماركس « راس المال » ـ مستمدة من بحث منهجي واع لعلاقات الانتاج القائمة فعلا ، ولهذا السبب فانها ليست وهمية وانما علمية في طابعها . اما الاوهام الايديولوجية ـ من الناحية الاخرى ـ فانها تنبعث كانعكاس غير واع وغير مقصود لبنية اجتماعية قائمة ، تجد تعبيرا عنها في افكار عامة عن العالم . ان لها طابعا عفويا غير واع . وهذا هو السبب في اننا اذا اردنا ان نكتشف اهم سمات ايديولوجية وهمية ما فلن نكتشفها في الاشكال العقلية التي عرض فيها الناس افكارهم وانما بالاحرى في الافتراضات غير العقلية ، التصورات المسبقة ، التي اخذوها كشيء مسلم به ، والتي تكمن خلف تدليلهم .

وعلى سبيل المثال كان العالم كله ـ السماء والارض ـ يعتبر في ايديولوجية الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى هرما تخضع فيه الدرجات الدنيا بالضرورة للدرجات العليا . وعند انتاج هذه الايديولوجية لم تكن هناك نية تقديم صورة للنظام الاقطاعي ، بل كان القصد الواعي هو تقديم صورة للنظام الضروري للعالم باسره ، وقد صيغ هذا بوعي كنسق منطقي . غير ان الايديولوجية كانت في الواقع انعكاسا للعلاقات الاجتماعية الاقطاعية القائمة ، التي صورت بهذه الطريقة في افكار الناس بعملية عفوية غير مقصودة وغير واعية . وكانت الافكار العامة المستخدمة انعكاسا للعلاقات الاجتماعية الفعلية لكنها لم تنتج بوعي باعتبارها مثل هذا الانعكاس ، وانما انبعثت عفويا ودون وعي في اذهان الناس . وثبتت هذه الافكار عندئذ كتصورات مسبقة استخدمت لتفسير كل ما يهم الناس ، سواء في الطبيعة او المجتمع او مملكة السماء المتخيلة ، ولصياغة نظرية عنه .

ويرجع الطابع العفوي غير الواعي للانعكاس الايديولوجي لعلاقات الانتاج الى الطابع العفوي غير الواعي لعلاقات الانتاج هذه ذاتها .

فعلاقات الناس الانتاجية ـ كما يقول ماركس ـ « لا غنى

عنها ومستقلة عن ارادتهم » . هذا هو مفتاح فهم طبيعة الانعكاس الايديولوجي الوهمي لهذه العلاقـات في الافكار المجردة عن العالم والمجتمع . فعلاقـات الانتاج المعينة لا تقام بوعي ، لكنها في الوقت نفسـه لا غنى عنها في المرحلة المعينة من التطور الاجتماعي ، ولأن الناس لم يقرروا ابدا ارساءها لكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون ان يمضوا بدونهـا ، فـانهم لا يعونها كعلاقـات اجتماعية مؤقتة اقيمت في زمن محدد ، وفي ظروف محددة ، استجابة لاحتياجات تاريخية محددة ـ وانما مؤقتة ـ للمجتمع . بالاحرى انهـا تبدو جـزءا من نظـام الامـور الضروري . وتنعكس السمات المميزة لعلاقـات الناس الاجتماعية وعلاقاتهم بالطبيعة ـ وهي في الواقع النتيجة المحددة تاريخيا لأسلوب انتاج محدد ـ في افكار مجردة في شكـل تصورات مسبقة واوهام عـن طبيعة الانسان والمجتمع ، كافكار عن الاله والعناية الالهية ، عن الحق والعدالة ، عن السمات الابدية المميزة بالضرورة لكل وجود ، عن الطبيعة النهائية للواقع ومـا الى ذلك .

وهم الفكر الخـالص :

٣ ـ والسمة الثالثة للأوهام الايديولوجية هي انها ـ بحكم ان طابعها العفوي يستبعد ادراك الناس لمصدرها الحقيقي ـ تبدو لهم وكانهم قـد انتجوها بعملية فكرية حرة ، بعملية خالصة غير مقيدة للذهن .

كتب انجلز في رسـالة بعث بها الى ميهرينغ في ١٤ يوليو ١٨٩٣ يقول :

« الايديولوجية(١) عملية يقوم بهـا من يسمى بالمفكر

(١) كثيرا مـا استخدم ماركس وانجلز كلمة « الايديولوجية » للاشـارة فحسب الى عملية الوهم الايديولوجي ، وبـدا يستخدمانها بمعنى ضيق . وحين تستخدم الكلمة بهذا المعنى الضيق فـان أساليب التفكير العلمية تستبعد ـ بحكم التعريف نفسه ـ من العملية الايديولوجية. لكن كلمة «الايديولوجية» ـ

بوعي حقا وانما بوعي زائف ، فالدوافع الواقعية التي تحركه تظل مجهولة فيه ، والا لما كانت عملية ايديولوجية باي حال . ومن هنا فانه يتصور دوافع زائفة او ظاهرة ، ولانها عملية فكرية ، فانه يستمد كلا من شكلها ومضمونها من الفكر الخالص ، سواء فكره هو او فكر اسلافه . انه لا يعمل الا بالمادة الفكرية ، التي يتقبلها دون بحث كنتاج للفكر ، وهو لا يبحث بعد هذا عن عملية ابعد مستقلة عن الفكر » .

ومرة اخرى يقول انجلز ان الايديولوجية ـ صياغة الاوهام الايديولوجية ـ هي :

« الانشغال بالافكار وكانها كيانات مستقلة ، تتطور في استقلال ولا تخضع الا لقوانينها هي . وتظل حقيقة ان ظروف الحياة المادية للشخص الذي تجري في راسه هذه العملية الفكرية هي التي تحدد ـ في التحليل الاخير ـ مجرى هذه العملية مجهولة بالضرورة لهؤلاء الاشخاص ، والا لكانت هذه نهاية الايديولوجية »(٢) .

المسخ الايديولوجي :

٤ ـ والسمة الرابعة للأوهام الايديولوجية هي ان عملية مسخ تجري فيها ، تصور العلاقات الاجتماعية الواقعية خلالها

ـ تستخدم اكثر بمعنى اوسع بحيث يستطيع المرء ان يتحدث مثلا عن « الايديولوجية الاشتراكية العلمية » ، ويصف الماركسية بانها هذه الايديولوجية . وقد استخدمت الكلمة طيلة هذا الكتاب بالمعنى الاوسع ، بحيث تستخدم كلمة « الايديولوجية » للدلالة على النظرة او النظرية المميزة لفترة او طبقة ، ويمكن أن تدخل فيها عناصر وهمية وعناصر صادقة او علمية ، وتصبح مع ظهور حركة الطبقة العاملة والاشتراكية علمية بالدرجة الاولى ، وتتخلص من أساليب التفكير الوهمية للايديولوجيات السابقة .

(٢) ف. انجلز « لودفيغ فيورباخ » ـ الفصل الرابع .

كتجسيد للأفكـــار المجردة .

ففي عملية الوهم الايديولوجي تعـــامل منتجات الفكر المجرد وكأنها مستقلة عن العلاقـــات الاجتماعية المادية التي تعكسها في واقع الامر . ومن هنا ينتج ان الواقع يقلب رأســـا على عقب في هـــذه العملية ، ويعتبر الذهن وليس الواقع المـــادي للعلاقـــات الاجتماعية مصدر الافكـــار المجردة . وهكذا يتصور أن تجريدات الذهن هي الاســـاس النهائي لوجود هذه العلاقات ذاتها .

وطبقا لهذه الطريقة المسوخة في النظر الى الاشياء يخلق الناس علاقاتهم الاجتماعية وفقا لافكارهم المجردة وليس العكس .

فلنأخـــذ مثلا التصورات المجردة عن الحق والعدالة ، التي تشكل جزءا هاما في كل ايديولوجية . ان الحق والعدالة المجردين يصوران في استقلال عن العلاقـــات الاجتماعية الفعلية ، وتصور هذه العلاقـــات وكأنها تعكس وتجسد ـ ربما بطريقة غير كـــاملة ـ حقا وعدالة مجردين . وطبقا لهذه الطريقة المقلوبة في النظر الى الاشياء تبدو فكرتي الحق والعدالة المجردتين وكأنهما تحـــددان علاقـــات الناس الواقعية ، في حين ان الواقع هو ان علاقات الناس الواقعية هي التي تحـــدد افكارهم عن الحق والعدالة . وبالمثل يبدو النظام الاجتماعي مبررا بمـــدى تجاوبه مع الافكار المجردة عن الحق والعـــدالة ، في حـــين ان الواقع هو أن افكـــار الحق والعدالة انما تجـــد تبريرها في مدى خدمتها للتقدم الاجتمـــاعي المـــادي .

يقول انجلز :

« فالانعكاســـات الاقتصادية والســـياسية وغيرها اشبه مـــا تكون بالانعكاسات في العين الانسانية . انها تمر خلال عدسة مكثفة ، وبذلك تظهر مقلوبة ، تقف على رؤوسها . غير ان الجهاز العصبي الذي يمكن أن يوقفها على اقـــدامها ثانية ليس موجودا ... وهذا المسخ ... يشكل مـــا نـــميه

بالتصور الايديولوجي »(٣) .

ثم يقول ماركس وانجلز :

« واذا كان الناس وظروفهم يبدون في كل ايديولوجية مقلوبين وكانهم في صندوق آلة التصوير فان هذه الظاهرة تنشأ عن عملية حياتهم التاريخية ، تماما كما ينشأ انقلاب الموضوعات على الشبكية عن عملية حياتهم الفيزيائية »(٤) .

وينتج عن هذا المسخ الايديولوجي ان الناس في كل عصر يتقاسمون وهم ان مؤسساتهم ونشاطهم العام تعبير عن افكارهم المجردة (عن دينهم وفلسفتهم ومبادئهم السياسية وما الى ذلك). وهكذا كان ملاك العبيد في روما القديمة يعتقدون ان المبادىء الجمهورية هي التي تحركهم تماما كما يعتقد الراسماليون الحديثون (ويحاولون ان يدفعوا الآخرين الى الاعتقاد) بان المبادىء الديمقراطية هي التي تحركهم . لقد شنت حروب العصور الوسطى في الظاهر المعلن من اجل مبادىء دينية ، تماما كما تشن حروب اليوم في الظاهر المعلن من اجل مبادىء وطنية او سياسية .

ويقول ماركس انه وفقا لهذه الطريقة في التفكير :

« كان لكل مبدأ قرنه الذي يتجلى فيه ، فكان لمبدأ السلطة مثلا القرن الحادي عشر ، كما كان لمبدأ الفردية القرن الثاني عشر ... كان القرن هو الذي ينتمي للمبدأ وليس المبدأ هو الذي ينتمي للقرن . وبعبارة اخرى كان المبدأ هو الذي صنع التاريخ وليس التاريخ هو الذي صنع المبدأ »(٥) .

واذن فكل عصر ينتج اوهامه المميزة التي تجد تعبيرا عنها

---

(٣) ف. انجلز ـ رسالة الى س. شميدت في ٢٧ اكتوبر ١٨٩٠

(٤) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » ـ الجزء الاول ـ الفصل الاول .

(٥) ك. ماركس « بؤس الفلسفة » ـ الفصل الثاني ـ القسم الأول ـ الملاحظة الخامسة .

في ايديولوجيته السائدة (اوهامه عن الاسس والدوافع الواقعية لمؤسساته واوجه نشاطه) .

يقول ماركس وانجلز :

« وعلى سبيل المثال .. يتصور عصر ما ان ما يحركه دوافع سياسية او دينية خالصة ، رغم ان الدين والسياسة ليسا سوى شكلين لدوافعه الحقة » وهذا هو ما يشكل « وهم هذا العصر » . وفي هذا الوهم « تتحول فكرة ، تصور ، هؤلاء الناس المحكومين عن الممارسة الواقعية الى القوة الايجابية المحددة الوحيدة التي تحكم ممارستهم وتحددها »(٦) .

وتصور منتجات الذهن ـ في الوهم الايديولوجي ـ باعتبارها النفوذ السائد الدافع للشؤون الانسانية . وهكذا يحدث ان يضفى على منتجات الذهن هذه ـ وهي لا تعدو ان تكون خيالات مشوهة لظروف الوجود الواقعية ـ وجود واقعي مستقل في خيالات الناس . وبهذه الطريقة يخلق ما اسماه ماركس :

« المناطق التي يغلفها الضباب للعالم الديني ، وفي هذا العالم تبدو منتجات الذهن الانساني ككائنات مستقلة تضفي عليها الحياة ، وتدخل في علاقات مع بعضها البعض ومع الجنس الانساني »(٧) .

وهكذا ففي حين يتصور الناس ان كل حياتهم ومؤسساتهم الاجتماعية تقوم على ايديولوجيتهم وتحركها هذه الايديولوجية،فان هذه الايدبولوجية في الوقت نفسه تستحضر عالما خياليا من القوى اسمى من الانسان والطبيعة ومستقلا عنهما ، يشعر الناس بانهم خاضعون له ، ويبدو ان مصائرهم تعتمد عليه ، ويسعون الى الحصول على عونه في القيام بمشروعاتهم .

---

(٦) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » ـ الجزء الاول ـ الفصل الاول .

(٧) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الاول ـ القسم ٤ .

ف « العالم الديني » ـ كما قال ماركس في « راس المال » ـ ليس سوى « انعكاس العالم الواقعي »(٨) .

ففي اكثر التنظيمات الاجتماعية بدائية يكون الناس عاجزين نسبيا في وجه القوى الطبيعية ، انهم يتجمعون معا للحصول على عيشهم ، وبغير هذا التلاحم والتعاون الاجتماعي الاولي سيحل بهم الدمار . وتنعكس هذه الحقيقة في اذهانهم في اوهام السحر ، اذ يبدو الناس وكانهم يمتلكون قوة وفضيلة خاصتين كافراد في قبيلتهم او عشيرتهم ، وتتخذ هذه الفضيلة ـ في خيالهم ـ شكل قوة سحرية خاصة ، وتبتدع كل الوان الاجراءات لممارستها ، وفيما بعد ، ومع انقسام العمل ، تعتبر في صورة افراد معينين ومن شأنهم وحدهم وليس من شأن كل الناس . وفي الوقت نفسه يفترض ان للموضوعات الطبيعية والقوى الطبيعية حياتها ، ثم تشخص فيما بعد ، بحيث يصور كل اتصال للانسان بالانسان ، وللانسان بالطبيعة ، وكانه يعتمد على نشاط قوى غامضة غير مرئية .

ولقد سار تطور الافكار الدينية وتشعبها جنبا الى جنب مع تطور حياة الناس الاجتماعية وعكس هذا التطور .

يقول انجلز :

« ان الافكار الدينية البدائية ـ وهي في الاساس مشتركة لدى كل مجموعة من الشعوب ذات الاصل الواحد ـ تتطور بعد انفصال المجموعة بطريقة خاصة بكل شعب ، طبقا لظروف المعيشة التي تكون من نصيبه »(٩) .

وكما هو الشأن في كل ايديولوجية فان الدين لا يخلق من جديد في كل مرحلة جديدة من مراحل التطور الاجتماعي ، بالعكس ان كل ايديولوجية في تطورها تستخدم موادا تقليدية توخذ عن الايديولوجية السابقة ، وتجسد في ذاتها موادا مستعارة من

(٨) ف. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الاول ـ القسم ٤ .
(٩) ف. انجلز « لودفيغ فيورباخ » ـ الفصل الرابع .

الايديولوجيات الاخرى . ونفس الشيء في الدين ، وهكذا مثلا لا زلنا نستطيع ان نتعرف ـ حتى في المذاهب والممارسات الدينية للمسيحية البروتستانتية اليوم ـ على عناصر اخذت عن السحر القبلي البدائي ، وان كانت قد حولت وحملت بمعاني جديدة .

ويستطرد انجلز قائلا :

« والدين حالما يتشكل يحوي دائما مادة تقليدية . وكما في كل المجالات الايديولوجية فان التقاليد قوة محافظة كبيرة . لكن التحولات التي تمر بها هذه المادة تنبعث من العلاقات الطبقية ، اي من العلاقات الاقتصادية للأشخاص الذين ينفذون هذه التحولات »(١٠) .

وهذه الخاصية من خواص كل وهم ايديولوجي ـ انه باستمرار يطور الافكار من مادة افكار اخرى بحكم انه انشغال بالافكار كذاتيات مستقلة ـ تستر عمليا حقيقة ان كل ايديولوجية، كل عنصر من عناصر الايديولوجية ، ليس سوى انعكاس للوجود الاجتماعي المادي ، وتجعلها تبدو وكانها حقا ما تدّعيه ... مسيرة مستقلة للأفكار .

ان طبيعة الايديولوجية لا تبدو ابدا واضحة على السطح ، وانما تظهر الى الضوء فقط نتيجة لاكتشاف ماركس العلمي العميق ان

« اسلوب انتاج ظروف الحياة المادية يحكم عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية عموما »(١١) .

وطالما ان الناس ليسوا سادة تنظيمهم الاجتماعي ، تظل علاقاتهم الاجتماعية الواقعية تنعكس في مسوخ ايديولوجية لا تجعل علاقاتهم الاجتماعية الواقعية مفهومة وانما تعميها وتخفي طبيعتها الواقعية ، جنبا الى جنب مع الدوافع والقوانين الواقعية للنشاط الاجتماعي الانساني ، خلف ستار من الاوهام الدينية والسياسية والقانونية والفنية والفلسفية .

---

(١٠) المصدر السابق .

(١١) ك. ماركس « نقد الاقتصاد السياسي » ـ المقدمة .

الايديولوجية والمصلحة الطبقية :

٥ ـ والسمة الخامسة للأوهام الايديولوجية هي انها تشكل ـ في المجتمع المنقسم الى طبقات ـ نسقاً من الخداع له دوافع طبقية واسلوبا لستر العلاقات الاجتماعية الواقعية لمصلحة معينة .

فالاوهام تعكس دائما العلاقات الاجتماعية الواقعية بطريقة تضفي عليها قناعا .

وعلى سبيل المثال كانت الايديولوجية الدينية في العصور الوسطى ـ بتصورها للهرم السماوي الذي يعكس النظام الاقطاعي ـ تعني ستر استغلال السيد للقن في شكل تبعية القن لسادته الطبيعيين بحكم الرب . وبالمثل كانت الحقيقة العارية لتملك السيد الاقطاعي لناتج عمل القن تتخفى في الافكار الاقطاعية المجردة عن الملكية والواجبات والحقوق والالتزامات .

كذلك تتخفى الحقيقة العارية لتملك الراسمالي للقيم التي ينتجها عمل العامل غير المدفوع في الافكار الراسمالية عن الملكية والتعاقد والمساواة في الحقوق . ويستكمل هذا القناع بالاشكال الراسمالية للدين . وهذا هو السبب في ان الايديولوجية البرجوازية ـ رغم انها كثيرا ما اتخذت اشكالا غير دينية او معادية للدين ـ تترك دائما ثغرة للدين ، وتعود اليه باستمرار ، وفي اوقات الازمات ، حين يتعرض النظام لخطر جدي تدفع الايديولوجيات الدينية دائما الى المقدمة ، وتتخذ موقع الهجوم .

يقول ماركس :

« وبالنسبة لمجتمع يقوم على الانتاج السلعي ، ويدخل فيه المنتجون عموما في علاقات اجتماعية ببعضهم البعض ، بمعاملة منتجاتهم كسلع وقيم ، وبذا يختزلون عملهم الفردي الخاص الى مستوى العمل الانساني المتجانس ـ بالنسبة لهذا المجتمع فان المسيحية بعبادتها للانسان المجرد ، وبشكل خاص في تطويراتها البرجوازية ، البروتستانتية ،

والربوبية ، الخ .. هي اكثر اشكـــال الدين ملاءمة »(١٢) .

ان كل الايديولوجية البرجوازية ، من دينها حتى اقتصادها الـــياسي ، تـــتر حقيقة الاستغلال الراسمالي .

وللأقنمة والخداع الكامن في كل وهم ايديولوجي دائما دافع اجتماعي ، وبعبارة اخرى فانـــه يخـــدم غايات اجتماعية محددة ومصالح اجتماعية محددة .

وفي المجتمعات البدائية قبل مولـــد الطبقات كان يخدم دعم وتعزيز روابط التضامن بين افراد القبيلة التي يعتمد عليها بقاؤهم. وفي ظروف كان الناس فيها يكـــادون يجهلون كلية القوى الطبيعية التي تحيط بهم كانت الافكـــار الـــحرية تجعلهم مع هذا يشعرون بـــانهم يـــتطيعون التحكـــم في هـــذه القوى ، وهكذا فـــان دافع الايديولوجية البدائية هو المحافظة على الذات لدى القبيلة باسرها، هو مصلحة الناس جميعا في الحفـــاظ على تنظيمهم الاجتمـــاعي ، والاحـــاس بالقوة والامـــان فيه .

وحين ينقـــسم المجتمع الى طبقات متناحرة ، وبالتالي حين يصبح التاريخ هو تاريخ المعارك الطبقية ، فـــان المصلحة الطبقية تصـــبح الدافع الرئيسي للايديولوجية ، وتصبح كل ايديولوجية ايديولوجية طبقة ، تعبّر ـ وان يكن بطريقة مختلفة ـ عن ظروف وجود طبقة محددة ، وتخـــدم هذه الطبقة في صراعها ضد الطبقات الاخرى . والايديولوجية الـــائدة في اي فترة ، هي ايديـــولوجية الطبقة الحاكمة . وحين تواجه هذه الايديولوجية تحديـــاً فليس ذلـــك الا تعبيرا عـــن ان الوضع القائم للعلاقـــات الطبقية يواجه تحـــدي طبقة اخرى .

غير اننا لا ينبغي ان نفهم اقنمة الايديولوجية الطبقية وخداعها ـ وان كان دافعها هو المصلحة الطبقية ـ على انهـــا بالدرجة الاولى خـــداع متعمد واع .

فافتراض ان الممثلين الفكريين لطبقة ما يبتدعون عمدا افكارا مضللة بغـــاية واعية هي ان يـــتروا عن الناس مـــا يعرفون انـــه

(١٢) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الاول ـ القسم ٤ .

الطابع الواقعي للعلاقات الاجتماعية يعني افتراض ان هؤلاء المفكرين يعرفون بالفعل الطابع الواقعي للعلاقات الاجتماعية . لكن جوهر الوهم الايديولوجي ذاته هو انه وعي زائف بالعلاقات الاجتماعية ، ان التصور الايديولوجي المعمى لهذه العلاقات يأخذ مكان التصور العلمي الصحيح . وينشأ هذا الوعي الزائف ـ كما راينا ـ لا عن عملية عمدية وانما بالاحرى عن عملية عفوية غير واعية ، انه ليس زيفاً متعمدا وانما وهم ، واذا كان خداعا فانه ايضا خداع للذات .

ومن هنا فان اولئك الذين يفسرون الاوهام الايديولوجية كمجرد خداع متعمد يخطئون طبيعة ما اسماه ماركس وانجلز « الوعي الزائف » . لانهم يفترضون ان الطبقة التي تخدم الايديولوجية مصلحتها تملك في الواقع وعيا صادقا باساس وجودها ـ وهو ما لا تملكه ، ولا تستطيع ان تملكه ، اي طبقة مستغِلة . وتفسير الايديولوجيات كنتاج لخطط مرسومة لخداع الشعب لمصلحة طبقة ما ، ابتذال احمق للماركسية . فليست هذه هي الطريقة التي تنشأ بها الايديولوجيات .

وبالطبع ينغمس الناطقون باسم الطبقات الحاكمة وايديولوجيوها على الدوام في خداع واعٍ مقصود للشعب ، ولكن خلف نسق الخداع المقصود يكمن دائما نسق خداع الذات .

ولناخذ افلاطون كمثال ، وقد كان ممثلا للرجعية الايديولوجية المتطرفة في اليونان القديمة . لقد دعا في « جمهوريته » ـ من اجل اخضاع الشعب ـ الى ان يروج الحكام ما اسماه « اكذوبة سامية » : فعليهم ان يعلنوا ـ رغم انهم يعرفون تماما عدم صحة ذلك ـ ان الحكام والمحكومين اناس من نوعين مختلفين ، ان الحكام اناس « من ذهب » وبقية الناس « من نحاس او حديد » . وفي الوقت نفسه اكد افلاطون ان الارستقراطية هي افضل نظم المجتمع ، وان اي ابتعاد عنها يعني الفوضى والتدهور . الا انه كان يؤمن بذلك بلا شك ، لقد كان هذا احد اوهام طبقته ، وكان يشكل اساس نظرته . ومن وجهة نظر ايديولوجية ارستقراطية ملاك العبيد ـ التي كان افلاطون

يعرضها والتي قـــام بالكثير لتشكيلها ـ كان من المسموح به تماما ان تكـــذب على الشعب ، وكانت مثل هذه الاكاذيب « اكاذيب ســـامية » .

وكان هذا موقف كل ايديولوجيات الطبقات الحـــاكمة . ان الوعي الزائف الحقيقي ينغمس في خداع مقصود ، بحيث يتشابك الاثنان تشابكا وثيقا حتى لا يمكن التمييز بينهما في بعض الاحيان . وهذا بشكل خـــاص هو الوضع في المجتمع الراسمالي الذي تباع فيه كل الاشياء وتشترى ، بما فيها الافكـــار . ومن لديهم افكـــار يبيعونها يصلون الى اعتبارها سلعة يمكن مبادلتها بالنقود ، وليس حقائق ينبغي الايمان بها .

وقـــد عرف الطابع الطبقي للايديولوجيات الخاصة منذ أمد طويل . فحين تبدأ طبقة جديدة في الصعود الى الحكم ، وبالتالي تطرح ايديولوجية جديدة ضد ايديولوجية الطبقة الحاكمة فـــانها عـــادة تدرك ان الايديولوجية القديمة تعبّر عن مصـــالح خصومها السياسيين ، ومن هنا فانها تهـــاجم هذه الايديولوجية كنسق من التزييفات تحركه المصلحة الطبقية ، وتطرح ايديولوجيتها مـــن الناحية الاخرى كنســـق من الحقائق يتمشى مع الاحتياجات الاعمق للمجتمع .

يقول ماركـــس وانجلز :

« كل طبقة جديدة تضـــع نفســـها مكان الطبقة التي تحكم قبلها مجبرة ـ لمجرد تحقيق اهدافها ـ الى تصوير مصلحتها كمصلحة مشتركة لكل افراد المجتمع ، موضوعة في شكل افكـــار ، وستضفي على افكارها شكلا كليا ، وتصورهـــا باعتبارها الافكـــار الوحيدة العقلانية الصحيحة كليا . ولا تبدو الطبقة التي تقوم بالثورة منذ البداية الاولى ـ ولمجرد انهـــا تعـــارض **طبقة** ـ كطبقة وانمـــا كممثـــل للمجتمـــع بأسره »(١٣) .

---

(١٣) ك. ماركس و ف. انجلز « الايديولوجية الالمانية » ـ الجزء الاول ـ الفصل الاول .

ومن هنا فـان الايديولوجية المتشكلة حـديثا تبدا عمومـا باندفـاعة عميقة للتطور ، كنسق كلي من الافكار يفتح آفـاقا جديدة ، ويتمشى مع احتياجات اجتماعية عميقة ، وكأنها لا تقوم على مصالح طبقة مـا وانما على اماني الشعب باسره . الا انه في مجرى الزمن ، واذ تتخبط الطبقة الحاكمة والمستغِلة الجديدة في تناقضاتها ، فـان ايديولوجيتها تفقد حميتها الثورية ، وتصبح محافظة ، وتبدا في الافول والتحلل ، حتى تقف في النهاية مكشوفة بدورهـا كنسق من الخـدع تدفعه المصلحة الطبقية ، ويتدهور دعاتها من مفكرين اصيلين الى دعـاة ماجورين للطبقة الحاكمة .

الفصـــل الثـــامن

العلـــم

افكـــار عملية الانتاج :

الى جانب تطور انعكاس علاقـــات الانتاج الوهمي المقلوب في الوعي يمضي تطور افكـــار الناس الحقيقية عن الموضـوعات المـــادية التي تحيط بهم ، والتي ينشغلون بها في عملية الانتاج ، وعن عملية الانتاج ذاتها ، واوجه نشاطهم وعلاقـــاتهم الاجتماعية .

ذلـــك ان تطور الانتاج ، والاتصـال الاجتماعي الذي ينشـا عن الانتاج ، يتطلب ويولـــد صياغة افكـــار حقيقية عـــن الاشياء ، وصلاتهـــا المتداخلة وحركاتها ، وعـــن مختلف الـــوان النشاط والعلاقـــات الانـــانية . فما لـــم يطور الناس مثل هذه الافكـــار الحقيقية فانهم لا يستطيعون ان ينجحوا في القيام بالانتاج ، او تدبير شؤونهم الاجتماعية ، وكلما تنوعت قوى انتاجهم وازدادت قوة ، وتنوعت اوجه نشاطهم الاجتماعي وازدادت تركيبا ، زاد احتياجهم الى اكتشـاف الطبيعة واكتشـاف انفسهم حتى يصلوا بمختلف مشروعاتهم الى نتيجة ناجحة .

ففي عملية الانتاج ـ كما اوضح ماركس وانجلز ـ « يستطيع الوعي حقا ان يطري ذاته باعتباره شيئا آخر غير وعي الممـــارسة القائمة » . ولكن في الوقت نفســـه واذ يجرد الوعي نفســـه بهـــذه

الطريقة عن الممارسة القائمة فان وعي الممارسة القائمة يتطور ايضا مع تطور الممارسة . فذات تطور الانتاج وتقسيم العمل وعلاقات الانتاج ، الذي ادى الى تحليقات موهومة للايديولوجية الممسوخة ، يؤدي كذلك الى نمو افكار الناس الحقيقية عن ظروف حياتهم الواقعية .

ولا تنشأ مثل هذه الافكار الحقيقية بذاتها ، فلا بد أن تشكل بجهد ، وان تصاغ وتختبر في الممارسة . وهي تمثل قدرا كبيرا من **الاكتشافات** التي يقوم بها الناس في مجرى ممارستهم الاجتماعية .

والمصدر الاول لاكتشافات الناس هو ممارسة الانتاج الاجتماعي .

ولقد راينا من قبل ان من خصائص عملية الانتاج الاجتماعية ان لدى الناس فكرة عما يستهدفون انتاجه ، فليس هناك ولا يمكن ان يكون هناك انتاج ـ بالمعنى الانساني ـ حتى اكثر انواع جمع الطعام والصيد بدائية دون هذا الوعي . وهكذا فان الناس وهم ينتجون يشكلون ايضا افكارهم عن الموضوعات التي يرتبطون بها ، وعن المواد التي يستعملونها ، والتقنيات التي يستخدمونها ، ويكتشفون جديدا عن خواص هذه الموضوعات والمواد ، وعما يمكن ان يصنع بها .

يقول ماركس :

« والعوامل الاولية لعملية العمل هي : (١) نشاط الانسان الشخصي اي العمل ذاته ، (٢) موضوع العمل ، (٣) ادوات العمل »(١) .

ولا يمكن تحريك اي من هذه العوامل دون افكار واكتشافات تتمشى معه . ومع تطور الانتاج وتقسيم العمل تصبح اشكال العمل اكثر تنوعا ، وتتسع موضوعاته ، وتتحسن ادواته . ويعني هذا ان افكار الناس تتسع بالمثل ، وانهم يصلون الى اكتشافات

(١) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل السابع ـ قسم ١ .

جديدة .

فالانسان البدائي على سبيل المثال ـ وهو الذي كـان يعبّر عن علاقـاته الاجتماعية وعلاقاته بالطبيعة في ايديولوجية السحر ـ كانت لديه بالفعل افكار محددة دقيقة عن مختلف انواع الحيوانات التي يصيدها ، ومختلف عاداتها وصفاتها ـ كما تبين لنا تسجيلاته لمعرفته في رسوم الكهوف مثلا . ومع تطور الزراعة والحرف تمت اكتشافات جديدة ، واتسعت كثيرا افكـار الناس عن الموضوعات الطبيعية وخواصها ، وعن المبادىء المتضمنة في مختلف عمليـات الانتـاج . واليوم في المجتمع الراسـمالي الحديث نجـد نفس المؤسسات والجـامعات التي تبتدع الاوهـام الدينية والسياسية والفلسفية البرجوازية بكل الطرق هي مستودعـات لرصيد واسع متزايد من المعرفة الدقيقة المنظمة عن الطبيعة ، والمبـادىء التي يدفع الانسان بتطبيقها سيطرتـه على الطبيعة . وهذا كله ثمرة آلاف السنين من الجهد الانساني ، وبوجه خاص مـا تحقق في العصر الراسمالي من تقدم جبار في الانتاج .

وهكذا ، فاذا كان المصدر النهائي لأوهام الناس هو علاقات الانتاج ، فان الناس ايضا يقومون باستمرار باكتشافات تنشأ ـ في التحليل الاخير ـ عن عملية الانتاج ذاتها . وفي هذه الاكتشافات تطوير للأفكار المجردة التي تعكس مختلف سمات وخواص الاشياء وعملية الانتـاج دون تصورات مسبقة ايديولـوجية أو مسخ او قناع .

والـواقع ان مثل هـذه الافكـار عـن الطبيعة والعمليات التكنولوجية تمثل جانبا هاما من القوى الانتاجية ذاتها . فقوى الانتاج تشمل الناس بخبرتهم ومهارتهم الانتاجية . وتسجل خبرة الناس ومهـارتهم الانتـاجية وتعمم وتنظم في افكـارهم ، وهم ـ مزودين بهذه الافكار ـ يستخدمون ادوات الانتاج ويحسنونها ايضا . واكثر من هذا فـان نمو المعرفة بعملية الانتاج وموضوعاتها وادواتها ، وبمبادىء التكنولوجيا والطبيعة عمومـا ، ليس فحسب شرطا اسـاسيا لاستمرار الانتاج عند مستوى معين ، بل انـه يسهم ـ في الظروف المواتية ـ في تحقيق تقـدم جديد للانتاج ،

ومن هنا يمكن ان يصبح احـد العوامل التي تجعل من الضروري في النهاية اجراء تغييرات ثورية في علاقـات الانتاج حتى تتمشى مع قوى الانتاج الجديدة .

نشأة العلوم الطبيعية :

تنشأ العلوم الطبيعية عن الافكار ـ او المعرفة ـ المتراكمة في عملية الانتاج .

يقول انجلز :

« ومنذ البداية الاولى كان الانتاج هو الذي حدد منشأ وتطور العلوم »(٢) .

ولاحظ انجلـز ان البحث العلمي بمعنـاه الدقيق ظل طيلة العصور القديمة قـاصرا على الفلك والرياضيات والميكانيكا لأن « الفلك ... ولو بسبب المواسم كان امرا لا غنى عنه لشعوب الرعي والزراعـة . ولا يمكن ان يتطور الفلك الا بمعونـة الرياضيات ، ومن هنا كان لا بد من معـالجة هذه بدورها . وفيما بعد ـ في مرحلة معينة من مراحل الزراعة وفي مناطق معينة (رفع المياه للري في مصر) وبخاصة مع نشأة المـدن وعمليات البناء الكبيرة وتطور الحرف ـ الميكانيكا . وسرعان مـا ظهر الاحتياج لها ايضا في الملاحة والحرب ، وفضلا عن هذا فانها تحتاج الى عون الرياضيات وبذا تشجع تطور هذه الاخيرة »(٣) .

وفيما بعـد ، ومع التطورات الجديدة الكبيرة لقوى الانتاج التي ادت الى النظام الراسمالي ثم جرت داخله ، ظهرت العلـوم الجديدة واحدا وراء الآخر ـ الفيزيـاء والكيمياء وعلوم الحياة والجيولوجيا .

---

(٢) ف. انجلز « جدليات الطبيعة » .

(٣) المصدر السابق .

« واذا ... كانت العلوم قـد انبعثت فجاة من جديد بقوة لـم يكن احد يحلم بها ، وتطورت بـسرعة مذهلة فـاننا ندين بهذه المعجزة بدورها الـى الانتاج »(٤) .

واذا كان الانتاج هو الذي يحـدد تطور العلوم فـانه ايضا المسؤول عن المعدل غير المتوازي في تاريخ تطور العلوم ، وعن طابع هذا التطور الذي كثيرا مـا يكون ذا جانب واحـد . والمسؤول عن ذلك هو تنوع طابع الانتاج ، وتنوع التركيز على مختلف عمليـات الانتاج . وهكذا لـم تتطور الكيمياء كثيرا حتى العصور الحديثة رغم أن الميكانيكا وبعض اجزاء علوم الحياة تطورت كثيرا . كما ان العلوم الزراعية تهمل نـسبيا في ظل الراسمالية الاحتكارية الحديثة في حين تدفع بنشاط كل العلوم المرتبطة بالانتاج الحربي .

العلوم كمهام متخصصة متميزة عن الانتاج :

العلوم هي في الاسـاس مهـام متخصصـة ، لها تقنياتهـا ونظرياتها المتخصصة . وتنشا العلوم حين يبدا ـ نتيجة لتقسيم العمل ـ بحث خـاص في خواص مختلف الموضوعـات الطبيعية والعمليات الطبيعية ، متميز عن الانتاج ذاته ، وحين يتم ـ نتيجة لذلـك ـ احكام خاص ، تعميم وتنظيم للأفكـار المتصلة بهـذا البحث .

وفي ظل مثل هذه الظروف فحسب يمكن ان نتحـدث عن العلوم . ومن هنا فـاننا لا نكاد نـستطيع ان نضفي اسم « العلم » على المعرفة التي تملكها القبائل البدائية ـ على اتساعها ودقتها ـ بمختلف الحيوانـات والنباتات ، او بخواص مختلف المواد ، او بتتابع الفصول . فمثل هذه المعرفة لا ترتفع الى مستوى العلم الا حين تصبح هذه الامور موضوع بحث متميز عن الانتاج الفعلي ـ وفي المقـام الاول عن الصيد وصنع الادوات والفلاحة وما اليها ،

---

(٤) المصدر السابق .

وحين يجزي بالتالي تعميم مـا اكتشف عنها وتنظيمه ككيان خاص من المعرفة .

ونستطيع ان نميز ثلاث خصائص بارزة للعلم ، تميز النظرية العلمية بالتدريج عن المعرفة بالموضوعات والعمليات الطبيعية الكامنة فـي عملية الانتاج ذاتهـا ، والتي تكـوّن وعي المنتجـين بعملهم وموضوعـاته وادواته .

١ ـ إنّ العلم ينغمس فـي **الوصف والتصنيف المنظمين** للموضوعـات والعمليات الطبيعية . فهكذا مثلا كان شـأن رسم خرائط الأجرام السماوية وحركتها الظاهرة الذي قـام به رواد علم الفلك كالمصريين القدمـاء ، او « التواريـخ الطبيعية » التي وضعها الدارسون الاوائل للطبيعة الحية مثل ارسطو التي تضم اعماله في علم الحيوان وصفاً وتصنيفا منظمين لأغلب الحيوانـات المعروفة (فضلا عن بعض الحيوانـات المتخيلة) مع محاولة صياغة قوانين تربط مختلف صفات الحيوانات المختلفة .

٢ ـ واستنادا الى مثل هذا الوصف والتصنيف للموضوعات الطبيعية وحركاتها تنطلق العلوم لكي تصوغ ـ بالتجريد ـ **المبادىء والقوانين** التي تتجلى في الخواص والحركات الملحوظة للموضوعات الطبيعية وتحكمها . وعن طريق مثل هذا التجريد تستنبط مثلا مفهومات مثل الكتلة والزخم ، الخ .. في الميكانيكا ، او مفهومات العدد والشكل الهندسي في الرياضيات .

٣ ـ وباستخدام مثل هذه المفهومات ينطلق العلم بصياغة **الفروض** . وتسعى مثل هذه الفروض الى **شرح** الخواص والصلات والحركات الملحوظة للأشياء موضع البحث ، ومن ثم الى **التنبؤ** بمزيـد من خواصها وصلاتها وحركاتها . انهـا تسعى الى توفير نظرية منظمة منهجية عن الظواهر ، والى تمكين الناس من فهمها واستخدامها .

وبالتالي فرغم ان للعلم جذوره في الانتاج ، وانه يطبق في الانتاج ، فـانه في الوقت نفسـه يتطور كنشاط متخصص متميز عن الانتاج .

وينتج عـن ذلـك ان اولئك الذيـن يطورونه كثيرا مـا لا

يدركون ـ بل قـد ينكرون ـ صلته بالانتاج ؛ فهم مـن حيث وعيهم بنشاطهم قـد يقومون بابحاثهم نتيجة حب الاستطلاع ، او من اجل المعرفة فحسب ، او عن حب للبشرية ورغبة في تنويـر الناس ، او لانهم يستمتعون بذلك ، او لانهم يتقاضون اجراً عنه ، او لانهم يريدون الشهرة ، او لانهم يريدون افحام خصومهم باثبات خطئهم . ان كثيرا من الدوافع الذاتية المختلفة قـد تحرك العمل العلمي ، وبالطبع فـان هذه الدوافع قد تؤثر ـ بل تؤثر بالفعل ـ على طابع العمل وحصيلته .

وفضلا عن هذا فحالما يوضع العلم في اثر اكتشافات معينة فـان هذه الاكتشافات كثيرا مـا تقود بذاتها الى غيرها . وتسير عملية متابعة الاستنتاجـات وتعميم الافكـار الناتجة وتنظيمهـا بمنطقها الخاص ، المستقل عن المشكلات العملية الخاصة المرتبطة بالانتاج .

ولهذا السبب كثيرا مـا تتضح مشكـلات علمية هامة قبل الاحتياجات العملية ، بل كثيرا مـا يحدث ذلـك قبل ان يصبح تطبيقها العملي ممكنا بوقت طويل . وعلى سبيل المثال تم التوصل الى استنتاجـات علمية عن وجود الموجـات الكهرومغنطيسية قبل اي تطبيق عملي لها في تقنيات اللاسلكي ، واكتشف الانقسام الذري قبل سنوات من محاولة اي تطبيق عملي لاطلاق الطاقة الذرية . وهكذا يميل التقدم العلمي الى اكتساب زخم خاص به مستقل عن التطبيق العملي . واكثر من هذا فكثيرا مـا يعطل هذا التطبيق ـ حتى حين يصبح ممكنا مـن الناحية التقنية ـ نتيجة ظروف سياسية واقتصادية .

وهكذا فـان العلوم ـ كنظرية للانتاج ـ متميزة منذ البداية عن ممارسة الانتاج ، في كل مـن تنظيمها وفي النشاط الشخصي للقائمين بها ووعيهم . وفي الوقت نفسه فان طابع العلوم ومستواها يتوقفان دائما على طابع الانتاج ومستواه ، وتنشأ مشكلاتها ـ في التحليل الاخير ـ عن الانتاج ، وتعود نتائجها ثانية الى الانتاج .

ويعتمد تطور العلوم دائما على تطور الانتاج ، وهو بدوره يغذي الانتاج ويدفعه الى الأمام . فتميز العلم عن الانتاج ليس انفصالا عنه بل هو صلة وثيقة . واذا حدث وقطعت هذه الصلة الكامنة فان العلوم ذاتها تبدأ دائما في الركود ثم التدهور . وبشكل عام فان الاوقات التي يجد فيها العلم دفعة جديدة هي الاوقات التي يجري فيها تطوير تقنيات جديدة للانتاج . وعادة ما يكون رواد الطرق الجديدة امام العلم حينئذ مرتبطين ارتباطا وثيقا في مصالحهم العملية بالعمليات الانتاجية الجديدة . ثم تتبع ذلك عملية انضاج وتطوير علمي للأفكار والاكتشافات الجديدة . لكن هذه العملية لا يمكن أن تستمر طويلا اذا عجزت عن الوصول الى التطبيق التقني ، وافتقرت الى حافز المشكلات الناجمة عن هذا التطبيق .

العلم والطبقات :

ان ما قلناه يبين أن العلوم نتاج لتقسيم العمل ، فالعلوم تتطور كنتاج العمل الذهني المتميز عن العمل اليدوي ـ كمجال خاص للنشاط النظري منفصل عن العمل في الانتاج . وينتج عن ذلك ان تطور العلوم يرتبط ارتباطا وثيقا بتطور الطبقات ، ففي مختلف الاوقات اسهمت مختلف الطبقات في تطور العلوم ، واثرت ـ بالتالي ـ على هذا التطور كي يلائم احتياجاتها الطبقية، وفرضت على العلوم سمات معينة من ايديولوجيتها الطبقية .

وعن تقسيم العمل نشأت الملكية الخاصة والطبقات المستغِلة ، وكذلك التقسيم بين كتلة المنتجين ، المنغمسين كلية في الكدح الانتاجي ، والاقلية التي تتمتع بالامتيازات ووقت الفراغ ، والتي تولت الادارة العامة للمجتمع وتوجيهه . وقد اعتمد تطور العلم ـ كفرع من فروع العمل الذهني ـ على وجود مثل هذه الاقلية ، المتحررة من العمل اليدوي في الانتاج ، والقادرة على القيام بمثل هذا العمل الذهني .

وهكذا فان الطبقة التي تولت ـ في اي فترة خاصة ـ

الادارة العامة للمجتمع وتوجيهه ، ومن ثـم للدولة والدين ومـا الى ذلك ، تتولى ايضا مهمة العلوم ، وتمارس نفوذا مسيطرا على تطورها .

وتتطور العلوم اساسا كجزء من الوسـائل اللازمة للادارة العـامة للشؤون الاجتماعية فضلا عن المهـام الخاصة وتوجيهها . ومن هنا تتطور العلوم كوسائل او ادوات في ايدي مختلف الطبقات، تخـدم احتياجاتها عـن طريق (أ) القيام بالانتـاج وتوسيعه و (ب) ادارة الشؤون الاجتماعية عموما وتوجيهها . وتشجع هذه الطبقات وتغذي تطور العلوم بقدر ما تتطلب مصالحها اكتشاف الاشياء ، وليس البقاء في حـالة من الجهل ، او ابتداع نظريـات زائفة .

وهكذا تحكم توسع العلم ، وكذلك الحدود امام هذا التوسع، المصالح الناشئة عـن ظروف وجود طبقات معينة من وقت الى آخر .

ففي المجتمع العبودي والمجتمع الاقطاعي مثلا املت ظروف وجود الطبقات الحاكمة ـ التي كـانت مرتبطة بوجـود مستوى منخفض نسبيا من تطور كل من الزراعة والصناعة ـ اهتمامـا محدودا فحسب بتطور العلوم . ولكن مـا ان نشأت البرجوازية حتى تطلبت مصالحها توسيعا هائلا للعمل العلمي ، ارتبط بالدرجة الاولى بتطور المانيفاكتورة والصناعة ، وكذلك ـ في ظروف نضالها الثوري ـ بالانسان وعلاقـاته الاجتماعية . والعلم الحـديث من خلق البرجوازيـة ، وهو واحـد مـن اخص منتجـات المجتمع البرجوازي ، والوسيلة التي خلقت في ظروف تطور الراسمـالية لفهم عمليات الطبيعة والمجتمع والتحكم فيها .

الايديولوجية الطبقية في العلم :

ان تولي طبقة معينة للدور القيادي في التطور العـام للعلم يضع كذلـك شروطا وحدودا معينة على تطور افكار العلم .

فعلى اسـاس الظروف المادية لوجود طبقة مـا ، تتشكل

مفهومات مسبقة تحدد طابع الايديولوجية الطبقية . ويستخدم الممثلون الفكريون للطبقة هذه المفهومات المسبقة ويطبقونها ـ بشكل او آخر ـ في كل مجال من مجالات نشاطهم الايديولوجي . وهكذا فانها تستخدم وتطبق في العمل العلمي ، وتتغلغل في نظرية العلوم وتفرض نفسها عليها ، وبهذه الطريقة تؤثر على كل تطور العلوم ولونه في كل فترة معينة .

ففي المجتمع العبودي مثلا تطورت فكرة ان كل ما هو موجود يمثل هرماً يمتد من الله عبر درجات الكائنات الروحية الادنى حتى درجات الناس والحيوانات والنباتات والمعادن ، وصيغت هذه الفكرة بشكل اوسع في المجتمع الاقطاعي . فكل شيء يوجد لغاية تتمشى مع مكانه في النظام ، وهذا هو ما يحدد خواصه الجوهرية وحركاته وتغيراته . وسيطر هذا الطراز من التصورات على العلوم . فكان لا بد لكل نظرية عن الانسان او الطبيعة ان تصاغ بعباراتها ، وان تتلاءم معها .

وعلى سبيل المثال كانت السماوات خلف دائرة القمر تعتبر ذات طبيعة ارقى ، وتنتمي الى مرتبة من الوجود ارقى من الارض تحتها . ومن هنا اعتبرت الحركات السماوية (التي افترض انها بالضرورة حركات دائرية لان مثل هذه الحركات كانت تعد اكمل الحركات) خاضعة لقوانين تختلف عن الحركات الارضية . فالاجسام الارضية تميل بطبيعتها الى السقوط نحو المركز ، مما يفسر الجاذبية كما نلحظها على الارض ، لكن هذا لا ينطبق على السماوات . ونجد تعبيرا عن هذا في تصور بطليموس للأرض الدنيا كمركز للكون تدور الشمس والنجوم بعيدا عنه ، وقد احدث كوبرنيكوس ـ بوضعه للشمس في المركز وجعله الارض واحدا من كواكبها ـ صدعا حاسما في مثل هذا النوع من التصورات ، ومهد الطريق لتصور نيوتن عن الجاذبية الكونية وقوانين الحركة التي تضع حركات كل الاجسام في الكون في مخطط كوني واحد للسببية الميكانيكية .

وهاجمت الايديولوجية البرجوازية عموما، والعلم البرجوازي بوجه خاص ، التصورات التقليدية القديمة ، ونجحت في النهاية

في التخلص منها . وقـد نشـا هذا الهجوم وتطور على اسـاس نمو العلاقـات الاجتماعية البرجوازية . وحلت محل التصورات القديمة تصورات جديدة ذات طابع برجوازي ـ تصورات الهوية الكيفية الاسـاسية لكل الكائنات المادية والسببية الميكانيكية . وفي الوقت نفسه فان البرجوازية ـ وباستثناء اكثر ممثليها راديكالية ـ لم تطح بمفهومات الله والروح ، لكنها بدلا من هرم الوجود الواحد ذي المراتب ، من ادنى انواع الوجود المـادي في القاع الى ارقى انواع الوجود الروحي (او الله) في القمة ، ادخلت تقسيم الكون الى مجالين مختلفين كل الاختلاف ـ الوجود المـادي الخـاضع لقوانين ثابتة محددة من ناحية ، والله والعالم الروحي من الناحية الاخرى .

ودخلت مثل هـذه التصورات البرجوازيـة ـ بطريقة او باخرى ـ في كل النسيج النظري للعلم الحديث ، تماما كما دخلت التصورات العبودية والاقطاعية في النسيج النظري للعلم القـديم وعلم العصور الوسطى . لكن هناك فارقـا هو ـ انه في حين كانت التصورات القديمة معـادية لاكتشـاف الطبيعة بالمناهج التجريبية فـان التصورات الحديثة تشجع ذلـك وتتطلبه .

الاكتشاف والتصور المسبق :

ونتيجة لهذا النفوذ الايديولوجي في النظرية العلمية يحـدث دائما تمايز في تطور العلوم بين الاكتشـافات التي يحققهـا العلم والتصورات المسبقة التي ياخذها العلم ويستخدمها .

ويحدث الاكتشـاف حين يعرف شيء ما ـ نتيجة للأبحاث ـ عن انواع الاشياء الموجودة وخواصها وصلاتها وقوانينها . لكن الاكتشـافات لا بد ان يعبر عنها دائما في قضـايـا تصـاغ بمعونـة مفهومات محددة ، ومثل هذه القضـايـا دائما ما تشكل جزءا من نظرية عـامة ، ومن هنا فاننا اذا درسنا المجموع الكلي لافكـار العلوم ونظرياتها في اي وقت فسنجد انها تتكون ـ من نـاحية ـ من صياغة اكتشـافات فعلية ، ومن نـاحية اخرى من التصورات

المسبقة العامة التي تصاغ فيها الاكتشافات وتنسج معا في نظرية عامة .

وكثيرا ما يولد هذا التمايز بين الاكتشاف والتصور المسبق ـ الموجود دائما في العلم ـ تناقضا بين الاكتشاف والتصور المسبق، ويعمل هذا التناقض دائما في تطور العلم .

وهذا التناقض هو في جوهره تناقض بين المضمون والشكل في العلم ـ تناقض بين المضمون الفعلي لاكتشافات العلم والاشكال النظرية التي تعبر عنها وتعممها . وهو يمكن ان يعمل في اي من الاتجاهين ـ في اتجاه ايجابي وفي اتجاه سلبي . فمن الناحية الايجابية تساعد الاكتشافات الجديدة في تمزيق التصورات المسبقة القديمة ، وتقود الى طرق جديدة لفهم الاشياء . ومن الناحية السلبية يؤدي تشبث التصورات المسبقة القديمة بالبقاء الى عرقلة التقدم نحو اكتشافات جديدة .

وعلى سبيل المثال كانت التصورات المسبقة القديمة ـ في فجر العلم الطبيعي الحديث ـ تعوق التقدم نحو اكتشافات جديدة ، فمثلا عاقت الفكرة القائلة ان الحركات السماوية مختلفة كل الاختلاف عن الحركات الارضية تقدم علم الفلك والميكانيكا . وبعدئذ ساعدت الاكتشافات الجديدة في علم الفلك والميكانيكا على تمزيق التصورات القديمة ، وشق الطريق الى نظرة جديدة .

كما اثار في العلم الطبيعي البرجوازي الحديث تناقض بين اكتشافات العلم والمنهج الميكانيكي ـ الميتافيزيقي البرجوازي التقليدي في تفسيرها .

وهكذا اوضح انجلز ان التأثير التراكمي لاكتشافات العلم الطبيعي الحديث يوضح :

« ان الطبيعة ـ في التحليل الاخير ـ تعمل جدليا لا ميتافيزيقيا . . . لكن الطبيعيين الذين تعلموا التفكير جدليا قليلون متباعدون ، وهذا النزاع بين نتائج الاكتشافات واساليب التفكير المتصورة مسبقا يفسر الخلط الذي لا نهاية

له ، والذي يسود الآن في العلم الطبيعي النظري »(٥) .

ومن نـاحية يؤدي هذا النزاع الى « الخلط الذي لا نهـاية له » في العلم مما يعوق تقـدم العلم . وعلى سبيل المثال فرضت في علم الحياة افكـار ميكانيكية جامـدة للغاية عن العمليات الحية ، وحين اثـار هذا مصاعب لجأ البعض الى افكار غامضة عن قوى الحياة ، مما ادى الى جـدال عقيم بـين « النزعة الميكـانيكية » و «النزعة الحيوية» . ومرة اخرى حين قلبت الاكتشافات الحديثة في الفيزيـاء المخطط القديم للسببية الميكانيكية زعم البعض أن كل فكرة السببية قـد تحطمت ، واننا لا يمكن ان نقـدم « اية صورة » عن العمليات الفيزيـائية الاساسية . ومن ناحية اخرى ادى تراكم الاكتشافـات الى طرق جديدة في التفكير ، والى احلال المـادية الجدلية محل الايديولوجية البرجوازية . وهكذا استخلص لينين من بحثه للتطورات الحديثة في الفيزيـاء أن :

« الفيزيـاء الحديثة في مخـاض ، انها تلد المـادية الجـدلية »(٦) .

العلم الاجتماعي :

لم نناقش حتى الآن الا العلوم الطبيعية . لكن هناك ايضـا علماً اجتماعيا .

ولقد كان الانتاج هو الذي حـدد في النهاية تطور العلـوم الطبيعية التي تقوم بالبحث في خواص الظواهر الطبيعية وقوانينها. امـا تطور العلم الاجتماعي الذي يقوم بالبحث في خواص الظواهر الاجتماعية وقوانينها فقد حدده الصراع الطبقي . وتمتد جـذور العلم الاجتماعي الى الخبرة التي تكتسبها مختلف الطبقات فـي مجرى صراعها الطبقي .

---

(٥) ف. انجلز « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » ـ الفصل الثالث .

(٦) ف. ا. لينين « المـادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الخامس ـ قسم ٥ .

وينشأ العلم دائما عن حاجة ما . واحتياجات الانتاج ـ في التحليل الاخير ـ هي التي تستدعي العلوم الطبيعية ، وتجري ابحاثها باسم اي طبقة توجه الانتاج . وتستدعي الحاجة الى الادارة العامة للشؤون الاجتماعية والتحكم فيها بدورها الى العلم الاجتماعي . وتجري ابحاثه باسم اي طبقة تدير الشؤون الاجتماعية وتتحكم فيها ، او تناضل لبلوغ مثل هذه الادارة والتحكم .

وقد ادى بحث الظواهر الاجتماعية الى تطور كبير خلال المجتمع العبودي والاقطاعي والراسمالي . وجرت ابحاث دؤوبة في مختلف اشكال المجتمع والحكومة ، ومختلف القوانين الاجتماعية التي لا بد لكل حكومة ان تاخذها في الاعتبار ، فضلا عن ابحاث المؤرخين التي اوضحت تعاقب الاحداث العامة في تاريخ مختلف الجماعات .

لكن هذه الابحاث قام بها ـ حتى ظهور الطبقة العاملة الحديثة ـ ممثلو الطبقات المستغلة . وهكذا كانت الدروس والاستخلاصات التي توصلت اليها الطبقات المستغلة عن الانسان والمجتمع ، هي التي تجسدت بالدرجة الاولى في العلم الاجتماعي . وقد اضفى هذا على العلم الاجتماعي طابعا مختلفا اختلافا عميقا عن العلم الطبيعي . فالعلم الاجتماعي كما طوره ممثلو الطبقات المستغلة ـ والذي يتناول علاقات الناس وتفاعلهم مع بعضهم البعض ـ قد انفصل كل الانفصال عن العلم الطبيعي ـ الذي يتناول الطبيعة الخارجية وفعل الانسان على الطبيعة . وثبت ان من المستحيل ارساء اساس علم يعتد به عن المجتمع بالطريقة التي تمكنت نفس الطبقات من القيام بها بالنسبة للطبيعة الخارجية .

وهناك اربع سمات رئيسية للعلم الاجتماعي ميزته بشكل اساسي عن العلم الطبيعي .

١ ـ ان المصالح الطبقية تكبح بعض ابحاث العلم الاجتماعي واكتشافاته بصورة لا تكبح بها ابحاث العلم الطبيعي . فحقيقة ان الطبقات المستغلة هي التي طورت العلم الاجتماعي كعون لها في

صراعها الطبقي تضع حدودا لا اجتياز لها امـام امكانـات العلم الاجتماعي في الاكتشـاف ـ طالما ظل في ايدي هذه الطبقات .

صحيح ان ممثلي الطبقـات الحـاكمة قد قـاوموا لفترة اكتشـافات مختلفة عن الطبيعة لاسبـاب ايديولوجية ، وفي هذا الصدد لـم يكن طريق العلم الطبيعي بـاي حال طريقـا ممهدا ، وكان هذا مـا حـدث مثلا مع غاليليو او مع داروين فـي الفترة الاخيرة ، او ميتشورين في فترة احدث . لكن الوقـائع نفسها تفرض الاعتراف بها حتما في النهاية ، وتستوعب الاكتشافـات وتستخدم ، وتكيف الايديولوجيات مع الاكتشافات الجديـدة . امـا المقاومة في الحقل الاجتماعي ـ من الناحية الاخرى ـ فهي اشـد قوة . ولن تعترف طبقة مستغِلة بالوقائع وقوانين المجتمع لو انها اساءت اسـاءة قاتلة الى مصالحها الطبقية ، لـن تعترف بالوقـائع التي تكشف الطبيعة الحقة لنظام استغلالها ، والقوانين التي توضح الانهيار الحتمي لهذا النظام .

٢ ـ وفي حـين ان الطبقات المستغِلة قـد طورت العلـوم الطبيعية كاداة لسيطرة الناس الجماعية على الطبيعة فانهـا لـم تطور العلم الاجتماعي بالمقابل كاداة لسيطرة الناس الجماعية على تنظيمهم الاجتماعي . فالطبقات المستغلة لم تطور العلوم الاجتماعية الا كاداة لمساعدتها على تأمين حكمها الطبقي والحفاظ عليه . لقد اجريت كثير من الابحـاث عن المجتمع ، واستخلصت منها كثير من النتائج النظرية والعملية . لكن هذه الابحـاث والنتائج ـ عـلى عكس ابحـاث العلوم الطبيعية ونتائجها ـ لم تمكن الناس ابدا من ان يحققوا مـن السيطرة على نتائج افعـالهم مـا يمكنهم من ان يوجهوا جهودهم التعاونية ويخططوها لتحقيق غايـات محددة .

لقد اهتمت الطبقات المستغلة بتطوير ادوات الانتاج ، التي كانت وسيلة الناس لارسـاء سيطرتهم على الطبيعة وزيـادتها . وهكذا سـاعدت العلوم الطبيعية بصورة متزايدة ـ تحت رعـاية هذه الطبقات ـ على تحقيق سيطرة الانسان على الطبيعة . ولكن تطور الملكية الخاصة والاستغلال جعلا الناس ـ في الوقت نفسه ـ خاضعين لتاثيرات علاقـاتهم الاجتماعية التي تقع خارج سيطرتهم

الاجتماعية الواعية. ولا بد ان يظل الامر كذلك طالما بقي الاستغلال. ومن هنا فان ذات العملية التاريخية التي توفر للطبقات المستغلة امكانية تطوير علم طبيعي يساعد الانسان على السيطرة على الطبيعة تحجب عنها امكانية تطوير علم اجتماعي يساعد على تحقيق سيطرة الانسان على تنظيمه الاجتماعي .

٣ ـ وفي حين كانت الطبقات المستغلة قادرة على تطوير البحث العلمي اكثر فاكثر لا في مجال ظواهر الطبيعة السطحية فحسب بل في مجال الاسباب والقوانين الكامنة لهذه الظواهر فان علمها الاجتماعي لا يستطيع ابدا ان يتغلغل الى الاسباب والقوانين الاساسية لحركة المجتمع .

فالاسباب والقوانين الاساسية لحركة المجتمع تكمن في مجال علاقات الانتاج ، في مجال الملكية والعلاقات الطبقية . لكن من المستحيل ان نمضي ببحث علمي في هذا المجال الى غايته دون ان نكشف في النهاية الحقيقة عن اساس الوضع الممتاز للطبقات المستغلة ، والطبيعة المتناقضة والانتقالية لنظام الاستغلال ، ولهذه الطبقات مصلحة حيوية في اخفائها وسترها . ومن هنا فان العلم الاجتماعي لطبقة مستغلة ـ حتى اثناء مرحلته التقدمية ـ حين يبدأ في اجراء تحليل اكثر عمقا لأساس المجتمع الاقتصادي (كما فعلت البرجوازية البريطانية في المرحلة الاولى من الراسمالية الصناعية) فان الطبقة سرعان ما تنتكص عن انجازها ، وترتد ابحاثها الاجتماعية الى مستوى الوصف السطحي ، وتفيض بالافكار المضللة . ولا يستطيع علماء اجتماع الطبقات المستغلة ـ في النهاية ـ ان يصنفوا الظواهر التي يدرسونها ويحللونها ويصفونها بشكل صحيح ، ودائما ما يدخلون دوافع وهمية وتفسيرات زائفة في عروضهم عن المجتمع .

٤ ـ لقد ظلّ العلم الاجتماعي ـ في ايدي الطبقات المستغلة ـ اشد تاثرا بالايديولوجية الطبقية من العلوم الطبيعية . ففي العلوم الطبيعية كثيرا ما عاقت التصورات الايديولوجية المسبقة العلوم عن اكتشاف كثير من القوانين الموضوعية والصلات الجوهرية الظواهر التي تدرسها ، لكنها في النهاية لم تمنعها من

ذلـك . أمـا في العلم الاجتماعي فقد تحددت النظرية العـامة للمجتمع بالدرجة الاولى بالتصورات الايديولوجية المـسبقة .

فلأن المصالح الطبقية تمنع بعض الابحـاث والاكتشافات ، ولان الطبقـات التي تضطلع بالعلم الاجتمـاعي لا يمكن ان تطوره كوسيلة نحو سيطرة الانسان على تنظيمه الاجتماعي ، وان تطرح استنتاجاته لمحك الممارسة الاجتماعية ، ولان العلم الاجتمـاعي يجفل من بحث الاسباب والقوانين الاسـاسية لحركة المجتمع ـ فـانه يترتب عـلى ذلـك ان تصـورات المجتمـع العـامـة المستخدمة في العلم الاجتماعي ليست مستمدة من البحث العلمي بل ان لها طابع الوعي الزائف، الوهم الايديولوجي الطبقي . وبالتالي فقـد مالت ابحـاث العلم الطبيعي ونتائجه ـ في ايـدي ممثلي الطبقات المستغِلة ـ الى ان تتطور في المقـام الاول كمجرد انضاج لتصورات ايديولـوجية مسبقة ـ كتصنيف وتفسـير للوقـائع الاجتماعية بطريقة تعزز اوهام طبقة معينة عن المجتمع ، وتوفـر الحجج لمساندة خطوطها السياسية .

كل هذه الاسباب اذن لـم يبلغ العلم الاجتماعي على ايدي ممثلي الطبقات المستغِلة ـ ولم يكن يستطيع ابدا ان يبلغ ـ نفس الوضع العلمي الذي بلغته العلوم الطبيعية . ومـال دائما الى ان ينحط الى مجرد دفـاع عن الطبقة الحاكمة .

الوظائف الاجتماعية للعلم :

سنختتم هـذا الفصل ببعض الاستخـلاصات عـن طبيعة العلم ، والدور الذي يلعبه في الحياة الاجتماعية ، وفي التطور الاقتصادي والثقافي . ثم ندرس في الفصل التالي بعض السمات العـامة للتطور التاريخي للعلم ، والدور المقيض له في المستقبل ، في بناء المجتمع الاشتراكي .

ان التمييز بين اسلوب الوعي العلمي واسلوب الوعي الوهمي يتوقف على الاسـاليب المختلفة لتكوين الافكار عن الاشياء ـ من نـاحية تشكيل الافكار على اسـاس التفاعل العملي مع الاشياء ،

واختبارها باستمرار في الممارسة ، ومن ناحية اخرى الانطلاق من تصورات ايديولوجية مسبقة .

وهذان الاسلوبان للوعي لا يستبعد كل منهما الآخر ، انهما ضدان لكنهما يتداخلان . انهما الجاهان متضادان يعملان في التطور الكلي للوعي الاجتماعي ، ويتداخلان في كل مرحلة ، ويحددان معاً التشكيل الفعلي للأفكار التي نعتنقها عن الطبيعة والمجتمع ، وعن جوانب خاصة من جوانب الطبيعة والمجتمع . وهذا بدوره يولد تناقضات مستمرة في مثل هذه الافكار . وقد اصبح لأسلوب الوعي العلمي بالتدريج ـ كما رأينا ـ النفوذ السائد في تكوين الافكار عن الطبيعة ، في حين ظل لأسلوب الوعي الوهمي النفوذ السائد في تكوين الافكار عن المجتمع .

ويرتبط البحث والاكتشاف العلمي بالممارسة الاجتماعية ، بممارسة الانتاج وممارسة الصراع الطبقي ، وهو ينشأ دائما ـ في التحليل الاخير ـ عن احتياجات هذه الممارسة وتحكمه هذه الاحتياجات ، وهو اذ يشبع احتياجات الممارسة يقدم اسهاما جوهريا في الممارسة .

ويلعب البحث والاكتشاف العلمي دورا لا غنى عنه في تطور قوى الانتاج ، وكلما ارتقى تطور قوى الانتاج زاد الدور الذي يلعبه العلم في تطورها واصبح اكثر ضرورة . وعلى سبيل المثال لم يكن العلم يلعب اي دور في قوى الانتاج في العصر الحجري ، وبدأ يلعب دورا في تطور الزراعة واعمال المعادن والاشغال العامة . وهو يلعب دورا رئيسيا في قوى الانتاج الحديثة ، لأن التكنولوجيا الحديثة مستحيلة دون العلم ، واكثر من هذا فانه يلعب دورا قياديا ، لأن البحث العلمي هو رائد طريق التطور التكنولوجي ، وهو يؤدي مباشرة إلى ثورات كبرى في التكنولوجيا .

ويصبح العلم ـ باسهامه بهذه الطريقة في تطور قوى الانتاج ـ قوة ثورية في المجتمع ، لانه عامل رئيسي في هذا التقدم لقوى الانتاج الذي يصل بها الى التنازع مع علاقات الانتاج القائمة ، وبذا يجعل من الضروري اجراء تغيير في كل بنية المجتمع الاقتصادية . ويتضح هذا اليوم في تطور علم الفيزياء

مثلا ، وهكذا كان انتاج الطـاقة الذرية احـد العوامل التي تجعل حلول الاشتراكية محل الراسمالية ضرورة ملحة حتى يمكن تطوير مثل هذا الانتاج تطويرا مثمرا لخـدمة المجتمع

وفـي الوقت نفـسه يلعب العلم دورا في الصراع الطبقي . وتلعب العلوم الطبيعية مثل هذا الدور بشكل غير مباشر وكوظيفة ثانوية ، امـا العلم الاجتمـاعي فيؤديه بشكل مـباشر وكوظيفة اولية .

والوظيفة الاجتمـاعية الاولى للعلم الطبيعي هي مـساعـدة الانتاج ، ومن هنا تنبع وظيفته الثانـوية فـي الصراع الطبقي . فاوجه التقدم المحددة في العلم والتكنولوجيا تخـدم مصالح طبقات محددة ، سواء في صراعها من اجل السلطة او في دعم نظم حكمها حين تكون في السلطة . وهكذا مثلا خـدمت اوجه التقدم الاولى للعلم والتكنولوجيا الحـديثين ظهور البرجوازية بطريقتين ـ اولا بتمكينها من زيـادة ثروتها وبـدا من دعم مركزها الاجتمـاعي ، وثانيا من الناحية الايديولوجية بمساعدة صراعها ضد الايديولوجية الاقطـاعية . وحـين ارست البرجوازية سلطتهـا كـان العلم والتكنولوجيا عونـا قويا في دعم نظـام الحكم الراسـمالي ، وهما مـا زالا اليوم يخدمان نظام حكم الراسمالية الاحتكارية ، وفـي الوقت نفسه فانهما يدفعان ايضا الى خدمة الطبقة العاملة وقضية الاشتراكية ويتطوران في هذه الخدمة ـ كدعـامة رئيسية فـي البلاد التي تبني الاشتراكية ، وفي كل مكـان كجـزء من العـدة الاساسية للايديولوجية الاشتراكية .

ومن الناحية الاخرى فـان مختلف الوان البحث الاجتماعي تخدم الصراع الطبقي بشكل مباشر ، وتوفر احتياجـات الصراع الطبقي الدافع الرئيـسي لمثل هذه الابحـاث . وهذا يفسر كما راينا ـ في حالة الطبقات المستغِلة ـ ان الاوهام الايديولوجية الطبقية تلعب في العلم الاجتمـاعي دورا اكبر منهـا في العلم الطبيعي . فالدراسة المقارنة لمختلف اشكال المجتمع والحكم ، ووصف مختلف اشكال النشـاط الاجتماعي وتصنيفها ، وبحث افضل الطرق للقيام بمختلف اشكـال النشـاط الاقتصادي ـ كان هذا كله هو الشاغل

الرئيسي لمختلف الطبقات الحاكمة المستغِلة ، خدمها في تخطيط نشاطها وتوجيهه سواء في كسب السلطة أو في دعمها ، وفي تطوير آرائها الطبقية في الصراع الايديولوجي مع الطبقات الاخرى . وفي الصراع الطبقي للطبقة العاملة ، في النضال من اجل الاشتراكية ، يطور العلم الاجتماعي للمرة الاولى كوسيلة جوهرية لاكتشاف كيفية تحويل المجتمع ، وهو بهذا يبدأ للمرة الاولى في بلوغ وضع علمي يعادل وضع العلوم الطبيعية .

واذن فنحن نجد الوظيفة الاجتماعية الرئيسية والاكثر اساسية للعلم في تطوير الممارسة الاجتماعية ، فالناس حين يجرون ابحاثا علمية لمعرفة الاشياء والتوصل الى نتائج عامة على أساس ما اكتشفوه ، يستطيعون ان يوسعوا قوى انتاجهم ويطوروها ، وينظموا اتصالهم الاجتماعي ، ونشاطهم الفردي والاجتماعي ، بما يتفق مع مستوى قوى انتاجهم وطابع العلاقات الانتاجية المترتب عليه . وهكذا فان تطور العلم وسيلة جوهرية لاكمال الحياة الانسانية ، تخدم سيطرة الناس على الطبيعة ، وثروتهم الاجتماعية ، ونطاق نشاطهم وقوته ، وقدرتهم على ادارة شؤونهم واشباع احتياجاتهم .

ويرتبط هذا بالمسالة التي ثارت من قبل بين الماركسيين عما اذا كان العلم يتطور كجزء من الايديولوجية الطبقية تحكمه علاقات المجتمع الاقتصادية . وهل من الصحيح أن نقابل بين « العلم البرجوازي » و « العلم الاشتراكي » كايديولوجيتين متنازعتين يخدمان طبقات ونظم اجتماعية متنازعة ؟

فمن ناحية ـ وما دامت التصورات الايديولوجية المسبقة تدخل في العلم ـ فان من الواضح أن النظريات الجارية في ميادين العلم الخاصة تتضمن ـ في الممارسة الفعلية ـ افكارا تنشأ وتتطور كجزء من الايديولوجية الطبقية . وتنشأ مثل هذه التصورات المسبقة بالتحديد كنتاج لأساس معين من علاقات الملكية والعلاقات الطبقية ، وتخدم دعم هذه العلاقات وتطورها ، وتختفي حين يختفي هذا الاساس الاقتصادي . ونحن لا نستطيع أن نفهم تاريخ العلم ، او طابعه الخاص وتناقضاته في اي مرحلة

معينة ، دون ان نـاخذ في الاعتبار ان طبقات محـددة هي التي تطوره ، وتلعب تصوراتها المـسبقة دورا نشطاً في تطوره ، وقـد تدفع مصالحها الاقتصادية تطوره في اتجاه مـا وتكبحه في اتجـاه آخر . وبهذا المعنى فـان من الصحيح تماما ان نقـابل بين « العلم البرجوازي » و « العلم الاشتراكي » ، لان ثمة اختلافـا بـين الطريقة التي يحكم بها تطور العمل العلمي في المجتمع البرجوازي وفي المجتمع الاشتراكي .

ومن الناحية الاخرى فان مضمون اكتشافات العلم لا تحدده المصـالح الطبقية او يحـدده أسـاس اقتصادي مـا . ان هذه الاكتشافات ترتبط ارتباطا مباشرا باحتياجات الانتاج والتواصل الاجتماعي المترتب على الانتاج ، وتعكس وقائع وقوانين موضوعية ، وتخـدم المجتمع عموما ، وتظل صحيحة بالنسبة لأي اسـاس اقتصادي ، فالاكتشاف اكتشاف ايـا كان من قام به .

ولناخذ مثلا محددا ، فيزيـاء الكم كما تطورت في المجتمع البرجوازي اليوم . ان الاكتشـافـات المتعلقة بقوانين حركة المـادة على المـستوى دون الذري تعكس قوانين الحركة هذه ، وتجسد نتائج التجارب ، ومن ثم فانها لا تتحدد بـأي حال بالتصورات الايديولوجية المـسبقة لطبقات معينة ، وهي التصورات التي تحكمها العلاقـات الاقتصـادية والمصالح الاقتصـادية . ولهـذا السبب يستطيع علماء من بلدان رأسمالية وبلدان اشتراكية ان يلتقوا في مؤتمـر علمي على أسـاس مشترك ، وان يقـارنوا النتائج التي توصلوا اليها ، ويـساعدوا بعضهم البعض في دفع تقدم العلم ـ على الاقل بقدر مـا تـسمح به قواعـد الامن لـدى حكوماتهم . لكن النظرية القائلة ان الاحـداث تقع دون اسباب ، والتي بنيت حول هذه الاكتشافات ، والتي لا يمكن لأي تجربة ان تؤكدها ، نتاج مميز للايديولوجية البرجوازية . ومن هنا فـان فيزياء الكم في اكتشافاتها الجوهرية لـم تتطور كايديولوجية طبقية ، لكن سمات مؤقتة معينة لنظريتها العامة تأثرت بالايديولوجية الطبقية .

واذن فهل يتطور العلم كايديولوجية طبقية ؟ ان العلاقـات الاقتصـادية والطبقية في المجتمع تحـدد بالفعل تطـور العلـم ،

والتصورات الايديولوجية المسبقة لطبقات محددة تدخل العلم بالفعل وتؤثر على تطوره ، انها تؤثر على تطوره تاثيرا ايجابيا او سلبيا ، وتساعد الاكتشاف العلمي أو تعوقه ـ تماما كما يمكن للأساس الاقتصادي لعلاقات الملكية والعلاقات الطبقية ان يكون عموما مواتيا او غير مواتٍ للمزيد من تطور العلم . لكن اكتشافات العلم ، وتقدم النظرية العلمية ، لا تعكس التصورات المسبقة ومصالح اي طبقات ، وانما هي تعكس بشكل مباشر عمليات العالم الموضوعي ـ وهذا ما يكفله التطبيق المتزايد للمناهج العلمية ، وهي مناهج للكشف عن الحقيقة وليست مناهج لنسج نظريات تتلاءم مع مصلحة أناس معينين .

وفضلا عن هذا فان من الواضح ان العلم نفسه يلعب دورا هاما للغاية في التطور الايديولوجي للمجتمع .

ان المفهومات التي تتشكل علميا ، والاكتشافات العلمية ، تدخل في الايديولوجيات ، وللعلم نفوذ قوي متزايد في تكوين الايديولوجيات ـ التي تصبح بذلك في بعض جوانبها علمية لا وهمية . وكلما ارتفع تطور العلم زاد الدور الذي لا بد ان يلعبه في التطور الايديولوجي العام .

وعلى سبيل المثال فان مفهوم تطور الانواع عن طريق الانتقاء الطبيعي ، ومفهوم الخلية باعتبارها الوحدة التي تتطور منها الحياة ، ومفهوم الذرة ، ومفهوم الارض كجزء من المجموعة الشمسية داخل مجرة طريق التبانة الكونية ، كلها مفهومات تشكلت علميا واصبحت جزءا من النظرة المقبولة عن الطبيعة في المجتمع البرجوازي ، ومن ثم جزءا من الايديولوجية البرجوازية الجارية ، وبشكل عام فان الايديولوجية البرجوازية لا تتغلغل فحسب في العلم بفرض تصورات مسبقة عليه بل ان العلم يتغلغل فيها بدورها ، وفي الوقت نفسه فانها كثيرا ما تسعى الى « تفسير » الاكتشافات العلمية وشرحها .

لكن العلم يلعب ـ في المقام الاول ـ دور سلاح النقد في تطور الايديولوجية . فمفهومات العلم واكتشافاته الجديدة تتنازع مع الايديولوجية القائمة ، وتهز تصوراتها المسبقة والاستخلاصات

المستمدة منها . وهكذا فحين تهب طبقات جديدة لتحدي سيطرة الطبقات الحاكمة القديمة ، وتوضع افكـار جديدة في معـارضة الافكـار القديمة ، فـان البحث العلمي والاستخلاصات المستمدة منه تصبح سلاحـا للنقد الثوري .

ومن هنا فـان العلم يلعب ـ في المقام الاول ـ دورا تقـدميا في التطور الاجتماعي ، ان اكتشافـاته تزيد قوة الناس الجماعية على اشباع احتياجاتهم ، وتخدم كوسيلة للتنوير ، تبدد سحابات الخطأ والخرافة ، وتزود الناس بمعرفة الطبيعة ومعرفة انفسهم .

لقـد اسهمت طبقات معينة ، وامم معينة تقودهـا طبقات معينة ، بدورها في تطور العلوم ، وختمتها مؤقتا بطابع خصائصها وحدودها المعينة ، وكثيرا مـا تراجعت بعـد ان تقدمت كثيرا في الاكتشاف العلمي، مثيرة البلبلة في نظرية العلم بأوهامها ، ومنحرفة باستخدامـاته ، ولكن ايـا كانت الحدود والنكسـات ، فان مـا حققته طبقة او امة ، ترثه اخرى وتواصله . ومن هنا فقد تشكل ـ وتشكل ـ في تاريخ العلم تراث من المعرفة والقدرة الانسـانيتين، وهذا هو تراث البشرية المشترك ، المقيض له ان يستخـدم من اجل تحرير كل الناس .

الفصـل التـاسع

العلم والاشتراكية

انجازات العلم البرجوازي :

قبل زمن الراسمالية الحديثة تطورت العلوم اساسـا على المستوى الوصفي التصنيفي الاولي للغاية ، وكانت اكتشافـات العلم ـ وان تكن كبيرة في بعض الميادين ـ جزئية في طابعها ؛ تتعلق بخواص موضوعـات معينة ، وبقوانـين وتصورات معينة ؛ ولا تتغلغل بعـد الى القوانين الاكثر عمومية واسـاسية ، او توفـر صورة عـامة يعتمد عليها للعلاقـات المتداخلة في الطبيعة . ولما كان العمل العلمي قـاصرا في الاساس على الوصف والتصنيف فان تجريدات العلوم وتعميماتها ـ وهي التي تشكل الجانبين الاساسيين الآخرين للعمل العلمي ـ كـانت بالضرورة تكهنات وتخمينات في الاسـاس . وتطورت النظرية العـامة عـن الطبيعة كجزء مـن الفلسـفة واللاهوت ، وجسدت كل الاوهام الفلسفية واللاهوتية في عصرهـا .

وكان من سـمـات العلم في تلك المرحلة استخدامه لتصورات بدائية للغاية عن الطبيعة . فالكيميائيون مثلا جمعوا رصيدا كبيرا مـن المعرفة عـن الجواهر الكيميائية ومركباتها ، لكـن نظريتهم الكيميائية كـانت بدائية للغـاية بالمعنى الحرفي للكلمة اذ كـانت تستخدم افكارا مأخوذة عن العصور البدائية ، وذلـك مثل فكرتهم

عن ان الجواهر الكيميائية كائنات حية تتالف من مادة وروح ، كما تمتلك صفات جنسية . كذلك حدث تطور كبير في الملاحظات الفلكية في المجتمع العبودي والمجتمع الاقطاعي ، لكن النظريات الكونية عن نظام الكون ظلت تحت تأثير الافكار البدائية .

وقد اوضح انجلز في رسالة الى ك. شميدت في ٢٧ اكتوبر ١٨٩٠ وجود « رصيد من ايام ما قبل التاريخ مما يمكن ان ندعوه اليوم هراء » استند اليه (وما زال البعض يستندون اليه حتى اليوم) في التوصل الى تصورات الناس العامة عن الطبيعة .

يقول انجلز :

« وهذه التصورات الزائفة المختلفة عن الطبيعة .. كان لها في الاغلب اساس اقتصادي سلبي فحسب ، فالتطور الاقتصادي المنخفض لفترة ما قبل التاريخ ، كانت تكمله ، وتحكمه جزئيا ، بل حتى تسببه ، التصورات الزائفة عن الطبيعة . ورغم ان الضرورة الاقتصادية كانت هي القوة الدافعة الرئيسية لتقدم معرفة الطبيعة ، وانها تصبح كذلك بصورة اكبر ، فسيكون من الحذلقة بالتاكيد أن نحاول اكتشاف اسباب اقتصادية لكل هذا الهراء البدائي . ان تاريخ العلم هو تاريخ التصفية التدريجية لهذا الهراء ، او استبداله بهراء جديد لكنه دائما اقل حماقة » .

لقد فرضت ايديولوجية الطبقات الحاكمة طابعا فلسفيا ولاهوتيا معينا على النظرية العامة للعلوم . وفي الوقت نفسه ادى الانخفاض النسبي لمستوى التطور الاقتصادي الى ان تجد كثيرا من التصورات البدائية الحمقاء مكانها في النظريات عن الاشياء الخاصة . ولم يكن يمكن لهذه العوامل الا ان تعوق تطور العلوم . لقد كانت عوامل سلبية لا بد من اكتساحها قبل ان يصبح تطور العلم الحديث ، وتطور الانتاج امرا ممكنا .

وظهر العلم الحديث في الفترة التي كانت فيها سلطة النبالة الاقطاعية تتحطم ، وتتشكل القوميات البرجوازية الاوروبية

الحديثة . يقول انجلز في « جـدليات الطبيعة » : « تطور العلم الحديث في قلب الثورة العـامة ، وكان هو نفســه ثوريـا تماما » . وكانت نفس القوى الطبقية التي تقوم بالثورة هي التي قـامت بتطوير العلـوم . وظهر العلم كقوة تنويـر كبيرة ، تخترق الجهل والخرافة القديمين . لقد تحدى السلطات القديمة بالمعرفة القائمة على الملاحظة والتجربة . وكان اولئك الذين ارسوا اسـس العلم الطبيعي الحديث طرازا مختلفا عن الكهنة والمدرسيين والرهبان في النظام الاقطاعي . لقـد كانوا يهتمون اهتماما بالغا بتطور الصـناعة والتجارة وبالتقنيات الجديدة والارحلات والاكتشافات . واصبحت اكتشافـات العلم في ايديهـم ادوات لتحســين ظروف الحياة الانسـانية .

وكان ظهور علوم جديدة نتيجة للتطور الجديـد للصناعة . « فبعد الحروب الصليبية تطورت الصنـاعة تطورا هائلا ، والقت الضوء على قـدر من الحقائق الجديدة ، الميكـانيكية (النسيج ، صنـاعة السـاعـات ، التفريـز) والكيميائية (الصباغة ، التعدين ، الكحول) والفيزيائية (العدسات) ، ولـم يوفر هذا فحسـب مـادة هائلة للملاحظة بل وفر بذاته ايضا وسائل اخرى للتجربة غير تلك التي كانت قـائمة ، واتاح صناعة ادوات جديدة . ونستطيع ان نقول ان العلم التجريبي المنظم قـد اصبح الآن ممكنا للمرة الاولى »(١) .

وفي التطور الحديث للعلم الطبيعي الذي بدا بهذا الشكل كفت تجريـدات العلوم وافتراضاتها عن ان تكـون مجرد تكهنات وتخمينات ، وبدات ترسى كحقـائق علمية محققة . لقـد بدات النظرية العلمية تحل محل المزاوجة السـابقة بـين الهراء البدائي والتامل الفلسـفي واللاهوتي . والامر الذي جعل هذا ممكنا هو المعدات الجديدة التي يمتلكها القائمون الآن بالعمل العلمي ، والتي تمكنهم مـن الملاحظة الدقيقة والتجارب المحكـومة ، وكذلـك ان

(١) ف. انجلز « جدليات الطبيعة » .

النظريـات العلمية لم تعـد تختبر فحسب بالملاحظات والتجارب العلمية بل كذلك في ممارسة الانتاج الاجتماعي . ومن هنا كـانت الانجازات الجديدة في العلم الطبيعي تعتمد على تقـدم التكنولوجيا في الانتاج الاجتمـاعي ، وعلى الاستخـدام الاجتماعي للعلم كقوة انتاجية .

ومن نقطة البدء هذه انطلق العلم الطبيعي البرجوازي الحديث لاحراز انجـازات عظيمة .

١ ـ فانجز هذا التطوير المتتابع لفروع منفصلة مـن العلم الطبيعي ـ تطور العلوم المختلفة بعضها من بعض ، وتمايزها عن بعضها البعض ، وفي هذه العملية وفرت الانجازات التي احرزت في ميدان مـا امكانية بداية البحث العلمي لميادين جديدة . وادت العملية باسرها الى تفتح تطور القوى الانتاجية للمجتمع الراسمالي، الامر الـذي ادى في ذات الوقت الى طرح مشكلات جديـدة على العلم ان يعالجها ، والى توفير الوسائل التقنية لمعالجتها .

٢ ـ وفي كل ميادين العلم المتتابعة تحققت انجازات عظيمة في التحليل ـ تحليل ظواهر الطبيعة الى اجزائهـا او عناصرهـا ، وايضاح خواصها ، وعلاقـاتها المتبادلة ، وقوانين حركة الاجزاء ، ومن ثـم قوانين حركة الكل . وفـي الوقت نفسـه جرت مع هذا التحليل للطبيعة عملية تعميم تبين كيف ان مختلف خواص الاشياء وحركاتها هي جميعا نتائج لقوانين عامة للغاية وكلية التطبيق .

٣ ـ وكان الانجـاز الكبير الثالث الذي حققه العلم الطبيعي هو اكتشـاف قوانين التغير والتطور في الطبيعة .

ففي الفترة الاولى للعلم الطبيعي الحديث كان الراي السـائد هو ان الطبيعة ـ ورغم التغيرات والتفاعلات التي لا تتوقف ـ تظل دائما على مـا هي عليه في سماتها الرئيسـية .

« فالكواكب وتوابعها ما ان تبدا الحركة بفعل « الدفعة الاولى » الغامضة حتى تدور وتدور في مداراتها المحددة من قبل الى الابـد .. والنجوم تبقى الى الابد ثابتة لا تتحرك في اماكنها .. والارض ظلت دائما دون تغيير .. والقـارات

الخمس الموجـودة اليوم كانت موجودة دائما .. وانـواع النباتات والحيوانات حددت مرة والى الابد حين ظهرت الى الوجود .. لقد انكر كل تغير ، كل تطور في الطبيعة »(٢) .

لكن اكتشافات العلوم المتابعة ـ في الفلك وفي نشأة الكون وفي الفيزيـاء وفي الكيمياء وفي الجيولوجيا وفي علـوم الحياة ـ مزقت كل صورة ثبات الطبيعة ، وتبين أن الطبيعة تتغير وتتطور في كل اجزائها ، ولـم يظهر هذا الاستخلاص كتكهن عام ـ كذلك الذي طرح مثلا في الفلسفة الاغريقية القديمة ـ وانما نتيجة ابحاث مفصلة ، وتحليل مختلف عمليات الطبيعة ، واكتشاف قوانينهـا وصلاتها المتداخلة .

٤ ـ واخيرا انبثقت بالتدريج عن اكتشافات العلوم الطبيعية معرفة بالطبيعة هي ـ في ذات الوقت ـ عـامة وتفصيلية ـ عامة بمعنى انهـا تشمل العمليات الرئيسية التي تحـدث في الطبيعة وصلاتها المتداخلة ، وتفصيلية بمعنى انها تشمل القوانين والصلات المتداخلة الخاصة للأشياء ، ومكنت هذه المعرفة العلوم ـ الى حد كبير ـ من ان تقـدم صورة عن العمليات الطبيعية تقوم كلية على بحث هذه العمليات ذاتها ، وتختبر في هذا البحث .

يقول انجلز :

« وصلنـا الى النقطة التي نستطيع فيهـا ان نبـين ـ ككل ـ الصلة المتداخلة بين العمليات في الطبيعة لا فـي مجالات خاصة فحسب وانما في الصلة المتداخلة بين هـذه المجالات ذاتها ، وبذا نستطيع أن نقدم في شكل منظم تقريبي فكرة شـاملة عن الصلة المتداخلة في الطبيعة بواسطة الوقائع التي يزودنـا بها العلم الطبيعي التجريبي ذاته »(٣) .

ونتيجة لذلـك اخـذت المعرفة العلمية عـن الطبيعة تحل بالتدريج محل التأمل الفلسفي للطبيعة . وتقوم الصورة المقـدمة

(٢) ف. انجلز « جدليات الطبيعة » ـ المقـدمة .

(٣) ف. انجلز « لودفيغ فيورباخ » ـ الفصل الثاني .

لكل من العمليات الخاصة وصلتها المتداخلة العامة في الابحاث التفصيلية وتختبر فيها ، ولا يتم التوصل اليها باستدلالات فلسفية او تخمينات خيالية .

ففيما سبق ـ وكما لاحظ انجلز ـ لم يكن يمكن الوصول الى « فكرة شاملة » عن الطبيعة

« الا بان نضع محل الصلات الواقعية وغير المعروفة بعد صلات مثالية خيالية ، ونملأ فراغ الوقائع الناقصة بتلفيقات الذهن ، ونسد الثغرات الفعلية في الخيال وحده »(٤) .

ولكن ما ان تزودنا الابحاث العلمية بالوقائع الناقصة حتى يصبح مثل هذا الاجراء « لا سطحيا فحسب وانما خطوة الى الخلف »(٥) .

وبالطبع تبقى كثير من الثغرات ، ورغم اننا نستمر في سدها فستظل هناك دائما ثغرات ، وكثيرا ما يؤدي سد ثغرة ما الى تكشف ثغرات جديدة لم تكن تدور في اذهاننا من قبل. غير ان العلم ـ حتى في النصف الاخير من القرن الماضي ـ قد اكتشف ما يكفي لتكذيب ذلك الطراز القديم من التصوير اللاهوتي ـ الفلسفي للطبيعة . واصبح من الواضح انه لا بد من توفير المعرفة الناقصة بدفع البحث العلمي وليس باية وسيلة اخرى .

حدود العلم البرجوازي :

لعبت العلوم ـ بمساعدتها في تطور الصناعة والتجارة ـ دورا لا غنى عنه في اقامة اسلوب الانتاج الراسمالي وتطويره . لكن اقامة اسلوب الانتاج الراسمالي وضعت بعدئذ حدودا امام المزيد من تطور العلوم .

لقد كان انجاز الراسمالية العظيم هو انها حولت الانتاج الفردي الصغير الى انتاج اجتماعي كبير ، قادر على تسخير القوى

(٤) ف. انجلز « لودفيغ فيورباخ » ـ الفصل الثاني .
(٥) المصدر السابق .

الطبيعية ، واستخدام ادوات الانتاج الميكانيكية الحديثة . وادى نمو الانتاج الاجتماعي ـ والصناعة في المقـام الاول ، لأن الزراعة ظلت متخلفة نسبيا ـ الى نمو للعلوم لـم يسبق له مثيل ، كما كان هذا النمو عونـا له . وتحققت اكتشافات في ميدان بعد الآخر ، وقامت علوم جديدة وتطورت بسرعة ، وكشفت الطبيعة اسرارها للانسـان ، وارسيت مبـادىء الفهم الصحيح لقوانين العمليات الطبيعية وصلاتها المتداخلة .

لكن الانتاج الاجتماعي كان موجها لغايـات راسمالية ، وكان راس المال هو الذي يمارس وظيفة التحكم في الانتاج الاجتمـاعي وتوجيهه ، ولم يتم التعاون في العمل ـ وهو السمة الاسـاسية للانتاج الاجتماعي ـ بفعل العمال ذاتهم وانما بفعل راس المـال الذي استخدمهم واستغلهم :

« لم يكن فعلهم ، وانما فعل راس المـال ، هو الذي جمعهم وابقاهم معا . . . ان الدافع الموجه ، غاية الانتاج الراسـمالي وهدفه ، هو انتزاع اكبر كمية ممكنة من فـائض القيمة ، وبالتالي استغلال العمل الانساني الى اكبر حد ممكن »(٦) .

واعتبر ماركس العلم جزءا متميزا ـ لكنه ضروري ـ مـن عملية الانتاج في المجتمع الحديث ، ولاحظ (راس المـال ـ المجلد الثالث ـ الفصل الخامس ـ القسم الخامس) ان العمل الاجتماعي يشمل نوعين من العمل . فهناك اولا الجانب العلمي الذي يشمل السيطرة العلمية على المواد والعمليات ، ويؤدي الى الاختراعـات والاكتشافـات التي تحسن ادوات الانتاج القائمة وتخلق ادوات جديدة ، واسمي هذا النوع « العمل الكلي » ، وهناك ثانيا العمل التعاوني ذاته ، تعاون العمال في استخدام ادوات الانتاج .

وهذان النوعـان من العمل منفصلان في الانتاج الراسمالي ، وكلاهما مجبر على خدمة راس المـال . فالعمل التعاوني هو مصدر فائض القيمة ، ولا يعدو العـامل أن يكون « يدا » تعمل تحت

(٦) ماركس « راس المـال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الثالث عشر .

توجيه الراسمالي او مديريه لتحقيق الربح للراسمالي . ولا يتم التقدم في تقنية الانتاج ويطبق لانه يخفف العمل ، أو يساعد في اشباع الاحتياجات الانسانية ، وانما لانه يجلب مزيدا من الربح ، وبمقدار ما يجلب هذا المزيد من الربح . ومن هنا فان العلم ـ نظرية الانتاج ـ لا يتطور كملحق واداة للعمل الاجتماعي وانما كملحق واداة لراس المال الذي يستغل قوة العمل ، ويوجه الانتاج نحو الربح الراسمالي .

« ان العامل يوضع وجها لوجه امام الامكانات الفكرية لعملية الانتاج المادية كشيء مملوك لآخر ، وكقوة حاكمة . فالصناعة الحديثة ... تجعل العلم قوة انتاجية متميزة عن العمل ، وتدفعه في خدمة راس المال »(٧) .

واستطاع العلم في البداية ان يتقدم بوثبات عملاقة داخل اطار العلاقات الراسمالية . فقد كان راس المال في حاجة الى ان ينفذ الى اسرار العمليات الطبيعية التي يستخدمها في سعيه الى الربح ، واذ ادرك الاهمية الحيوية للعلم فقد كان مستعدا ايضا لتشجيع البحث في خطوط لا يبدو لها تطبيق عملي مباشر . واحس العلماء انهم احرار لا يقيدهم شيء ، وبدا لهم انهم يقومون بابحاثهم لصالح البشرية ، او من اجل المعرفة في ذاتها ، وان المجتمع على استعداد لتكريمهم ومكافاتهم على اكتشافاتهم ، وعلى استعداد لان يضع هذه الاكتشافات ـ حيثما امكن ـ موضع الاستخدام العملي . غير ان واقع حرية العلم البرجوازية هذه هو ان العلم يعمل طيلة الوقت من اجل راس المال ، الذي يستند الى اكتشافاته واختراعاته ونظرياته لتحقيق تلك التحسينات في الانتاج التي يمكن ان تضخم من الربح الراسمالي .

الا انه مع تطور راس المال الى مرحلته الاحتكارية الحديثة ظهر الى العيان بالتدريج خضوع العلم المباشر الصريح لراس المال

---

(٧) ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الرابع عشر ـ القسم الخامس .

الاحتكاري . وساعد تقدم العلم ذاته على ذلك ؛ فقد ادى الى زيادة كبيرة في النفقات ؛ ومن ثـم جعل العلم معتمدا كلية تقريبا على تمويل الاحتكارات ؛ بشكل مباشر او من خـلال الدولة . ولـم تدفع الابحـاث والاختراعات واكتشـافات العلوم الى خدمة راس المـال فحسب بل دفع العلماء انفسهم الى ذلـك . لقد فقدوا وضعيتهـم المستقلة السـابقة ، وتحولـوا الى موظفـين ووكـلاء للاحتكارات ـ او للدولة التي تخضع هي ذاتها للاحتكارات . ونظم عملهم بما يتمشى مع ذلـك . وكانت نتيجة ذلك هي سوء تنظيم العمل العلمي الذي لا يستطيع ان يتقدم الا في الاتجاهات التي يمكن ان يمولها راس المـال ، وهي حرف هذا العمل العلمي اساسـا وبشكل متزايد نحو الغايـات العسكرية ؛ مع تزايد شرور السرية و « الامن » والاشراف البوليسي والعسكري واختبارات « الولاء » واختبارات الاستقامة الايديولوجية ، وهي اخيرا الا يبدو العلم مصدرا لقوة البشرية واملها وانما تهديدا لها .

كذلـك ينعكس خضوع العلم لراس المـال ؛ وفي الآونـة الاخيرة لراس المال الاحتكاري ، في نظرية العلم . فمن وجهة نظر الطبقـة الراسمالية تضمـن العـلم دائمـا ـ عـلى أهميتـه ـ اتجـاها ايديولـوجيا خطرا ؛ وذلـك بسبب الاتجـاه المـادي لاستخلاصاته التي تبدا في تفسير كل شيء في خبرة الانسان استنادا الى العالم المـادي وحده . وقـد بدات البرجوازيـة تدرك منذ وقت مبكر ان المـادية العلمية يمكن ان تكون هدامة اجتماعيا اذا مـا بدات تخضع اسس المجتمع وامتياز الطبقة الحـاكمة للنقد العلمي ، وتبـين كيف يستطيع الناس ان يتحرروا اذا تسلحوا بالعلم . ومن هنا نسجت منذ وقت طويل نظريـات فلسفية حول العلم ؛ تسعى الى تبديد اتجاهه المـادي الجذري ؛ وتسعى في المقـام الاول الى فرض قيود على تطوره وتطبيقه الممكنين .

وهكـذا قيل أن العلم لا يستطيع ان يتناول سوى جوانب معينة من قوى الطبيعة وليس القوى الروحية الكامنة خلف العالم والتي تحكمه ، وانـه في الواقع لا يستطيع ان ينفـذ الى القوى الحقيقية التي تعمل في الطبيعة وانما يستطيع فحسب ان يتناول

بعض تأثيراتها ، واخيرا انه لا يستطيع الا ان يسجل الاحساسات التي تتولد في اذهاننا ويربط بينها في حين يظل العالم الحقيقي الخارجي غامضا غير قابل للمعرفة . ومثل هذه الآراء عن العلم وفي العلم التي تنتشر انتشارا واسعا في العالم الراسمالي اليوم قد بدات بالفعل تتطور حتى منذ القرن السابع عشر (وعلى سبيل المثال على يد مالبرانسن « محاورات في الميتافيزيقا والدين » ـ ١٦٨٨) .

وهكذا نجد علماء بارزين يعلنون أن العلم يمكن ان يتمشى مع اي نوع من « الايمان » ـ فيما عدا الايمان بالانسانية ، وان العالم الواقعي غير قابل للمعرفة ، وان هدف التقدم المستند الى المعرفة العلمية هدف خادع . وفي الوقت نفسه فان تقدم الاكتشاف العلمي لا يمكن أن يتوقف . وظلت اكتشافات جديدة كبيرة تتحقق استنادا الى التقنيات الجديدة التي تتطور في المجتمع الحديث . لكن العلماء انفسهم اصبحوا يدركون بحدة اكبر القيود التي تفرضها عليهم المصالح الاحتكارية في الممارسة والافكار المعادية للعلم في النظرية . وبدا الكثيرون يبحثون عن مخرج ، البعض في نوع من الفردية الفوضوية المحبطة ، والبعض الآخر في المشاركة في نضال الطبقة العاملة من اجل نظام اجتماعي جديد يحقق العلم فيه تطورا غير محدود في خدمة مصالح كل افراد المجتمع .

العلم والشعب :

توجيه الانتاج الاجتماعي ـ في ظل الراسمالية ـ وظيفة لراس المال هدفها هو الربح الراسمالي . اما في ظل الاشتراكية فان توجيه الانتاج الاجتماعي يصبح وظيفة للعمل الاجتماعي ذاته ، هدفها هو اشباع احتياجات المجتمع المادية والثقافية . فمهمة تطوير نظرية الانتاج لا بد دائما ان تكون في نفس الايدي التي توجه ممارسته . وفي ظل الراسمالية ينفصل العلم عن العمل ، ويدفع الى خدمة راس المال الذي يستغل العمل . اما في ظل الاشتراكية فان العلم يتحد بالعمل ، فالعلم الاشتراكي هو القسم العلمي من

العمل الاجتماعي ـ وبعبارة اخرى ذلك القسم الذي يقوم بالبحث والاختراع والعمل النظري اللازم لمواصلة توسيع الانتاج الاشتراكي واكماله ، ولاشباع الاحتياجـات المادية والثقافية المتزايدة على الدوام للمجتمع الاشتراكي .

واذ يبعد العلم عن سيطرة الاحتكارات ، ويصبح من الشؤون العـامة ، فـان تطوره الشامل يصبح مجـالا للتخطيط في ظل الاشتراكية . ولا يعني هذا بالطبع ان الاكتشافـات التي ستتحقق في فترة معينة تخطط مقدمـا ، لأن احدا لا يستطيع ان يعرف ماذا سيكتشف حتى يتحقق الاكتشاف . وانما هو يعني تخطيط اعتماد المـوارد وتـوجيه البحث في كل المجـالات . ويستتبع مثل هذا التخطيط الربط بين الاعتبارات قصيرة الاجل والاعتبارات طويلة الاجل . ففي نفس الوقت يركز العلم على حل المشكلات العملية المباشرة ويضطلع بابحـاث اسـاسية تمليها احتياجـات التقـدم النظري ، وتتطلع الى نتائج تتخطى كثيرا الممارسة الجارية .

وينبثق طراز جديد من العلماء، جندوا في صفوف الشغيلة . ويتحول العلم من حكر لمجموعة اجتماعية مفردة ترتبط بالمستغلين ليصبح في النهاية ملكية الجميع المشتركة واهتمامهم . ولا يمكن لهذا الا ان يطلق قوى هائلة جديـدة للعمل العلمي ولاستخـدام نتائجه ، ويؤدي الى تـسارع هائل للعلم واتـساعه .

وفي الوقت نفسه يطوح نهـائيا بالتصورات الايديـولوجية المسبقة . وتتطور نظرية العلم في توافق مع اكتشافـاته ، وعلى اساس الممـارسة الاشتراكية ، وكمرشـد لمزيد مـن الاكتشاف والتطبيق العملي مع المناقشة والنقد الحرين .

وفي المرحلة الاولى قبل تطور العلوم المنفصلة لـم يكن العلم متميزا عن الفلسفة . ومن سمات تاريخ الفلسفة والعلم الفصل بين العلوم والفلسفة ، واذ تتفرع العلوم عن الفلسفة تقوم الافكار العـامة عن الطبيعة على اساس البحث العلمي في الطبيعة . غير ان الافكـار الفلسفية ـ كما راينا ـ تظل تتخلل العلوم ، وتؤثر بوجه خاص على الاجزاء الاكثر تجريدا من النظرية العلمية . ولا يكتمل تحرر العلم من التصورات الفلسفية المسبقة الا بتطور العلم في

ظل الاشتراكية ، لأن الفلسفة تكف حينئذ عن الوجود في شكلها القديم كنظرية للعالم مستقلة عن العلم وتفرض افكارها على العالم ، بل تتطور كتلخيص للمبادىء الكامنة في الفكر العلمي ذاته ـ مبادىء المنطق والجدل ـ ومن ثم كاداة نظرية ومرشد في العمل العلمي .

ويعلق انجلز في « جدليات الطبيعة » على العلاقة بين العلم والفلسفة فيقول :

« يظن علماء الطبيعة انهم يحررون انفسهم من الفلسفة بتجاهلها او سبها ، غير انهم لا يستطيعون أن يمضوا الى الامام دون الفكر ، والفكر يحتاج الى تحديدات الفكر . وهم ياخذون هذه المقولات دون تامل عن الوعي المشترك لمن يسمون بالمتعلمين ... ومن هنا فانهم ليسوا اقل عبودية للفلسفة ، واولئك الذين يكثرون من سب الفلسفة هم عبيد بالتحديد لاسوا البقايا المبتذلة لاسوا الفلسفات ... ان العلماء الطبيعيين يسمحون للفلسفة بان تطيل وجودها الزائف باستخدام حثالات الميتافيزيقا القديمة. وعندما يتبنى العلم الطبيعي والتاريخي الجدل ، عندئذ فقط فان كل الهراء الفلسفي ... سيكون زائدا ويختفي في العلم الوضعي » .

كذلك ففي الاشتراكية وحدها يمكن أن تتحقق تماما هذه النزاهة الحقيقية اللازمة لتطور العلم الكامل .

ان عملية البحث العلمي تتطلب استخلاص النتائج على اساس البحث الدقيق وحده ، ودون اعتبار لما قد توده هذه المصلحة او تلك ، او ما تعتقده هذه المدرسة الفكرية او تلك ، وتتطلب ان تخضع كل نتيجة للنقد على اساس مزيد من البحث .

وقد اكد ماركس مرارا هذه الخاصية الضرورية للعمل العلمي . وهكذا يتحدث مثلا في « نظريات فائض القيمة » ـ وهو يقارن معالجة ريكاردو العلمية في الاقتصاد السياسي بمعالجة مالتس ـ عن « نزاهة ريكاردو » و « امانته العلمية » و « عدم تحيزه العلمي » حيث « يقف دون تحرج ضد البرجوازية كما يقف في حالات اخرى ضد البروليتاريا والارستقراطية » . اما مالتس

من ناحية اخرى فانه يرتكب « خطيئة ضد العلم » بتكييف نتائجه مع مصالح المدافعين عن الطبقة الحـاكمة « ان مـالتس الزري لا يستخلص ... الا تلك النتائج المقبولة والمفيدة للارستقراطية ضد البرجوازيـة وللائنين ضد البروليتاريـا » ، وهو يسعى الى ان « يوفق العلم مع وجهة نظر ليست مستمدة من العلم ذاته ... وانما مستعارة من الخارج ، من مصالح عرضية غريبة على العلم ».

ولا يمكن الا ان تقوم حواجز امـام البحث النزيه في المجتمع القائم على الاستغلال . فالابحاث تبدا ، لكننا نصل الى نقطة تعمل فيها ضغوط متزايـدة القوة لاقناع كثير من العلماء بـأن يكيفوا استخـلاصاتهم مع مختلف المتطلبات الايديولـوجية والسيـاسية للطبقة الحاكمة ، او حتى بانهاء الابحـاث قبل الأوان . ولا يطوح بكل الحواجز امـام البحث النزيه الا حين يلغى استغلال الانسان للانسـان ، ويوجه البحث بوعي نحو هدف جعل الحياة اكثر وفرة للجميع ، فعندئذ تتطلب ذات المصلحة التي تدفع البحث ـ اي المصلحة المشتركـة في الحصول على المعرفـة الراسخة كوسيلة للحياة ـ الا يقف شيء امـام السير بالابحاث الى نهايتها .

وبالطبع فـان العادة القديمة ، عـادة المطالبة بـأن تثبت الابحاث مـا تود مجموعة معينة ان تثبته ، والاعتراض على اي تسـاؤل حول نتائج معينة ، هي عـادة من الصعب ان تموت . ومن الناحية الاخرى فـان مصلحة الاشتراكية تتطلب ان يكـون العلم منزها حقا ، وان يقوم بابحاثه دونما اعتبار لمـا اكده شخص معين او اشخاص معينون او لمـا يريدون الدعوة الى الايمان بـه . وقد اكد ستالين هذا بقوة :

« من المعترف بـه عموما ان العلم لا يمكن ان يتطور ويزدهر دون معركة افكـار ، دون حرية النقد »(٨١) .

« فالعلم يسمى علما لانه لا يعترف باوثـان ، لانه لا يخشى ان يرفع يده ضد العتيق البائد ، ولانه يولي اذنـا

(٨١) ستالين « الماركسية وعلم اللغة » .

صاغية لصوت الخبرة ، صوت الممارسة »(٩) .

وبشكل عام تحرر الاشتراكية العلم من كل الحدود والقيود التي كانت مفروضة حتى الآن على تطوره . وكما ان الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج تزيل العوائق التي تفرضها الملكية الخاصة على وسائل الانتاج وتجعل تطور الانتاج غير المقيد لاشباع احتياجات الشعب امرا ممكنا فانها تزيل كذلك العوائق المفروضة على تطور العلم . ولا تختلف مناهج البحث العلمي في ظل الاشتراكية عنها في ظل الراسمالية ، لان هذه المناهج ـ التي اكملت بالتدريج خلال المراحل المتعاقبة من التطور الاقتصادي ـ ليست نتاجا لنظام معين . وانما المسالة هي ان العوامل الاقتصادية والسياسية والايديولوجية التي كانت تعوق تطبيقها الكلي تزول .

ومع الاشتراكية كما يقول انجلز :

« سيبدأ عصر جديد في التاريخ ، تحقق فيه البشرية ذاتها ، ومع البشرية كل فروع نشاطها ، وبخاصة العلم الطبيعي ، تقدماً يلقي بكل ما سبقه في اكثر الظلال سوادا »(١٠) .

علم المجتمع :

استطاع العلم البرجوازي ان ينفذ بعمق الى قوانين العمليات الطبيعية لان البرجوازية كانت بحاجة الى مثل هذه المعرفة من اجل ارباحها . فالراسماليون لا يريدون اقاصيص جنيات عن الكهرباء مثلا وانما يريدون معرفة بقوانينها الواقعية (وان كانت ايديولوجيتهم تظل تدفعهم الى قبول عدد ليس بالقليل من اقاصيص الجنيات) . اما عن قوانين التطور الاجتماعي فان الراسماليين ـ وان كانوا قد يستخدمون كميات كبيرة من المعطيات السطحية ـ لا يعترفون ابدا بها ، لان مثل هذا الاعتراف

(٩) سنالين « خطاب في المؤتمر الاول للاستخانوفيين » .
(١٠) انجلز « جدليات الطبيعة » .

سيقود مباشرة الى استخلاص انهيارهم وانهيار نظامهم باسره .

وايـــا كانت انجازات العلوم الطبيعية في المجتمع الراسمالي فان اكبر القيود التي يضعها هـــذا المجتمع على تطور العلوم هو الانفصال بين العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي . فليس هناك علم موحـــد ، وانما هناك علوم طبيعية ، دون علم للمجتمع ومن ثـــم دون معرفة علمية بكيفية تطوير العلوم وتطبيقها في خدمة البشرية .

ولم يبدا وضع العلم الاجتماعي على اساس متين ، واكتشاف القوانين الاســـاسية لتطور المجتمع ، الا مع بداية النضال من اجل الاشتراكية ، وهو لا يستمر الا في ارتباط بهذا النضال ثـــم مع البناء الفعلي للمجتمع الاشتراكي . ويتطور علم المجتمع مع تطور النظريـــة العلمية التي ترشـــد نضال الطبقة العاملة مـــن اجل الاشتراكية . انـــه ينشا ويتطور كاســـاس نظـــري للتصورات الاجتماعية للطبقة العـــاملة .

وقـــد بلغ العلم الاجتماعي البرجوازي ارقى تطور لـــه في أعمال الباحثين الانكليزيين آدم سميث ودافيد ريكـــاردو اللذين ارست ابحاثهما في قوانين الانتاج وتوزيع وســـائل المعيشة في المجتمع الانـــساني اســـس علم الاقتصاد السياسي ، علم الاســـاس الاقتصادي للمجتمع . وقـــد اجريت هذه الابحاث لخـــدمة احتياجات ادارة الاقتصاد الراسمالي الوليد . لكن ظروف تطور الحكم البرجوازي والاستغـــلال البرجـــوازي كبحت اي تقـــدم لاحق للبـــاحثين البرجوازيـــين ، فلـــم يكـــونوا يستطيعون ان يمضـــوا ـ كما فعل ماركس ـ ليزيحوا الغطاء ـ باكتشاف فائض القيمة ـ عن ســـر الاستغلال الراسمالي .

وانهمك الاقتصـــاد البرجوازي وعلم الاجتمـــاع انبرجوازي اللاحق عمومـــا في تجميع اكوام واسعة من الوقـــائع والعلاقات بين الوقائع ، كما جمع قدرا كبيرا من المعرفة العلمية عن كيفية تسيير النظام الراسمالي ، لكنه تجنب بداب البحث في علاقـــات الانتاج الواقعية التي تقوم عليها هذه الوقائع ، والتي لا يمكن فهم هـــذه

الوقائع الا انطلاقا منها ، واحلت محل ذلك تفسيرات سطحية او زائفة .

وما قاله ماركس عن الاقتصاد البرجوازي « المبتذل » يمكن ان يقال عن العلم الاجتماعي البرجوازي عموما ، انه :

« يتناول المظاهر وحدها ... ويبحث عن تفسيرات مقبولة لأكثر الظواهر بروزا في الاستخدام البرجوازي اليومي ؛ لكنه فيما عدا هذا ينحصر في ان ينظم بطريقة متحذلقة ؛ ومع اعلانها حقائق ابدية ، تلك الافكار الرثة التي تعتنقها البرجوازية الراضية عن نفسها تجاه عالمها الذي هو افضل العوالم الممكنة بالنسبة لها »(١١) .

ومع مثل هذا العلم

« لم تعد المسألة هي ما اذا كانت هذه النظرية او تلك صحيحة وانما ما اذا كانت مفيدة لراس المال او ضارة ، ملائمة او غير ملائمة ، خطيرة سياسيا او غير خطيرة . وبدلا من الباحثين المنزهين اصبح هناك مصارعون محترفون ماجورون ، وبدلا من البحث العلمي الاصيل ، سوء قصد المدافعين ونواياهم الشريرة »(١٢) .

وهكذا فاذا كانت هناك ابحاث برجوازية ترسي الكثير من الوقائع وعددا من القوانين المعزولة السطحية للعلم الاجتماعي فليس هناك ـ ولا يمكن ان يكون هناك ـ علم برجوازي للمجتمع يشمل القوانين الاساسية وانما فقط علم ماركسي اشتراكي للمجتمع . ولم تكن اكتشافات ماركس عن القوانين الاساسية للتطور الاجتماعي ممكنة الا لانه اتخذ وجهة نظر مضادة للمجتمع الراسمالي ، ولانه ادرك الدور الثوري للطبقة العاملة . وضرورة احلال الاشتراكية محل الراسمالية . وقد ارسى بهذه الاكتشافات

---

(١١) ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الاول ـ القسم الرابع ـ الهامش .

(١٢) ماركس « راس المال » ـ مقدمة الطبعة الثانية .

أساس العلم الاجتماعي كما ارسى غاليليو ونيوتن اســـاس العلم الفيزيائي ، أو شوان وداروين اســـاس علم الحياة .

نهاية الايديولوجية القديمة :

لان الحركة الاشتراكية تطور التصورات العلمية عن المجتمع والعلاقـــات الاجتماعية وقوانين التطور الاجتماعي ، فانها بحكم ذلـــك تعارض الاوهام الايديولوجية ، وتبدأ في تحطيمها .

وتضع الحركة الاشتراكية الافكـــار العلمية في مواجهة الافكار الايديـــولوجية المسبقة للطبقـــات المستغِلة . وبعبارة اخرى ففي النضـــال من اجل الاشتراكية تطرح الافكـــار العلمية ضد الاوهـــام القديمة . ويحمل هدف اقـــامة مجتمع دون استغلال معه النضال من اجل انهاء الاوهام الايديولوجية مـــن كل نوع واحـــلال العلم محلها ــ وبعبارة اخرى تطوير ايديولوجية علمية كلية .

وبدلا من تطوير وعي زائف يتطلب النضال من اجل الاشتراكية الجهد لتصور الاشياء كما هي عليه وليس في صلات خيالية . بدلا من استخدام افكـــار موهومة لستر العلاقـــات الاجتماعية الواقعية والدوافع الاجتمـــاعية الواقعية لخـــدمة استغـــلال طبقةلاخرى، يتطلب النضـــال من اجل الاشتراكية افكـــارا صـــادقة لخدمة انهـــاء كل استغلال ، واشباع احتياجـــات المجتمع باسره .

ولا بد لحزب الطبقة العاملة في نضاله في ظل الراسمالية من ان يكافح باستمرار للقضاء على نفوذ الايديولوجية الراسمالية فـــي صفوفه ووسط صفوف الشعب العامل ، وان يقيم كل سيـــاسته وعمله الجماهيري ودعـــايته على النظرية العلمية ، ويربي الحركة باسرها على هذه النظرية . وعلى عكس افكـــار الطبقات المستغِلة فـــان نظرة الطبقة العاملة الى المجتمع ــ التي تخـــدم نضال الطبقة العاملة ــ لا تنشأ ولا يمكن ان تنشأ عفويـــا كايديولوجية طبقية وانما تنشأ وتتطور كعلم .

وحـــين تنتزع الطبقة العـــاملة الســـلطة وتقود بنـــاء المجتمع الاشتراكي تطرح مهمة القضـــاء النهائي على كل بقايـــا الايديولوجية

القديمة في كل مناحي الحياة الاجتماعية . ولا بد ان يتقدم المجتمع بأسره من التصورات الايديولوجية الخاطئة الى النظرة العلمية .

وهذا التقدم ممكن وضروري لأن ايديولوجيات المجتمع القديم القائم على الاستغلال بما فيها من وعي زائف وتعمية تفقد اساسها حين تظهر الاشتراكية الى الوجود .

ففي ظل الاشتراكية تكون وسائل الانتاج مملوكة ملكية عامة او تعاونية ، وينظم الانتاج ويخطط بوعي ، فلأي نوع من الافكار اذن يوفر الاقتصاد الاشتراكي الاساس ؟ بالتحديد للأفكار العلمية ، التي تتطور خلال توسيع الفهم العلمي للانسان وظروف حياته . فمثل هذه الافكار وحدها هي التي يمكن ان تخدم دعم اساس الاقتصاد الاشتراكي وتطوره ، لأن هذه الغاية لا يمكن ان تخدمها افكار تعمي الناس وتضللهم ، ان نجاحها يتطلب معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع ، ووعيا اجتماعيا مزودا بهذه المعرفة .

ومن هنا فحيثما تستمر اشكال الوعي الاخرى في المجتمع الاشتراكي فانها لا تعدو ان تكون بقايا للظروف القديمة ، تسيء الى دعم النظام الاشتراكي وتطوره . ومن ثم فلا بد من مكافحتها بنشاط ، ولا بد في النهاية ان تخلي المكان وتختفي امام الوعي الاشتراكي العلمي الجديد .

واطول الاوهام عمرا هي اوهام الدين ـ وهي ايضا اقدمها . وطالما ظلت اعداد من الناس فقيرة وجاهلة نسبيا فسيبقى بعض الاساس للأوهام الدينية . وفضلا عن ذلك فان شكلا دينيا يمكن ايضا ان يغفى على التطلعات الاشتراكية ، وبهذا الصدد يمكن للدين ـ في ظل ظروف معينة ـ ان يلعب حتى دورا ايجابيا مساعدا في بناء الاشتراكية كما نرى في الكنائس بعد الاصلاح في البلدان الاشتراكية .

يقول ماركس :

« ان الانعكاس الديني للعالم الواقعي لا يمكن باي حال ان يختفي نهائيا الا حين لا توفر العلاقات العلمية للحياة اليومية للانسان سوى علاقات مفهومة معقولة تجاه زملائه

من البشر وتجـاه الطبيعة .

« فعملية حيـاة المجتمع ، القـائمة على عملية الانتاج المـادي ، لا تنزع عنها قناعها الصوفي حتى تعـامل كانتاج لانـاس يرتبطون ارتباطا حرا ، وحتى ينظموها بوعي وفق خطة موضوعة »(١٣) .

فالحق انه حين يقوم بعملية حياة المجتمع انـاس مرتبطون ارتباطا حرا وفقا لخطة موضوعة ، وبالتالي حين لا ينخرط الناس الا في علاقـات مفهومة ومعقولة تماما بزملائهم من البشر وبالطبيعة فـان من الطبيعي تماما الا يبقى اسـاس لأية أوهام عن ظروف الحياة البشرية ، ولأي تعمية ، ويطرح الوعي الانـساني عنه فـي النهاية مثل هذه التعمية والاوهام .

الاسس العلمية للوعي الشيوعي :

الوعي الشيوعي الجديد ـ الذي يتحقق كاسلوب كلي للوعي في المجتمع الشيوعي ـ هو وعي انـاس شيوعيين جدد ـ وعي انـاس عاملين لم يعرفوا الاستغلال ابدا ، وهم سـادة بلادهم ، يعيشون بالتعاون ، متخلصون من الفردية الانانية للمالك الخاص . ان الوجود الواعي لمثل هؤلاء الناس لا يتطلب اوهاما ايديولوجية ، بالعكس انه يتطلب وعيا واضحا لا تشوبه غيوم ، يزداد على الدوام ثراء ويتطور نتيجة البحث الحر والمناقشة والنقد .

ويفترض هذا معرفة المجتمع وقوانينه ، وكيفية استخـدام هذه القوانين لصالح المجتمع ، ومعرفة الطبيعة وكيف نجعلها تخدم الانسان ـ ويمثل الجانبان جزئين لكل متطور واحـد من المعرفة العلمية .

ففي المجتمع الشيوعي لا يعود ثمة انفصـال بين العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي . يقول ماركس :

---

(١٣) ماركس « راس المـال » ـ المجلد الاول ـ الفصل الاول ـ القسم الاول .

« ولا يكون العلم علما حقا الا حين يبدأ من الطبيعة . . والتاريخ نفسه جزء حقيقي من التاريخ الطبيعي ، من تطور الطبيعة الى انسان . وفيما بعد سيشمل العلم الطبيعي علم الانسان بنفس الطريقة التي يشمل بها علم الانسان العلم الطبيعي . ويكون هناك علم واحد »(١٤) .

ولاحظ ماركس أن « الانسان » او المجتمع يصبح في هذا « العلم الواحد » « موضوعا للوعي المادي » ، اي ان تصور الانسان والمجتمع يفقد طابعه الايديولوجي الموهوم السابق، ويصبح قائما على العلم تماما كتصور الطبيعة. وبالمثل « تصبح الاحتياجات الارقى « للانسان كانسان » احتياجات حقيقية » ، اي ان تصور احتياجات الانسان يصبح قائما على احتياجاته الحقيقية وليس على افكار موهومة عن « الاحتياجات الارقى للانسان » تعبّر في الواقع عن ايديولوجية الطبقات المستغِلة التي تخنق اشباع الاحتياجات الحقيقية للجماهير. وتشمل هذه الاحتياجات الحقيقية التي تتطور على اساس حياة المجتمع المادية احتياجات تزيد كثيرا عن الاحتياجات الجسدية الاولية ، فعلى هذا الاساس تنشأ الاحتياجات الى الثقافة والمعرفة والزمالة

ان السمة الاساسية لـ « الانسان كانسان » ، للانسان ككائن متميز عن الحيوان ، هي خلق احتياجاته واشباعها خلال السيطرة على الطبيعة . وفي المجتمع القائم على الاستغلال تنتج جماهير الشعب لصالح آخرين وليس لصالح انفسهم ، ولا يشبع سوى الحد الادنى من احتياجاتهم الجسدية او الحيوانية ، ومن هنا ينكر عليهم الوجود الانساني الحق ، وتعويضا عن ذلك تصور « احتياجاتهم الارقى » وكأنها تنتمي الى حياة روحية ما ، منفصلة عن الحياة المادية . اما في المجتمع الشيوعي ـ حين يلغى استغلال الانسان للانسان ـ فان كل احتياجات الناس المادية

---

(١٤) « مخطوطات كارل ماركس » ـ ترجمة محمد مستجير مصطفى ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ ـ ص١٠٢ .

والروحية يمكن ان تفهم باعتبارها نـاشئة عن سيطرتهم التعاونية على الطبيعة ، وباعتبار انهـا تشبع على اساس التوسيع والاكمال المستمرين للانتاج الاجتماعي .

ومن هنا فنتيجة لتطور الاشتراكية يظهر في النهاية ان العلم يلعب الدور المحدد في تشكيل كل نظرة الناس . وحينئذ يكـون الناس قـد اطلقوا ايديهم لارسـاء معرفتهم وسيطرتهم على كل جوانب حياتهم ، من اجل الرفاهية والسعادة . وتحقيق اكتمال الحياة .

الجزء الثالث

الحقيقة والهوية

الفصل العاشر

الحقيقة

الحقيقة المطلقة والحقيقة الجزئية :

راينا انه في تطور افكارنا تظهر كل انواع الاوهام ، ولكن تظهر ايضا الحقيقة . فما هي الحقيقة اذن ؟ انها التوافق بين الافكار والواقع الموضوعي .

ولا يتحقق مثل هذا التوافق بين افكارنا والواقع الا بالتدريج ، ثم ان مثل هذا التوافق لا يكون اكثر من توافق جزئي غير كامل . لان فكرة ما قد لا تتوافق في كل الجوانب مع موضوعها وانما تتوافق جزئيا فحسب ، وقد يكون في الموضوع كثير مما لم تصوره الفكرة على الاطلاق ، بحيث تكون الفكرة وتوافقها مع الموضوع غير كاملين . وفي مثل هذه الحالات ينبغي الا نقول ان فكرتنا كانت زائفة ، لكنها ايضا لن تكون صادقة صدقا مطلقا ـ اي صادقة بشكل كامل ومن كل النواحي . فالحقيقة اذن ليست صفة تتوفر في فكرة او قضية ما او لا تتوفر ، فقد تتوفر في فكرة ما ، الى درجة ما ، وفي حدود ما ، ونواحٍ ما .

وليس من شك بالطبع في ان بعض القضايا صادقة صدقا مطلقا : لقد تأكدت تماما لنا حتى لنستطيع ان نؤكدها بثقة .

وينطبق هذا مثلا على كثير من العبارات التي تصور وقائع خاصة . لقد كانت هذه الوقائع صحيحة ، وبالتالي فان القضايا

التي تقرر هذه الواقعة حقيقة مطلقة .

وبعض العبارات العامة ايضا حقيقة مطلقة ، وقد قدم لينين مثالين لهما في كتابه « المادية والنقد التجريبي » ـ لا يمكن ان يعيش الناس دون ان ياكلوا ، والحب الافلاطوني وحده لا ينجب اطفالا . ان هاتين العبارتين العامتين تتوافقان مع الوقائع ، وتوافقهما مطلق . وهناك الكثير من مثل هذه العبارات العامة التي لا يثور شك في نصيبها من الحقيقة المطلقة .

لكن اغلب العبارات التي نستخدمها لا يمكن ان يقال عنها حقيقة مطلقة بهذه الطريقة . لاننا عموما لا نقصر عباراتنا على « البدهيات » والتاكيد الجاف لوقائع مقررة . فكثير من العبارات التي نستخدمها ـ سواء عن وقائع خاصة او عن استخلاصات عامة ـ قد تكون صادقة من زوايا معينة لكنها ليست حقيقة مطلقة. بمعنى التوافق المطلق بين العبارة والواقع . بالعكس انها تحتاج الى تصحيح وتحسين واعادة صياغة في ضوء الخبرة الجديدة والمعرفة الجديدة . لكنها ليست لهذا السبب غير صادقة ، انها حقائق جزئية ، نسبية ، تقريبية .

وهذه الخاصية من خواص الحقيقة ـ وهي انها في الاغلب جزئية وليست مطلقة ، تقريبية وليست دقيقة ، مؤقتة وليست نهائية ـ معروفة تماما في العلم . فمن المؤكد ان القوانين التي يقيمها العلم تعكس عمليات موضوعية ، وتتوافق مع الحركة الواقعية والصلة المتداخلة الواقعية للأشياء في العالم الخارجي . غير ان العلم لم يرس الا القليل من القوانين التي يمكن ان تزعم انها حقائق مطلقة .

وعلى سبيل المثال نحن نعرف الآن ان قوانين الميكانيكا الكلاسيكية التي تصوغ مبادىء التفاعل الميكانيكي بين الاجسام ، وتطبق باستمرار وبثقة في كل انواع المشروعات الهندسية لا تتوافق مع حركة المادة على المستوى دون الذرى . وبعبارة اخرى انها ليست حقائق مطلقة . لكننا لا نقول ـ لهذا السبب ـ إنّ الميكانيكا الكلاسيكية قد اتضح الآن زيفها . ان ميكانيكيا الكم توفر تقريبا افضل من الميكانيكيا الكلاسيكية ، لأن قوانينها لا تتوافق فحسب

مع حركة المادة على المستوى دون الذرى بل تشمل كذلك قوانين الميكانيكا الكلاسيكية كحالات مقيدة ، ولكن حتى هنا لا يستطيع اي عالم ان يزعم أن ميكانيكا الكم بدورها حقيقة مطلقة .

والعلم ـ بشكل عام ـ لا تعنيه الحقيقة المطلقة . فالحق انه ما ان تؤكد قضية ما كحقيقة مطلقة حتى توضع نهاية للمزيد من البحث ، فلو وصلنا الى الحقيقة المطلقة فليس ثمة مجال للمزيد من البحث . ومن ثم فان زعم ارساء الحقيقة المطلقة مناقض عمليا للعلم ، لأن مثل هذا الزعم لا بد من ان يمنعنا عن اجراء المزيد من البحث ، عن التقدم بمعرفتنا ، عن الانطلاق من حقيقة اقل قربا الى حقيقة اكثر قربا ، وبعبارة اخرى ، عن متابعة العلم .

يقول انجلز :

« ومن هنا فان الاعمال العلمية حقا تتحاشى تعبيرات دوغماتيكية اخلاقية مثل الخطأ والصواب ، في حين نلتقي بهذه العبارات في كل مكان في الاعمال ... التي تحاول فيها الثرثرة الجوفاء ان تفرض نفسها علينا كنتيجة سامية لفكر سام »(١) .

الحقيقة والخطأ :

اذا اعترفنا بأنه خارج مجال ضيق للغاية من العبارات عن وقائع لا شك فيها فان حقيقة اي عبارة هي دائما جزئية تقريبية مؤقتة فحسب ، فسيترتب على ذلك أن نكون على استعداد دائما لان نصحح عباراتنا ونعدلها في ضوء الخبرة الجديدة .

بل اكثر من هذا ، فحين تنشأ خبرة جديدة تدعو الى تصحيح عبارات معينة وتعديلها ، فان الاصرار على مواصلة تأكيدها في شكلها القديم غير المعدل يعني انها تتحول من حقيقة الى زيف في

(١) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل السابع .

الظروف الجديدة .

وعلى سبيل المثال فان قوانين الميكانيكا الكلاسيكية ما زالت على صحتها بالنسبة لأغلب الاغراض الهندسية ، ولا يقترح احد الاستغناء عنها ونبذها كقوانين زائفة . ولكن ما دامت الخبرة قد اوضحت انها لا تنطبق ـ دون تعديل ـ على كل حركات المادة المعروفة فسيترتب على ذلك تأكيد ان قوانين نيوتن تنطبق دون تحفظ على كل مادة في حركة يعني تأكيد امر غير حقيقي .

فالحقيقة التقريبية المؤقتة ـ التي يمكن ان تكون صادقة تماما في حدود معينة ـ يمكن اذن ان تصبح غير صادقة اذا طبقت خارج هذه الحدود .

ومثال آخر . اكد ماركس وانجلز انه حين يقوم المجتمع الاشتراكي فان الدولة ستذبل في النهاية . وكانت هذه ولا تزال حقيقة ـ لكنها ليست حقيقة دون تحفظ ، ولم يكن في وسع ماركس وانجلز ان يضعا التحفظات اذ كانا يفتقران الى الخبرة الكافية . لكن خبرة بناء الاشتراكية في بلد واحد ـ الاتحاد السوفياتي ـ بينت انه طالما ظلت البلدان الاشتراكية والراسمالية تتعايش فلا بد ان تظل الدولة موجودة في البلدان الاشتراكية . ولا يمكن ان تذبل الدولة في النهاية الا حين تقام الاشتراكية على النطاق العالمي . وينتج عن ذلك ان تاكيدنا الآن ودون تحفظ ان الدولة ستذبل حين تقام الاشتراكية يعني تأكيد شيء زائف ، بل الحق اننا لا نؤكد شيئا زائفا فحسب ، بل شيئا ضارا تماما بالنسبة للبلدان الاشتراكية القائمة : لأن مثل هذا الزعم يقود الى الافتقار الى الاهتمام بتعزيز الدولة الاشتراكية ، ومن ثم الى امكانية اضعاف الدولة الاشتراكية ، وانتهاز الراسماليين لهذا الضعف للتدخل والاطاحة بالنظام الاشتراكي .

ويبين هذا ـ كما قال انجلز في « انتي ـ دوهرينغ » ـ ان :

« الحقيقة والخطأ ككل المفهومات التي يعبر عنها في اقطاب متضادة ، ليست لهما صحة مطلقة الا في مجال محدود للغاية ... وحالما نطبق هذا التضاد بين الحقيقة

والخطأ خارج هذا المجال الضيق ... فان كلا من قطبي التضاد يتحول الى ضده ، وتصبح الحقيقة خطأ والخطأ حقيقة » .

وكما ان الحقائق في اغلبها ليست الا تقريبية وتحوي امكانية التحول الى خطأ فاننا نجد ان كثيرا من الاخطاء ليست زيفا مطلقا بل تحوي بذرة حقيقة .

فايا كان ما يقوله الناس فانهم يقولونه بعبارات من الخبرات والافكار المتاحة لهم ، وينتج عن ذلك انهم وان كانوا قد ينتهون الى عبارات خاطئة تماما فقد يحدث ان تعكس هذه العبارات الخاطئة ـ وان يكن بشكل خاطىء ـ شيئا هو في الواقع صحيح .

وعلى سبيل المثال كان البيورتيان في الثورة الانكليزية يقولون انهم الصفوة التي اختارها الرب . ولكن حتى هذا كان يحوي بذرة حقيقة هي ، انهم كانوا في الواقع القوة الاجتماعية التقدمية الصاعدة المقيض لها ان تطيح بالقوى المنهارة في المجتمع القديم . ومن المؤكد ان افكارهم عن انهم « الصورة التي اختارها الرب » كانت خاطئة ، لكن هذه كانت طريقتهم في التعبير عن شيء لا شك في صحته .

وبالمثل فان كثيرا من الافكار الخاطئة في العلم والفلسفة التي كان لا بد لا من تعديلها بل من نبذها كاخطاء ، كانت تخفي قدرا من الحقيقة وجد عنه تعبيرا خاطئا مشوها في هذه الافكار .

وبشكل عام فان الاخطاء التي لا تعدو ان تكون اخطاء واضحة صريحة ولا شيء آخر ـ الاخطاء التي لا تحتوي عنصرا من الحقيقة على الاطلاق ـ اقل اهمية واسهل في التخلص منها من الاخطاء التي لها اساس معين في الوقائع . فالاولى يمكن ان تدحض بايضاح الوقائع التي تتناقض معها ، او يمكن ان تفضح كمحض هراء ، اما الثانية فهي اقدر على ان تكون اكثر تاثيرا ، وبالتالي اشد خطورة . ولا يكفي لدحض مثل هذه الاخطاء ان ننبذها وننحيها جانبا بل لا بد ان نوضح كيف شوهت الحقيقة فيها ، وان نعيد صياغة هذه الحقيقة متخلصة من التشويه .

وهـذا يوضح مـا عناه لينين حـين كتب في « الملاحظـات الفلسـفية » يقول :

« ليست المثالية الفلسفية هراء الا من وجهة نظـر المادية الميتافيزيقية ، المادية الفجة الساذجة . ومن الناحية الاخرى فان المثالية الفلسفية ـ من وجهة نظر المادية الجدلية هي ... تطوير ... احـادي ... مبالغ فيه لاحد سمات المعرفة ، وجوانبها ، واوجهها ، الى مطلق ، منفصل عـن المـادة ، عن الطبيعة ، ومؤلـه . المثالية هي الكهنوتية ؛ هذا صحيح ، لكن المثالية الفلسفية ... طريق الى الكهنوتية عبر احـد الظلال لانهائية التعقيد ... لمعرفة ... الانسـان ... انها ليست شيئا لا اسـاس له ، انها زهرة عقيمة بلا شك ، لكنها زهرة عقيمة تنمـو على الشجرة الحية ... شجـرة المعرفة الانسـانية » .

ومن هنا ينبغي ان نعترف بـان آراء خاطئة مـا ـ بما فيها الاراء المثالية ـ يمكن ان تمثل في عصرها اسهاما في الحقيقة ؛ لانها ربما كانت الطريقة الوحيدة التي يمكن بها لحقائق معينة ان تجـد تعبيرا اول عنها . لكن هذا لا يعني ان بنا ادنى حـاجة لاستخدام مثل هذه الآراء الخاطئة حالما نستطيع تبين خطئها . فعلى سبيل المثال قـدم المثاليون اسهاما في الفلسفة : لكن هذا لا يعني ان بنا ادنى حاجة لاستخدام الفلسـفة المثالية اليوم ، في ظروفنا الحالية ، حـين يمكن التعبير عن حقـائق كتلـك التي عبرت عنها المثالية ـ بصورة افضل بدونها، وحين يمكن انتفضح تماما التشويه والزيف الجوهريين اللذين تحويهما المثالية .

نسبية الحقيقة :

راينا اذن ان اغلب الحقائق جزئية غير كاملة ، واننا نجـد الخطا في الحقيقة والحقيقة في الخطا . ومن هنا فـاننا نمتلك عموما في كل موضوع قدراً من الحقيقة وليس الحقيقة المطلقة . ويتوقف

مقدار الحقيقة الذي نستطيع بلوغه عن اي شيء . وفي اي وقت معين ، وكيف نعبر عنه ـ باي عبارات والى اي درجة من الكفاية ـ على الوسائل المتاحة في ذلك الوقت لاكتشاف الحقيقة والتعبير عنها .

والحقيقة دائما تتناسب مع الوسائل المعنية التي توصلنا اليها بها ؛ ونحن لا نستطيع ان نعبر عن حقيقة الاشياء الا بعبارات من خبرتنا الذاتية بها ، والعمليات التي توصلنا بها الى معرفتها .

لكن هذه الحقيقة ـ في الوقت نفسه ـ تتصل بالعالم المادي الموضوعي ، وتشكل انعكاسا يتزايد كفاية للخواص والقوانين الواقعية لحركة الاشياء والعمليات الموضوعية .

ومن هنا ففي حين يتوقف شكل التعبير عن الحقيقة ، وحدود قربها من الواقع الموضوعي ، علينا نحن ؛ فان مضمونها ، ما تدور حوله ، الواقع الموضوعي الذي تتوافق معه ، لا يتوقف علينا .

وبهذا المعنى فان ثمة عنصرا من كل من النسبية والاطلاق ، من الذاتية والموضوعية ، في كل حقيقة . فالحقيقة نسبية من حيث انها تجد تعبيرا عنها في عبارات تتوقف على الظروف المعنية والخبرة ووسائل بلوغ الحقيقة لدى من يصوغونها ؛ وهي مطلقة من حيث ان ما يعبر عنه او يصور في هذه العبارات هو واقع موضوعي ، يوجد مستقلا عن معرفة الانسان به .

واذا نحن لم نؤكد الا جانب النسبية فستظهر المثالية الذاتية والنزعة النسبية التي لا ترتبط الحقيقة ـ لديها ـ الا بملاحظاتنا وعملياتنا وحدها ، وليس بالعالم الموضوعي ؛ التي يقال ان طبيعته غير قابلة للمعرفة ولا للتعبير عنها . وعلى سبيل المثال يلاحظ سير آرثر ادينغتون ان معرفتنا عن الذرة مستمدة اساسا من ملاحظات قراءات المؤشرات والومضات على الشاشة ـ لان هذه هي الدلائل التي يتيحها الجهاز المستخدم لاستكشاف العالم الذري ـ فيستخلص اننا لا نعرف في الواقع شيئا عن الذرات الموجودة في العالم الموضوعي وانما عن « قراءات المؤشرات وما شابه ذلك من

دلائل »(٢) .

امـا اذا نحن ـ من الناحية الاخرى ـ لـم نؤكد الا الجانب الآخر ، جانب الاطلاق او الموضوعية فسنصل الى الدوغماتيكية . وهكذا مثلا قرر علماء الفيزيـاء القدامى ـ الممتلئون ثقة بـان نظرياتهم الفيزيـائية تعكس فعلا الواقع المادي الموضوعي ـ ان العالم لا يتالف الا مـن جزيئات صلبة صغيرة اشبه بكرات بلياردو ميكروسكوبية ، وانه لا يوجـد نوع آخر من الواقع المادي .

وواضح ان علينا ان نـاخذ في الاعتبار ان الحقيقة انعكاس للواقع الموضوعي وان هذا الانعكـاس محكـوم في الوقت نفسه ومحدود بالظروف الخاصة التي خلق فيها .

يقول لينين :

« وبالنسبة للمادية الجدلية ليس ثمة حـد لا اجتياز له بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ... فلا شك ان مـادية ماركس وانجلز الجدلية تحوي نزعة نسبية لكنها لا يمكن ان تختزل الى نزعة نسبية ، ذلـك انها تدرك نسبية كل معرفتنا لا بمعنى انكار الحقيقة الموضوعية ، وانما بمعنى الطبيعة المحكومة تاريخيا لحـدود اقتراب معرفتنا من هذه الحقيقة »(٣) .

وتساءل لينين : « هل توجـد حقيقة موضوعية ؟ » واوضح انه لا بد ان نميز بين مسالتين ولا نخلط بينهما :

« ١ ـ هل هنـاك حقيقة موضوعية ، اي هل يمكن للأفكار الانسانية ان يكون لها مضمون لا يتوقف على ذات ، لا يتوقف على كائن انساني او على الانسانية ؟

« ٢ ـ واذا كـان الامر كذلـك فهل يمكن للأفكـار الانسانية ، التي تعبّر عن الحقيقة الموضوعية ان تعبر عنها كلها في وقت واحـد ، ككل ، بصورة غير مشروطة ، مطلقة ،

---

(٢) سير آرثر ادينغتون « طبيعة العالم الفيزيـائي » ـ الفصل الثاني عشر .
(٣) ف. ا. لينين « المـادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثاني .

ام تعبر عنها فحسب بصورة تقريبية ، نسبية ؟ » .
والاجابة على هذين السؤالين واضحة :

١ ـ نعم يمكن أن يكون للأفكار الانسانية ، ولها بالفعل ، مضمون لا يتوقف على اناس معينين او على الانسانية عموما لان هذه الافكار تصور الواقع الموضوعي الذي يوجد مستقلا عن افكار اي شخص .

٢ ـ وهذه الافكار لا تصور الواقع الموضوعي في كليته ، وبامانة كاملة ، وانما بصورة تقريبية ، وبما يتناسب مع الطرق التي امكن للناس ان يكتشفوا فيها الحقيقة ويعبروا عنها .

ولما كانت الحقيقة هي توافق الافكار مع الواقع الموضوعي فان من الواضح ان علينا دائما ان نتعامل مع كلا جانبي العلاقة ـ الذات والموضوع معا . فمن ناحية هناك الواقع الموضوعي ، الذي لا يتوقف باي حال على الافكار التي يمكن ان تتشكل عنه ، ومن ناحية أخرى تتشكل الافكار في عملية النشاط الانساني ، ومن ثم فانها محكومة بطبيعة النشاط الذي تنتج عنه . ويتوقف الشكل الذي تعبّر به افكارنا عن الواقع ، ومدى قربه ، علينا وعلى نشاطنا ـ اي على العامل الذاتي ، لكن ما يجد تعبيرا عنه في افكارنا ، مضمونها ، ما تدور حوله ، لا يتوقف على اي عامل ذاتي ، وانما يشكل كما عبّر لينين في نفس الفصل

« مقياسا او نموذجا له وجود موضوعي ويوجد مستقلا عن الانسانية وتقترب منه معرفتنا النسبية » .

الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية : السببية والمكان والزمان :

وكمثال للطريقة التي تجد بها الحقيقة المطلقة تعبيرا عنها خلال حقيقة نسبية يمكن ان ندرس مفهومات السببية والمكان والزمان .

تنتج افكارنا عن السببية في الطبيعة كنتيجة لخبراتنا في

التعامل مع الموضوعات الطبيعية . فنحن نتعلم من الخبرة اننا انفسنا نستطيع ان نحدث تغييرات في الطبيعة بطريقة منظمة ، وعلى هذا الاساس نصوغ افكارا عن العلاقات السببية وقانون السببية . وهكذا فان الطريقة التي نصل بها الى ادراك السببية ، والافكار التي نعبر بها من وقت لآخر عن الصلات السببية ، مشروطة ذاتيا . فمع تطور الانتاج والعلاقات الاجتماعية وأوجه النشاط الاجتماعي تعدل مفهوم السببية وتغير ــ وكانت النزعة الحيوية ، والاسباب النهائية ، والتفاعل الميكانيكي ، والتفاعل الجدلي مراحل في تطور فكرة السببية .

ولكن في حين ان افكارنا عن السببية تنشأ عن خبرتنا ، وتتوقف على طبيعة هذه الخبرة فان وجود السببية في الطبيعة واقعة موضوعية ، مستقلة تماما عنا وعن خبرتنا ، فلاننا كذوات نمارس قدرتنا على احداث تغيرات في الموضوعات الخارجية ، ونمارس بالمثل القدرة القاهرة لهذه الموضوعات علينا ، استطعنا ان نصل الى فكرة السببية . وتنضج هذه الفكرة وتتطور مع تطور الحياة الاجتماعية . لكن الواقع الذي يتوافق مع هذه الفكرة ، والذي يصور بدرجة او اخرى من الكفاية في افكارنا عن الصلات السببية ، واقع موضوعي ، مستقل عنا ، ومستقل عن اي علاقة بين الذات والموضوع .

ولا تؤكد المثالية سوى الجانب الذاتي لفكرة السببية . وقد زعم الفلاسفة المثاليون ان السببية انما ابتدعت لاقامة نظام عقلاني في خبرتنا ، ثم نسبت بعد ذلك خطأ للعالم الخارجي المستقل عن الخبرة . ولكن على عكس المثالية فان

« ادراك القانون الموضوعي في الطبيعة ، وادراك ان هذا القانون ينعكس بامانة تقريبية في ذهن الانسان ، هو المادية »(٤) .

والامر هو نفسه بالنسبة لمفهومي المكان والزمان . فانطلاقا

(٤) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ــ الفصل الثالث .

من ادراكاتنا الحسية لمرور الزمن وللخصائص المكانية والعلاقات بين الاشياء ، ومن اكتشاف مناهج التعبير عن الخواص والعلاقات المكانية والزمانية بين الاشياء بواسطة المقاييس . تطورت مفاهيمنا العامة عن المكان والزمان ونضجت بالتدريج . ومفهوم المكان والزمان يتناسب دائما مع الخبرة الانسانية ، لكن المكان والزمان لا يتوقفان على الخبرة الانسانية. بالعكس « ان الشكلين الاساسيين لكل وجودهما المكان والزمان »(٥) ، والمفهومات الانسانية عن المكان والزمان هي دائما انعكاسات تقريبية للعلاقات المكانية والزمانية الواقعية .

يقول لينين :

« والمادية اذ تدرك وجود الواقع الموضوعي اي المادة في حركة ، مستقلة عن ذهننا ، لا بد حتما ان تدرك الواقع الموضوعي للمكان والزمان ... وتغير المفهومات الانسانية عن المكان والزمان لا يدحض باي حال الواقع الموضوعي للمكان والزمان الا بقدر ما يدحض تغير المعرفة العلمية لبنية واشكال المادة في الحركة الواقع الموضوعي للعالم الخارجي ... فكيفية ادراك الانسان ـ بواسطة مختلف الحواس ـ للمكان ، وكيفية استنباطه من هذه الادراكات في مجرى التطور التاريخي الطويل لافكار مجردة عن المكان شيء ، ووجود واقع موضوعي مستقل عن البشرية ويتوافق مع مدركات البشرية ومفهوماتها شيء مختلف تماما ... ان خبرتنا وادراكاتنا تتكيف اكثر واكثر مع المكان والزمان الموضوعيين، وتعكسانهما بقدر متزايد على الدوام من الصحة والعمق »(٦) .

---

(٥) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل الخامس .

(٦) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثالث .

تقـــدم الحقيقة :

الـــى اي حـــد يـستطيع الذهن الانســـاني بلـــوغ الحقيقة وارسائها ؟

ان الحقيقة الكاملة المطلقة ـ كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة عن كل شيء ـ امر لا يمكن ابدا ان نبلغه ، لكنها شيء نقترب منه على الدوام .

اننا نتقدم نحو حقيقة كاملة شاملة ، لا تشمل فحسب وقائع خاصة بل القوانين والعلاقـــات المتداخلة العامة ، عن طريق سلسلة من الحقائق الخاصة المؤقتة التقريبية . والحقيقة التي يمكن ان يصوغها اي فرد ، او التي يمكن ان تصوغها البشرية في زمن معين ، هي دائما تقريبية غير كاملة تخضع للتصحيح . لكن الافراد يتعلمون من بعضهم البعض ، من انجـــازات بعضهم البعض ومن اخطـــاء بعضهـــم البعض على السواء . وينطبق نفس الشيء على الاجيال المتعاقبة في المجتمع . ومن هنا فـــان مجموع الحقائق غير الكاملة الخاصة المؤقتة التقريبية يقترب دائما ـ لكنه لا يبلغ ابـــدا ـ هدف الحقيقة الكاملة الشاملة النهائية المطلقة .

والعالم الذي تصوره افكارنـــا وعباراتنا موجود حقا ، وهي صادقة بقدر مـــا تتوافق معه وتصوره تصويرا صحيحا . ونحن نختبر هذا الصدق في الخبرة ، في الممارسة . والتوافق لا يكـــون ابدا كاملا دقيقا مطلقا ، لكنه يقترب على الدوام ـ وان ظل دائما بعيدا الى مـــا لا نهاية ـ من هذا الحد المطلق ، اذ تتقـــدم الحقيقة والمعرفة باستمرار مع اكمال الناس لادوات انتاجهم ، ولوســـائل كسب المعرفة .

وهكذا يقول انجلز :

« ان ادراك ان كل ظواهر الطبيعة ترتبط فيما بينها ارتباطا منظما يدفع العلم الى اثبات هذه الصلة المتـــداخلة المنظمة سواء بشكل عـــام او بالتفصيل . لكن التعبير العلمي الكامل الشامل عن هذه الصلة المتداخلة ، وصيغتها فـــي

الفكر كصورة دقيقة للنظام العالمي الذي نعيش فيه مستحيل علينا ، وسيظل دائما مستحيلا ...

« فلو حدث في اي وقت من تطور البشرية ان وصل مثل هذا النسق النهائي من العلاقات المتداخلة في العالم ـ الفيزيائي فضلا عن العالم الذهني والعالم التاريخي ـ حد الكمال فسيعني هذا ان المعرفة البشرية قد بلغت حدها ... ومن هنا تجد البشرية نفسها مواجهة بتناقض : من ناحية عليها ان تكسب معرفة شاملة بالنظام العالمي في كل علاقاته المتداخلة ، ومن ناحية اخرى لا يمكن لمثل هذه المهمة ان تنجز كلية بسبب طبيعة كل من الانسان والنظام العالمي . لكن هذا التناقض لا يكمن فقط في طبيعة العاملين ـ العالم والانسان ـ بل هو ايضا الرافعة الرئيسية لكل تقدم فكري ، وهو يجد حله باستمرار ، ويوما بعد يوم ، في التطور التقدمي الذي لا ينتهي للبشرية ...

« فكل صورة ذهنية للنظام العالمي هي في الواقع ـ وتظل كذلك ـ محدودة ، موضوعيا خلال المرحلة التاريخية ، وذاتيا خلال التكوين الفيزيائي والذهني لصانعها »(٧) .

ورغم هذا فان البشرية تبلغ باستمرار حقيقة اكثر اكتمالا ، ومعرفة اكثر شمولا ، من خلال التطور التقدمي الذي لا ينتهي لمثل هذه الصور الذهنية المحدودة للعالم الموضوعي .

يتساءل انجلز « هل للفكر الانساني السيادة ؟ » وهو يعني بذلك : هل نستطيع ان نبلغ الحقيقة الكاملة عن كل شيء ، هل نستطيع ان نبلغ المعرفة الشاملة المؤكدة نهائيا ؟

« وقبل أن نجيب بلا او نعم ينبغي ان نتساءل : ما هو الفكر الانساني ؟ اهو فكر الانسان المفرد ؟ كلا ، لكنه لا يوجد الا كفكر مفرد للبلايين من الناس في الماضي والحاضر

---

(٧) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل الثالث .

والمستقبل ... وبعبارة اخرى فان سيادة الفكر تتحقق في سلسلة من التفكير غير ذي السيادة للغاية للكائنات الانسانية ، إن المعرفة التي تزعم لنفسها حقا غير مشروط في الحقيقة تتحقق في سلسلة من الاخطاء النسبية ، ولا يمكن لهذا او ذاك ان يتحقق الا عبر ابدية لا تنتهي من الوجود الانساني .

« وهنا ايضا نجد نفس التناقض الذي وجدناه من قبل ، اي التناقض بين طابع الفكر الانساني ، الذي يتصور بالضرورة كشيء مطلق ، وواقعه في الكائنات الانسانية المفردة بفكرهم المحدود للغاية . وهذا تناقض لا يمكن أن يحل الا في التسلسل اللانهائي ، او ما هو بالنسبة لنا ـ على الاقل من الزاوية العملية ـ التعاقب الذي لا ينتهي لأجيال البشرية . وبهذا المعنى فان الفكر الانساني سيد بقدر ما هو ليس سيدا ، وقدرته على المعرفة غير محدودة بقدر ما هي محدودة . انه سيد وغير محدود من حيث استعداده ومهمته وامكاناته وغايته التاريخية ، وهو محدود وليس سيدا في تعبيره الفردي ، وفي تحققه في كل لحظة معينة »(٨) .

وتبين لنا النظرية المادية عن الحقيقة كيف نتجنب الدوغماتيكية ، التي ترسي مبادىء عامة ـ ايا كانت طريقة التوصل اليها ـ كحقائق نهائية لا تتغير ـ رافضة أن تدرس اسسها ، ورافضة ان تغيرها وتصححها ، او ان تنبذها كلية اذا دعت الضرورة ، في ضوء الخبرة الجديدة ، والظروف الجديدة .

وهي تبين لنا في الوقت نفسه كيف نتجنب التجريبية الضيقة ، التي تقتصر على تجميع الوقائع وتنسيقها ، ولا يعنيها اكتشاف القوانين الكامنة للحركة والعلاقة المتداخلة التي تتجلى في هذه الوقائع ، وتتشكك في كل تعميمات ونظريات جريئة . فالتجريبية ـ كالدوغماتيكية ـ لا تستطيع ان ترى ابعد من الخبرة

(٨) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل التاسع .

المحدودة للحظة الحالية .

وهذان الموقفان الشائعان في الفلسفة وفي العلوم يواجهاننا ايضا في حركة الطبقة العاملة. وتتالف الدوغماتيكية في حركة الطبقة العاملة من حفظ بعض الصيغ عن ظهر قلب ، وتصور ان اي مشكلة جديدة يمكن ان تحل بمجرد تكرار هذه الصيغ . ونتيجة لذلك يعجز الناس عن استيعاب دروس الخبرة ، ويثبتون عجزهم عن ان يطرحوا بجراة سياسات جديدة تتفق مع الوضع الجديد . اما التجريبية فتتالف ـ من الناحية الاخرى ـ من الانغماس في المشكلات « العملية » اليومية الصغيرة ، وعدم الاهتمام الا بها ، واعتبار كل المسائل الاخرى غير هامة ، وشانا من شؤون « المثقفين » وليس العمال العمليون . ونتيجة لذلك ايضا يعجز الناس عن استيعاب دروس الخبرة ، ويثبتون عجزهم عن ان يطرحوا بجراة سياسات جديدة . وهكذا فان كلا من الدوغماتيكية والتجريبية تقود الى نفس النتيجة ، ويمكن ان تلحق ضررا بالغا بحركة الطبقة العاملة، وتحول بينها وبين اكتشاف الطريق الصحيح المؤدي الى تحقيق الاشتراكية .

والماركسية انتقادية وثورية على السواء .

انها انتقادية لانها تقف ضد الدوغماتيكية ، ولانها تؤكد الاختبار المستمر لكل الافكار والسياسات واعادة اختبارها في بوتقة الممارسة الثورية ـ مدركة ان الحقيقة تتغير ، وان ما هو حقيقي اليوم قد يصبح زائفا غدا ما لم يصحح ويطور ليغدو حقيقة جديدة .

غير ان الاقتصار على الجانب الانتقادي ليس كافيا ، فالموقف الانتقادي المحض هو موقف سلبي يمكن ان يقود الى شل العمل .

فالماركسية ثورية ايضا ، وهي ثورية لانها لا تقتصر على ان تنتقد ، وانما تمضي قدما لاحلال الجديد محل القديم . وهي ثابتة في موقفها ، متاكدة من صدق قضيتها وعدالتها ، واثقة من صحة مبادئها كاساس للتقدم المقبل ، ولانها تختبر افكارها الثورية في الممارسة الثورية .

الفصل الحادي عشر

جذور المعرفة

ما هي المعرفة ؟

حين نصل الى افكار صادقة عن الاشياء فاننا ايضا نكسب ونوسع معرفتنا بها . فما هي المعرفة اذن ؟

ما لم نجعل افكارنا تتوافق مع الواقع فاننا بالتاكيد لا نمتلك معرفة . فكسب المعرفة يعني احلال افكار صادقة محل الجهل او محل افكار غير صادقة . ومن هنا فاننا نجد نمو المعرفة في نمو الافكار الصادقة داخل مجموع الافكار ، التي يكون بعضها صادقا وبعضها غير صادق .

لكن مجرد معادلة المعرفة بالحقيقة لا يعني تعريفا للمعرفة ، اذ يثور السؤال التالي : كيف لنا ان **نعرف** ان افكارنا صادقة ؟ ان مجرد التقرير او الايمان بأن شيئا ما صادق ليس معرفة به .

وعلى سبيل المثال يقول بعض علماء الفلك ان هناك حياة في المريخ ، وربما كانت هناك حياة ، وفي هذه الحالة فان ما يقولونه يكون صادقا ، لكنهم لا **يعرفون** بعد ان هناك حياة في المريخ ، لانهم لم يجمعوا بعد الشواهد الكافية على ذلك . وستسوى المسألة حين تقوم سفن الفضاء بمسح دقيق للمريخ . ومن الناحية الاخرى فحين يقول علماء الفلك ان المريخ كوكب فانهم يعبرون عن

معرفة بالمسألة ، لان ما يقولونه في هذه الحالة يستند الى اساليب بحث يعتمد عليها .

ومثال آخر ، قال فلاسفة الاغريق ان الاجسام تتالف من ذرات . ونحن نعرف اليوم ان هذا صحيح ـ لكنهم لم يكونوا يعرفون ، لقد كان الامر بالنسبة لهم مجرد تخمين موفق . كيف نعرف ان الاجسام تتالف من ذرات ؟ يرجع ذلك الى انه في حين اقتصروا هم على التكهن والتخمينات الموفقة عن طبيعة المادة فقد قمنا نحن بدراستها دراسة منظمة واسعة ، واقمنا افكارنا على مثل هذه الدراسة ، ومن ثم فقد اختبرنا واثبتنا صدق هذه الافكار الخاصة . ومن الناحية الاخرى ما زالت هناك كثير من الاشياء التي لا نعرف عنها اكثر مما كان الاغريق القدامى يعرفون ـ ونحن انما نتكهن عن مثل هذه الاشياء كما كانوا يتكهنون ، وما زال علينا ـ كما كان الامر معهم ـ ان نكتشف مدى قرب تكهناتنا من الحقيقة .

واذن ، فنحن لا نكسب المعرفة الا بقدر ما نطور افكارنا بطريقة تمكننا من اختبار توافقها مع الواقع واثباته . وعندئذ فقط نستطيع ان نزعم المعرفة .

ومن هنا فان تطور المعرفة هو تطور صفة خاصة داخل التطور الكلي لافكارنا ونظرياتنا ووجهات نظرنا ، لقد صيغت كثير من الافكار والنظريات ووجهات النظر ، وكثيرا ما تم ذلك باكثر الطرق تنظيما ومنطقية ، لكنها كانت مجرد تكهنات حتى لو كانت صادقة ، وكانت في اغلبها وهمية تماما . ولكن يجري ايضا في مسار تطور الافكار تطور للمعرفة ، وهو تطور تلك الافكار التي لا تتجاوب فحسب مع الواقع بل تلك التي اختبر تجاوبها مع الواقع وثبت .

واذن فمعرفتنا هي مجموع تصوراتنا وآرائنا وقضايانا التي ارسيت واختبرت كانعكاسات صحيحة للواقع الموضوعي .

الطابع الاجتماعي للمعرفة :

المعرفة في الاساس نتاج اجتماعي ، فهي تبنى اجتماعيا ، كنتاج لنشاط الناس الاجتماعي .

ولقد سبّب بعض الفلاسفة كثيرا من المتاعب لانفسهم ولقرائهم بمحاولة تتبّع نمو المعرفة في ذهن الفرد المنعزل ، واكتشاف جذورها في الخبرة الفردية . وهم بمحاولتهم هذه يطرحون امام انفسهم مشكلة لا حل لها ، لان المعرفة لا تبنى ـ ولا يمكن ان تبنى ـ بهذه الطريقة . فالفرد الذي يتصرف وحده ، والمعزول عن الاتصال بغيره من الناس ، والذي لا يعتمد الا على نفسه ، لا يكاد يستطيع ان يكسب اي معرفة على الاطلاق ـ واذا حقق مثل هذه المعرفة الضئيلة فستكون عن وقائع خاصة فحسب . ومن هنا فان بعض هؤلاء الفلاسفة انما كانوا يسيرون بمقدماتهم الى نتيجتها المنطقية حين اعلنوا ان الانسان لا يستطيع ان يعرف الا وجوده الذاتي اللحظي ؛ وليس بالتاكيد وجود العالم المادي ووجود غيره من الناس ـ وان كانوا اقل منطقية حين نشروا هذه النتيجة ، اذ ليس ثمة من سبب ـ بحكم تدليلاتهم انفسهم ـ في الاعتقاد بوجود شخص ما قادر على ان يقراها .

وبالطبع فان المعرفة يبنيها الافراد ، تماما كما ان كل ما يخلقه الانسان انما يخلقه الافراد ، لكنها انما يبنيها افراد يعملون متعاونين ، ويعتمدون على بعضهم البعض ؛ ويتبادلون خبراتهم وافكارهم . وكثير من الافراد يستطيعون ان يفعلوا في المجتمع ما لا يستطيع واحد منهم ان يفعله مفردا ـ ومن بين هذه الاشياء اقامة المعرفة الانسانية . فكل فرد يكتسب قدرا كبيرا من المعرفة من خبرته الذاتية ، لكنه لن يستطيع ان يفعل ذلك بمناى عن ارتباطه بالآخرين ، وما لم يتعلم من الآخرين ما سبق ان تعلموه . ووسيلة تشكيل الافكار والتعبير عنها ذاتها ـ اي اللغة ـ هي نتاج اجتماعي ، لا يوجد الا في حوزة المجتمع المشتركة . ويقدم بعض الافراد اسهاما كبيرا للغاية في بناء المعرفة الجديدة ، في حين لا يقدم كثيرون اسهاما على الاطلاق ، غير ان الاولين ما كانوا

ليستطيعوا ان يقدموا اسهامهم لو لم يكونوا افرادا في مجتمع معين ، لو لم يكونوا على اتصال بزملائهم ، لو لم يتعلموا ما علمهم اياه مجتمعهم ، لو لم تكن تحت ايديهم الوسائل المادية والفكرية الكثيرة التي انتجها مجتمعهم لاكتساب المعرفة .

واذن فان المعرفة لا تكتسب وتبنى الا في المجتمع ، وتكمن جذورها في نشاط الناس الاجتماعي ، انها تقام عن طريق تبادل الخبرات والافكار بين افراد المجتمع في مجرى مختلف اشكال نشاطهم الاجتماعي ، وتمحص وتختبر في نفس العملية .

ونتيجة لذلك فان مجموع المعرفة الاجتماعية ـ اي المعرفة المختزنة والمتاحة للمجتمع ـ هو دائما اكبر من المعرفة التي يملكها الافراد . ان كثيرا من الناس ، وكثيرا من الاجيال ، قد اقاموا معرفة تزيد كثيرا عما يستطيع اي فرد ان يكتسب . ويختزن المجتمع هذه المعرفة ، التي توزع في المقام الاول في ذاكرة الكثير من الناس ، وثانيا تسجل كتابة ، بحيث تصبح الكتب ومختلف الوان التسجيل مستودعات مادية للمعرفة التي اكتسبها المجتمع . وعلى سبيل المثال لا احد يعرف كل ارقام التلفون في لندن ، لكن هذه المعرفة متاحة اجتماعيا وتستخدم على الدوام بواسطة دليل التلفونات . كذلك فان احدا لا يعرف كل الاشياء التي اكتشفها العلم ، لكن مجموع هذه المعرفة متاح اجتماعيا ، ويوجد تنظيم لاستخدامها (وان كان من الممكن تحسينه كثيرا) . وهكذا يوجد في المجتمع تراكم للمعرفة الاجتماعية يسهم فيه الافراد ، ويستطيعون ان يستمدوا منه .

الممارسة الاجتماعية والمعرفة الاجتماعية :

تنشا كل المجتمعات الانسانية وتتطور من ارتباط الناس الاساسي في الانتاج . ومن هنا فان تطور المعرفة ـ وهي نتاج للارتباط الاجتماعي ـ يتوقف في التحليل الاخير على تطور الانتاج الاجتماعي . لقد بدا الناس يشكلون الافكار في عملية الانتاج ، وتطور الفكر والمعرفة ـ الذي بدا في نشاط الناس الانتاجي ـ لا

يمكن عند اي نقطة ان ينفصل عنه .

وفي مجرى التاريخ اكتسبت المعرفة وعززت خطوة خطوة . وخلال سعي الناس لتطوير قواهم الانتاجية ، واعادة تكوين علاقاتهم الاجتماعية التي تتوافق مع قواهم الانتاجية ، كان عليهم ان يسعوا الى المعرفة الجديدة ، والى التغلب على جهلهم وعلى الافكار الزائفة التي اعاقت تقدمهم المادي .

ويتوقف المجموع الكلي للمعرفة وطابعها في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي دائما على مرحلة تطور الانتاج ويتناسب معه . لأن ما استطاع الناس ان يكتشفوه عن الطبيعة والمجتمع يتوقف دائما على اتصالهم العملي بالطبيعة وببعضهم البعض ، ويرتبط بالمشكلات العملية التي يطرحها هذا الاتصال ، ويختبر في الحلول العملية لهذه المشكلات . وعلى هذا الاساس يصوغون مقولات الفكر ، واساليب الاستدلال ، ومناهج البحث ، التي يقوم بناء المعرفة بواسطتها .

ولكن اذا كان تطور المعرفة يتوقف في التحليل الاخير على تطور الانتاج فانه لا يتوقف على الانتاج وحده ، بل يجري تطورها خلال وساطة مختلف اشكال النشاط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ عن الانتاج . فبناء المعرفة الذي يتوقف على نشاط الانتاج المادي يتوقف ايضا ـ في المجتمع الطبقي ـ على الطبقات والصراع الطبقي ، وقد آلت مهمة الحفاظ على جسم المعرفة وتوسيعه في الاساس الى ممثلي طبقات معينة ، والى حد كبير اكتسبت المعرفة الجديدة ـ سواء عن الطبيعة او المجتمع ـ نتيجة نشاط مختلف الطبقات في مختلف الفترات وصراعها الاقتصادي والسياسي والعلمي والفني .

النظرية والممارسة في بناء المعرفة :

وبشكل عام فان اكتساب المعرفة في المجتمع شيء ينشأ عن المجموع الكلي للنشاط العملي لافراد المجتمع ، واتصالهم بالطبيعة الخارجية وببعضهم البعض . فبمنأى عن مثل هذا النشاط

العملي ، ومثل هذه العلاقات النشطة ، لم يكن يمكن ان نكتسب معرفة بأي شيء ، اذ لن يكون هناك اساس نستمد منه الافكار التي تتوافق مع الواقع الموضوعي ، او نختبر به هذا التوافق .

ومن هنا قال لينين ان :

« وجهة نظر الحياة ، الممارسة ، ينبغي ان تكون هي الاولى والاساسية في نظرية المعرفة »(١) .

فماذا نعني بالدقة بـ « الممارسة » او « النشاط العملي » ؟

١ ـ اولا تتالف الممارسة من حركات اعضاء الجسم الانساني التي تحدث تغييرا في العالم المحيط .

٢ ـ ولكن ليست اي حركة كهذه ، اي فعل كهذا ، يعتبر ممارسة او نشاطا عمليا . وعلى سبيل المثال فاننا لا نعتبر الافعال المنعكسة البسيطة ممارسة ، ولا نعطي لقب النشاط العملي لاعمال شخص يمشي اثناء نومه . فالنشاط العملي هو اساسا نشاط انساني واع ، اي يتم عن قصد (ا) بفكرة عن النتيجة او الهدف النهائي الذي ينبغي تحقيقه ، (ب) وبقدر من الوعي بظروف الفعل وخصائص موضوع الفعل والوسائل التي يمكن بلوغ الهدف عن طريقها .

٣ ـ وثالثا فان الممارسة اجتماعية ، وهناك بالطبع ممارسة فردية ـ اي النشاط العملي الذي يقوم به الفرد بنفسه ـ وممارسة اجتماعية اي اوجه نشاط لا يمكن ان يقوم بها الا عدد من الافراد يعملون مترابطين ، لكن اي نشاط عملي واع لا يمكن ان يتطور بمعزل عن حياة الانسان الاجتماعية ، عن تحديد المجتمع لافراده .

وفي المجتمع يطور الناس كثيرا من الوسائل لنشاطهم العملي ، والنطق ـ الذي نتواصل به مع بعضنا البعض ـ هو احد هذه الوسائل . ومن هنا يلعب النطق دورا كبيرا هاما في نشاطنا العملي ، لانه بالتاكيد وسيلة هامة لبلوغ غاياتنا .

وتحدد النقاط الثلاث السابقة ما نعنيه بـ « الممارسة » .

---

(١) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثامن .

وهكذا فان المعرفة تنشأ عن الممارسة لانها تنشأ عن تطور الافكار التي تتوافق مع مختلف ظروف نشاطنا العملي وموضوعاته ووسائله . وتكتسب المعرفة بقدر ما تخلق الممارسة طلبا لافكار صادقة عن مختلف الاشياء ، وتوفر الوسائل والفرص لصياغتها واختبارها .

وكانت الممارسة الاجتماعية في كل الاوقات هي التي دفعت الناس الى تطوير معرفتهم واكمالها ـ احتياجات تطور النشاط الانتاجي المادي ، وبقدر لا يقل عنه احتياجات مختلف الطبقات التي احست بضرورة اكتساب معرفة تزداد عمقاً عن مختلف جوانب الطبيعة والمجتمع لكي تحقق مصالحها العملية .

وهكذا ، فمع تحسين الناس لأدوات انتاجهم ، لتقنيات انتاجهم ، لقدرتهم العملية على السيطرة على الطبيعة ، تقدمت معرفتهم للطبيعة ، لأن التغييرات في الانتاج تطرح مشكلات امام المعرفة ، وفي الوقت نفسه توفر الوسائل لمعالجتها . وهكذا تتفتح ميادين جديدة للمعرفة ، ويتم التوصل الى نتائج ابعد مدى . وهذه بدورها تسهم في المزيد من التقدم التقني ، وتختبر وتزداد تطورا في تطبيقها في الممارسة .

واعطت الطبقة الراسمالية ـ بقيامها بتطوير الصناعة الحديثة ـ دفعة قوية لتعميق المعرفة الطبيعية ، وبخاصة بالعمليات الفيزيائية والكيميائية . والطبقة العاملة بدورها ـ بالاضطلاع بالاشتراكية وقيادتها وبنائها ـ تحتاج وتخلق الظروف لمعرفة طبيعية اكثر شمولا .

وبالمثل فمع سعي الناس لتحسين رفاهيتهم ، ونجاحهم في اقامة علاقات اجتماعية جديدة ارقى بدلا من العلاقات القديمة التي مضى اوانها ، تقدمت معرفتهم بانفسهم وبالمجتمع .

ولم يكن يمكن بلوغ معرفة قوانين التغير الاجتماعي المتجسدة في الاشتراكية العلمية الا حين اصبح النضال من اجل الاشتراكية ـ مع تطور الطبقة العاملة ـ مسالة عملية . وبشكل عام توافق

مدى معرفة المجتمع وقوانينه دائما ـ في كل حقبة تاريخية ـ مع المهام الاجتماعية العملية لهذه الحقبة . وهكذا فان الراسمالية ـ بتطويرها للسوق العالمي ثم تقسيم العالم بين القوى الامبريالية ـ قد حفزت دراسات التاريخ العالمي والمجتمعات في مختلف مراحل تطورها ، مما ادى الى توسيع هائل للبحث الاجتماعي والتاريخي ، واذ ينطلق النضال من اجل الاشتراكية الى ما هو ابعد من ذلك فانه يرسي الاساس للمعرفة العلمية الحقة للمجتمع ، وينفذ الى العلاقات الاجتماعية الاساسية وقوانين التطور الاجتماعي .

ومن الناحية الاخرى لا يكتسب الناس ـ ولا يستطيعون ان يكتسبوا ـ معرفة بالاشياء التي لم توفر لهم ممارستهم بعد الحاجة او الفرصة لاكتشاف شيء عنها . وعلى سبيل المثال حين كان الناس لا يزالون يعيشون في كوميونات محلية صغيرة ويستخدمون ادوات انتاج بدائية للغاية فانهم لم يطوروا ـ ولا كان في وسعهم ان يطوروا ـ اية معرفة جغرافية او رياضية او فلكية او ميكانيكية . لقد كانوا يعرفون القليل للغاية ، وان كانت لديهم كل الوان الافكار عن الاشياء التي يعرفون القليل عنها . وقبل الراسمالية وظهور الطبقة العاملة لم يكتسب الناس ـ ولا كان في وسعهم ان يكتسبوا ـ الكثير من المعرفة عن قوانين تطور المجتمع . لقد كانت لديهم كل الوان الافكار عن مثل هذه الاشياء ـ بما في ذلك افكار اشتراكية ـ وانما قدر قليل للغاية من المعرفة .

والمعرفة التي تنشا من الممارسة تختبر في الممارسة ، لان توافق افكارنا عن ظروف النشاط العملي ومواضيعه ووسائله مع الواقع الموضوعي المستقل عن افكارنا ، يختبر بنتائج النشاط الذي توجهه هذه الافكار ، ولا يمكن في التحليل الاخير ان يختبر الا بنتائج هذا النشاط .

فكل فعل يؤدي بتوقعات معينة تقوم على الافكار التي توجه الفعل . ويكمن المحك الاخير الوحيد لتوافق الافكار مع الواقع في تحقق التوقعات المبنية على هذه الافكار او عدم تحققها .

اما اذا كانت لدينا ـ من الناحية الاخرى ـ افكار لا ترتبط

بأي حال بتوقعات عن نتائج الممارسة فليس ثمة طريق لاكتشاف توافق مثل هذه الافكار مع الواقع او عدم توافقها ، وبعبارة اخرى فانها لا تستطيع ان تشكل جزءا من المعرفة ، ولا تعدو ان تكون وهمية او تاملية .

وهكذا يقول ماركس :

« ان مسالة ما اذا كان من الممكن ان ننسب الحقيقة الموضوعية الى الفكر الانساني ليست مسالة نظرية وانما مسالة عملية . ففي الممارسة لا بد للانسان ان يثبت حقيقة فكره اي واقعيته وقوته ، انتماءه الى « هذا الجانب » . والنزاع حول واقعية الفكر المعزول عن الممارسة او عدم واقعيته (اي حول توافقه او عدم توافقه مع الواقع ـ ك. م.) ليس سوى مسالة مدرسية خالصة »(٢) .

واذن فنحن نكسب المعرفة بصياغة افكار تنشأ عن مشكلات الممارسة ، ونختبر معرفتنا خطوة خطوة ـ وبعبارة اخرى نرسيها كمعرفة ـ بالاستناد الى وفائها او عدم وفائها بتوقعاتنا في الممارسة .

ومن هنا فان المعرفة في تطورها تمر على الدوام بحلقة ذات ثلاث مراحل :

١ ـ الممارسة الاجتماعية ؛ تطوير الانتاج والعلاقات الاجتماعية ، التي تطرح المشكلات للحل النظري .

٢ ـ وضع النظريات الناشئة عن هذه المشكلات والقائمة على الخبرة المتاحة والصياغة المنطقية لهذه النظريات .

٣ ـ تطبيق هذه النظريات في الممارسة الاجتماعية ، واختبارها ، والتحقق منها وتصحيحها في عملية استخدامها .

وتلك عملية لا تنتهي ابدا ، فمهما كانت معرفتنا فان المطالب الجديدة للممارسة تؤدي الى توسيعات جديدة للمعرفة ، وفضلا عن ذلك فان المعرفة القائمة لا بد ان توفق دائما مع دروس الممارسة

---

(٢) ك. ماركس « تعليقات عن فيورباخ » ـ القضية الثانية .

ومطالبها . ومن هنا فمع كسب معرفة جديدة تعاد صياغة النظريات القديمة ، وتصحح المعرفة القائمة وتعمق .

الادراك الحسي بداية كل معرفة :

علام نستند ـ خلال كل عملية اكتساب المعرفة وبنائها هذه ـ في الحصول على معلومات عن الاشياء ، وفي اختبار تحقق التوقعات او عدم تحققها ؟ علينا ان نستند على حواسنا .

وقد زعم كثير من الفلاسفة ـ اذ فصلوا بين المعرفة والممارسة ـ ان المعرفة تقام بعملية من « الفكر الخالص » . وقالوا إنّ الحواس لا يعتمد عليها ، ولا يمكن ان تكون مصدرا للمعرفة ، التي علينا كي نكتسبها ان نتجاهل معلومات الحواس ونعتمد على الفكر وحده .

غير ان المعرفة الانسانية ـ على قدرتها على الاتساع اللانهائي ـ هي دائما من عمل المخ البشري . فالمخ هو جهاز اكثر علاقات الانسان بالعالم الخارجي تعقيدا ، ونحن في انضاج هذه العلاقات نعتمد في المقام الاول على المعلومات التي نتلقاها خلال الحواس نتيجة تفاعلنا مع الاشياء الخارجة عنا . فبداية كل معرفة اذن ليست سوى الادراكات الحسية التي نكتسبها في مجرى نشاط حياتنا . ولا يمكن ان تبنى المعرفة على اساس آخر غير المعلومات التي نكتسبها خلال عمل حواسنا ، خلال الادراكات الحسية التي تستمد مصدرها من العالم المادي الموضوعي .

وقد جسّد لينين وجهة النظر المادية هذه في نظرية المعرفة في تعريفه المشهور للمادة بانها « الواقع الموضوعي الذي تعطيه للانسان حواسه ، والذي تعكسه حواسنا ويوجد مستقلا عنا »(٣) . وهذا يؤكد ان العالم المادي هو العالم المتاح للحواس . فما نعرفه عن العالم المادي مستمد من عمل حواسنا . وكل معرفة مفترضة تمضي الى ما وراء ذلك ليست معرفة وانما خيال ؛

(٣) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثالث .

واي واقع موضوعي غير متاح للحواس ليس واقعيا وانما متخيل .

وقد يعترض البعض بان هذه عبارات دوغماتيكية . لكن الواقع انه ليس ثمة دوغما هنا . بالعكس ما ان نبتعد عن هذا الموقف المادي الاساسي حتى نبتعد عن كل معرفة يمكن التحقق منها الى مملكة التامل الخالص . وما ان نسمح لانفسنا بان نبدا في ابتداع « واقع » لا يمكن باي حال تبينه بواسطة الحواس حتى نحلق بعيدا في السحاب . اننا نواجه هذا النوع من الاسئلة التي اعتاد المدرسيون المتاخرون ان يطرحوها : « كم عدد الملائكة الذين يمكن ان يقفوا على طرف ابرة ؟ » وليس من وسيلة ممكنة لتبينهم ومن ثم لاختبار الاجابة على السؤال . وهذا هو السبب في اننا نستطيع ان نقول عن ثقة ان مثل هذه الاسئلة وهذه التاملات لا يجمعها شيء بالمعرفة ، وليست سوى طرق لخداع الناس .

فالحق ان قولنا اننا لا نكسب المعرفة الا من خلال فعل الحواس في مجرى النشاط العملي ليس دوغما الا اذا كان قولنا اننا لا نستطيع ان نعيش دون ان ناكل دوغما . وتبشير الناس بمعرفة « فوق الحس » او « متسامية » اشبه بتبشيرهم بوسائل حياة ابدية دون ان نقدم لهم شيئا ياكلونه . والنظرية المادية عن المعرفة دفاع وسلاح ضد مثل هذه الخدع .

ومن هنا فان علينا ان ننبذ بثبات كل « مبادىء » وكل دوغما تزعم انها عرفت في استقلال عن الخبرة ، في استقلال عن ممارسة الحواس ، سواء بواسطة ضوء داخلي او بفضل سلطة ما. وينبغي الا نثق باولئك الذين يسعون الى ان يفرضوا علينا آراءهم لانهم يزعمون لانفسهم هبة فكرية ما ، او يزعمون انهم اطلعوا على بعض الاسرار ، او انهم مفوضون من سلطة خاصة. علينا ان نتسلح بالشك . ولا نقبل من اي شخص ما لا يمكن تفسيره والدفاع عنه من زاوية الممارسة والخبرة الحسية ، لاننا لا نستطيع ان نعرف وجود شيء ما او خواصه الا بقدر ما يكون هذا الوجود وهذه الخواص قابلة لان نتبينها بحواسنا بطريقة ما . بشكل مباشر او غير مباشر .

مـــدى الثقة في الحواس :

ولكن انستطيع ان نثق في حواسنا ؟ كيف لنا ان نعرف ان حواسنا لا تخدعنا دائما كما تفعل احيانـا في الهلوسات والاحلام ؟ وبشكل اكثر عمومية كيف لنا ان نعرف مـا اذا كان هناك اصلا شيء يتمشى مع ادراكاتنا الحسية ؟

علينا ان نذكـر ونحن نجيب على هذيـن السؤالين اننا لا نكتسب ادراكاتنا الحسية للأشياء وتبنيها الا في مجرى النشاط العملي ، فالمعلومـات التي نكسبها خـلال الحواس ليست مجرد معلومات تأتينا بـاية طريقة ، وانما نحن نحصل عليها في الحياة العملية ، بالتفاعل العملي الواعي مع الاشياء خارجنا .

فالطفل حديث الولادة مثلا يبدا بكتلة من الانطباعات المهوشة عن نفسه وعن العالم الخارجي ؛ وهو يبدا في استخدام حواسه ، وفي الحصول على معلومـات عن الاشياء التي تحيط به ، حين يبدا في محـاولة الوصول اليها ليرى مـاذا يستطيع ان يفعل بهـا ، وليفحصها ، ويجربها ويختبرها بكل الطرق .

وكما يبدا كل فرد من افراد الجنس البشري في الحصول على معلومات عن العالم بهذه الطريقة فـان هذه هي الطريقة التي تكتسب بها كل معرفة عن العالم وتبنى . ومن المؤكـد ان انطباعاتنا المهوشة الاولى عن الاشياء غير المـألوفة ليست انطباعـات يعول عليها ، ولا توفـر الا القليل مـن المعلومـات عنها ان هي وفرت معلومات اصلا . ونحن نستخدم حواسنا للحصول عن المعلومات عنها بفحصهـا ؛ ونختبر على الدوام مـدى امكـان تعويلنا على ادراكاتنا الحسـية لها في مجرى تعاملنا العملي معها .

وليست لدينا طريقة لمعرفة مـا اذا كانت ادراكاتنا الحسية تتفق مع الموضوعـات ، بل حتى مـا اذا كـان هناك اصلا اي موضوع يتمشى مع ادراكاتنا ، بمعزل عن تعاملنا العملي مع الاشياء خارجنا ؛ لكننا حين نتعرف استنادا الى ادراكاتنا ، وحين نحول الاشياء الى استخدامنا وفقا للخواص التي ندركها فيها ، فـاننا نختبر مـا اذا كانت ادراكاتنا تتفق مع الواقع خارجنا ، والى اي

مـدى تتفق معه .

ان فيلسوفا يجلس وحده في مكتبه ، ويحاول ان يبتدع معرفة من موارد ذهنه الداخلية ، قد يثير صعوبات كبيرة في هذا الشان . انه يتساءل ما اذا كان لمكتبه وكتبه والمقعد الذي يجلس عليه ، وجسده الذي يجلس على المقعد ، وجود واقعي ، ام ان هذا كله نوع من الاحلام او الاوهام في ذهنه . غير انه ليس ثمة صعوبة خارج مكتبه ، خارج المناقشات الاكاديمية للفلاسفة .

يقول انجلز :

« لقد حل الفعل الانساني الصعوبة قبل امد طويل من ابتداع العبقرية الانسانية لها . والبرهان على البودنغ هو اكله . فمنذ اللحظة التي نحول فيها هذه الاشياء لاستخدامنا وفقا للخواص التي ندركها فيها ، فاننا نضع صحة او عدم صحة ادراكاتنا الحسية امام اختبار لا يخطىء . فاذا كانت هذه الادراكات خاطئة فان تقديرنا للاستخدام الذي يمكن ان نحول له الشيء لا بد ان يكون خاطئا ، واذا وجدنا ان الشيء يتفق فعلا مع فكرتنا عنه ، ويتجاوب فعلا مع الغرض الذي قصدناه منه ، فان في ذلك البرهان القاطع على ان ادراكاتنا عنه وعن خواصه تتفق ـ بهذا القدر ـ مع الواقع خارجنا . . وبقدر ما نهتم بتدريب حواستا واستخدامها استخداما سليما ، وبابقاء فعلنا داخل الحدود التي توصي بها الادراكات التي تحققت بشكل سليم واستخدمت بشكل سليم ، بقدر ما سنجد ان نتيجة عملنا تثبت توافق ادراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للأشياء التي ندركها »(٤) .

فالعالم المادي موجود ، ونحن جزء منه . ونحن نتعلم الاشياء خارجنا وحالة جسمنا من خلال حواسنا ، ومن هنا فان من الطبيعي الا توجد لدينا طريقة اخرى لاكتشاف العالم ـ اي لكسب المعرفة ـ الا من خلال ممارسة حواسنا ، كما لا يمكن

(٤) ف. انجلز « الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية » ـ المقدمة .

ان تكون حواسنا مبنية بحيث تخدعنا دائما او حتى عادة . فلو كانت كذلك لما استطعنا اصلا ان نعيش

يقول انجلز :

« ان منتجات المخ البشري باعتبارها في التحليل الاخير منتجات للطبيعة لا تتناقض مع بقية الطبيعة بل تتجاوب معها »(٥) .

وحواسنا مشكلة بالضرورة بحيث تزودنا بادراكات تتفق مع الواقع خارجنا. وهذه الادراكات ـ التي هي بداية كل معرفة ـ تكسب في مجرى النشاط العملي ، ويتضح اتفاقها مع الواقع ويختبر في النشاط العملي .

وهكذا فان كل معرفتنا ـ اي مجموع تصوراتنا التي تقام وتختبر كانعكاسات صحيحة للواقع الموضوعي ـ تقوم على اساس الادراكات التي نكتسبها في النشاط العملي ، وتختبر بالمثل في نفس هذا النشاط .

اتساع المعرفة وعدم اكتمالها ونقدها :

اعتقد بعض الفلاسفة ان هدف المعرفة هو بلوغ نسق كامل شامل يشمل معرفة كل ما هو موجود . واعتقدت قلة منهم انهم انفسهم قد بلغوا فعلا مثل هذا الهدف ـ كما قيل عن استاذ باليول الراحل البروفيسور ب. جويت :

هاانذا اقف . . . ان اسمي هو جويت ،
وما من معرفة الا واعرفها ،
وانا استاذ هذه الكلية ،
وما لا اعرفه ليس معرفة .

غير ان المعرفة الانسانية ـ لا في مجموعها ولا في مختلف اقسامها ـ لا تستطيع ابدا ان تكون نهائية مكتملة شاملة . والحق ان هذا واضح حين نأخذ في اعتبارنا ان معرفتنا كلها

(٥) ف. انجلز « آنتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل الثالث .

تنبعث من الممارسة وتختبر فيها ، وانها مستمدة من الادراكات الحسية التي نكسبها في النشاط العملي . فنحن لن نصل ابدا الى وضع نكون فيه قد فعلنا كل ما يمكن فعله ، او بحثنا كل جانب لكل شيء وجد او يوجد او سيوجد ، فسيظل هناك دائما مزيد يمكن فعله ، ومزيد نكتشفه خلال الفعل ، ومن ثم مزيد نعرفه .

وهكذا فان المعرفة تتسع دائما ، او على الاقل قادرة على ان تتسع ، ومن هنا فانها دائما غير كاملة . وهناك جانبان لهذا الاتساع وعدم الاكتمال للمعرفة .

الجانب الاول جانب كمي ، فثمة معرفة جديدة تضاف باستمرار الى المعرفة القديمة ، بحيث نصل الى معرفة المزيد . ويحدث هذا الاتساع في بعدين اذا امكن القول ـ عرض المعرفة وعمقها . فنحن نعرف عن اشياء جديدة لم تكن نعرفها من قبل ، ونحن نعرف المزيد عن الاشياء التي كنا نعرف عنها شيئا من قبل . وبهذه الطريقة نستطيع دائما ان نعرف المزيد ، لكننا لن نعرف ابدا كل شيء .

وعلى سبيل المثال استطعنا في الفيزياء الحديثة ان نعرف « الجزيئات الاساسية » التي لم يكن وجودها معروفا من قبل ، واذ توصلنا الى معرفتها فقد زدنا او عمقنا معرفتنا عن الذرات وتركيبها ، وكنا نعرف عنها شيئا من قبل . لكننا لا نستطيع ـ بحكم اننا قد زدنا عرض معرفتنا الفيزيائية وعمقها بهذه الطريقة ان نستخلص اننا قد اكملنا معرفتنا الفيزيائية . بالعكس ان كل ما ينبغي لنا ان نستخلصه هو انه وان كانت لدينا معرفة فيزيائية اكثر من اسلافنا فان خلفنا الذين يبدأون حيث ننتهي سيكون لديهم مزيد منها .

والجانب الثاني جانب كيفي . فحين نعرف المزيد فان اضافة هذا المزيد الى ما كنا نعرفه من قبل لا يترك ما كنا نعرفه دون ان يتاثر . بالعكس ان معرفة اشياء جديدة ، ومعرفة المزيد عن الاشياء القديمة ، تلقي ضوءا جديدا ـ اذا امكن القول ـ على ما كنا نعرفه من قبل ، ونتيجة لذلك يمكن ان نجد معاني جديدة

ودلالات جديدة فيما سبق ان ارسيناه من معرفة ، وفي الوقت نفسه سنجد ـ في ضوء المعرفة الجديدة ـ ان بعض المعاني المستمدة من المعرفة القديمة كانت خاطئة ، ولا بد من اعادة النظر فيها ، واعادة صياغتها بمختلف الطرق .

وعلى سبيل المثال القت الاكتشافات الجديدة في الفيزياء ـ التي لخصتها ميكانيكا الكم ـ ضوءا جديدا على الاكتشافات القديمة في الفيزياء التي لخصتها الميكانيكا الكلاسيكية . ونتيجة لذلك كان لا بد من اعادة النظر في المعرفة القديمة واعادة صياغتها بمختلف الطرق ، واصبح واضحا ان بعض النتائج المستخلصة منها كانت خاطئة . ومثال آخر ، حين كسبنا ـ في ممارسة بناء الاشتراكية في بلد واحد هو الاتحاد السوفياتي ـ معرفة جديدة عن طبيعة الدولة الاشتراكية ووظائفها ، اصبح من الضروري ان نعيد النظر في بعض القضايا التي كانت الماركسية تطرحها من قبل عن الدولة الاشتراكية ونعيد صياغتها ، واصبح من الواضح ان بعض النتائج المستخلصة منها كانت خاطئة .

ولا يعني هذا ان المعرفة القديمة قد اتضح انها كانت وهمية ، ومن ثم فانها لم تكن معرفة واقعية اصلا ، وانما كل ما يعنيه هو ان عدم اكتمال المعرفة القديمة يؤدي الى ضرورة اعادة صياغتها بصورة نقدية في ضوء المعرفة الجديدة . ونفس الشيء سينطبق بالطبع على المعرفة الجديدة حين تصبح بدورها معرفة قديمة .

وتنمو المعرفة خلال عملية لا تقتصر على الاضافة بل تشمل كذلك اكمال وتصحيح الجسد القائم للمعرفة . فليست المعرفة ابدا في اي ميدان كاملة نهائية مكتملة . وبالتالي فان اية معرفة ارسيت ينبغي الا تقبل الا كنقطة بدء لمزيد من تقدم المعرفة ـ تماما كما ينبغي الا ننظر الى ما تحقق في الممارسة باعتباره انجازا نهائيا وانما كنقطة بدء لمزيد من المكاسب . ويعني هذا ان علينا ايضا ان نكون على استعداد لان نعترف بان كل معرفة هي دائما معرفة محدودة ناقصة ، ومن ثم فانها ليست في حاجة الى اضافة فحسب بل في حاجة الى النقد للسير بها الى الأمام ، والتقدم نحو مكتسبات جديدة .

الفصل الثاني عشر

نمو المعرفة

من الجهل الى المعرفة :

ان اكتساب المعرفة وبناءها دائما ـ بحكم طبيعتهما ذاتها ـ عملية انتقال من الجهل الى المعرفة ، من عدم معرفة الاشياء الى معرفتها . فسواء نظرنا الى معرفتنا عموما او الى معرفتنا بشيء معين فالمسألة دائما هي اننا في البداية لم نكن نعرف شيئا ثم اكتسبنا المعرفة بالتدريج .

ومن هنا قال لينين في مقاله الذي كتبه في « الانسكلوبيديا » عن « كارل ماركس » ان نظرية المعرفة ينبغي ان تدرس « الانتقال من اللامعرفة الى المعرفة » .

وكتب يقول :

« ينبغي الا ننظر الى معرفتنا كشيء جاهز ... بل لا بد ان نحدد كيف تخرج المعرفة من الجهل ، وكيف تصبح المعرفة غير الكاملة وغير الدقيقة اكثر اكتمالا واكثر دقة »(١) .

ومن الناحية الاخرى اعتبر كثير من الفلاسفة من المفروغ منه ان المعرفة لا يمكن ان تستمد الا من معرفة سابقة . ومن هنا فقد

---

(١) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثاني .

افترضوا انه لا بد ان تكون هناك يقينات اساسية تستمد منها كل معرفة . وقادهم هذا الى استخلاصين متضادين لكنهما مضللين على السواء . فمن ناحية ابتدعوا مختلف المبادىء التي قالوا انها يقينية ثم زعموا انهم عرفوا واثبتوا كل القضايا المستنبطة من هذه المبادىء . ومن ناحية اخرى انكروا جانبا كبيرا من معرفتنا الواقعية لانها لا يمكن ان تستنبط بهذه الطريقة . وهكذا مثلا استنبط الفلاسفة كل الوان النتائج عن الله والطبيعة النهائية للواقع من المبادىء ، ورفضوا من الناحية الاخرى كل معرفتنا عن العالم المادي على اساس انها لا يمكن ان تبرر باي شيء هم مستعدون لقبوله كيقين مطلق جلي بذاته .

غير ان البداية الحقيقية للمعرفة ليست المعرفة وانما الجهل، ليست اليقين وانما اللايقين ، فنحن دائما نبني المعرفة من حالة سابقة من الافتقار الى المعرفة . ومن هنا فان محاولة اقامة انساق من المعرفة من القضايا الجلية بذاتها تعني سوء فهم كل مشكلة بناء المعرفة ، ولا بد ان تكون دائما عقيمة .

فكيف اذن تبنى المعرفة من الجهل ؟ يتم هذا خلال تفاعلنا الحسي مع الاشياء ، ولا يمكن ان يتم الا خلال هذا الطريق . ويقوم به المخ الانساني الذي هو كما رددنا مرارا جهاز اعقد العلاقات بين الانسان والعالم الخارجي . فعن طريق الادراك الحسي للأشياء ، الذي ينشأ عن الدخول في مختلف العلاقات معها ، نصل الى معرفتها حيث لم نكن نعرفها من قبل . وكلما تعددت العلاقات التي ندخل فيها مع الاشياء زاد بالتالي ما نصل الى معرفته عنها . ومن هنا فان المعرفة هي نتاج دخولنا الواعي في علاقات نشطة مع الاشياء ، ويتحقق الانتقال من الافتقار الى المعرفة ، الى المعرفة بواسطة النشاط الانساني الذي ينتقل من الافتقار الى العلاقة بالاشياء ، الى العلاقة بالاشياء .

وعلى سبيل المثال لم نكن نعرف منابع النيل وتوصلنا الى معرفتها بالذهاب الى هناك ، ولم نكن نعرف تكوين الذرة وتوصلنا الى معرفته باجراء التجارب، ولم نكن نعرف بُعدَ النجوم وتوصلنا الى معرفته باستنباط اساليب لقياسه ، ولم نكن نعرف قوانين

تطور المعرفة الانسانية وتوصلنا الى معرفتها بالسعي الواعي الى استخدامها لبلوغ مرحلة جديدة من التطور الاجتماعي .

الادراكات والأحكام :

الشرط الاول لبناء المعرفة هو التوصل الى ادراكات ، اي اجراء ملاحظات تقوم على مختلف العلاقات مع الاشياء . فاولا لا تكون لدينا ملاحظات تتعلق بشيء او عملية ما ثم نحصل على هذه الملاحظات ، تلك هي الخطوة الاولى ، ودون ان نقوم بها لا يمكن ان يوجد سوى الجهل وليس المعرفة اما الجهل الصريح او كما يحدث كثيرا الجهل المستتر بنظريات موهومة او تاملية عن الاشياء .

وثانيا بعد أن ندخل في علاقات مع الاشياء ونحصل على ملاحظات عنها لا بد ان نمضي الى صياغة احكام او قضايا عنها وعن خصائصها وعلاقاتها . ولا بد ان نستخدم قوانين الفكر ـ اي القوانين المنطقية لانعكاس الواقع الموضوعي في شكل افكار ـ لكي نعبّر في افكار ، في احكام او قضايا ، عن نتائج الملاحظات .

ودائما ما يشمل بناء المعرفة الانتقال من الاحساسات الى الافكار ، فلدى كل الحيوانات الراقية احساسات ، وهي تمتلك باحساساتها معلومات محددة ملموسة عن الاشياء ، وتتعلم ان تجعلها اكثر رسوخا وتستخدمها في نشاط حياتها ، ولكن لدى الانسان وحده تتحول هذه المعلومات التي توفرها الحواس الى معرفة ، بمعنى انها تجد تعبيرا عنها في افكار وقضايا .

ونحن نعني بتعبير « المعرفة » هنا معنى محددا هو المعرفة **الانسانية** . فالمعنى الذي يعرف به الكلب مثلا الطريق الى المنزل مختلف عن المعنى الذي يعرف به الانسان الطريق ، لأنه في الحالة الاخيرة قابل للتعبير عنه بافكار وقضايا يمكن ايصالها . فالافكار والقضايا توصل ويتقاسمها الناس ويناقشونها في حياتهم الاجتماعية ، وهذا التعبير عن المعلومات في افكار وقضايا هو الذي يشكل السمة الاساسية للمعرفة الانسانية . فالناس

يكتسبون المعرفة ويمتلكونها بقدر ما ينتقلون من الاحساسات الخاصة بكل فرد ، والتي يشتركون في تملكها مع الحيوانات ، الى الافكار ، الاحكام ، القضايا ، التي يمكن ايصالها اجتماعيا والخاصة بالانسان وحده .

فالادراك الحسي بذاته اذن ليس سوى شرط للمعرفة لكنه ليس بعد تحقيقا لها . ويتحقق ما يمتلكه الانسان من معرفة عن الاشياء عن طريق الانتقال من الاحساسات الى الاحكام القائمة على الاحساسات .

وهكذا فان المعرفة تبنى دائما بدورة مستمرة من أوجه نشاط مختلفة كيفيا وتشكل معا كل عملية المعرفة ـ الدخول في علاقات نشطة بالاشياء ، والحصول من هذه العلاقات على ادراكات حسية وملاحظات ، وصياغة الاحكام من الملاحظات ، واستخدام هذه الاحكام في توجيه المزيد من العلاقات بالاشياء ، مما يؤدي الى مزيد من الملاحظات ، ومزيد من الاحكام ، وهكذا الى ما لا نهاية .

من الاحكام السطحية الى الاحكام الاكثر عمقا :

بعض الادراكات الحسية يصور الاشياء كما تبدو مباشرة خلال فعلها على حواسنا . ولا تقدم الحواس سوى معلومات خاصة عن اشياء خاصة تحكمها الظروف الخاصة التي ندركها في ظلها .

واذ يعبّر الناس عن المعلومات التي يحويها الادراك في قضايا فانهم يصلون الى احكام تعبّر عن استخلاصات من مقارنة الكثير من معطيات الادراك الخاصة ووضعها معا . يقول ماوتسي تونغ في بحثه « عن الممارسة » الذي اوجز فيه اسس النظرية المادية عن المعرفة :

« الخطوة الاولى في عملية المعرفة هي الاتصال باشياء

العالم الخارجي وينتمي هـذا الى مرحلة الادراك الحسي . والخطوة الثانية هي تركيب معطيات الادراك الحسي باعـادة الترتيب او اعـادة البناء ، وينتمي هذا الى مرحلة التصور والحكم والاستدلال » .

وعلى سبيل المثال نصل من كثير من الادراكـات الحسية لكثير من افراد المجتمع الى استخلاصات (كل منها يمثل مـواد اولية للمعرفة الاجتماعية) مثل « الكلب ينبح » و « البقرة تعطينا اللبن » و « المـاء يتحول الى ثلج في الجو البارد » ومـا الى ذلك . ومثل هذه الاحكـام هي على حـد تعبير مـاو « تركيب لمعطيات الادراك الحسي » .

ولا يتوقف تكوين مثل هذه الاحكام عن الاشياء على ملاحظة واحـدة يقوم بها شخص واحـد وانما على عـدة ملاحظـات او كثير من الملاحظات يقوم بهـا عدة افراد او كثير من الافراد . وكلما تنوعت الملاحظات ، وتنوعت الظروف التي تتم فيها والزوايا التي تتم منها ، وتنوعت التغيرات والعلاقـات بالموضوع الذي تغطيه ، زاد الشمول والامـانة الذي يمكن للحكم ان يعكس بهما الخواص والعلاقـات واشكال حركة الموضوع الموضوعية .

والملاحظة ذاتها نشاط ، لاننا ينبغي دائما ان نرتبط بشيء مـا اذا اردنا ان نلاحظه ، ولا بد ان نضع انفسـنا في علاقـات اكثر تنوعـا ـ ملاحظين مختلف جـوانب الشيء ، ومختلف تغيراتـه ومـا الى ذلك ـ اذا اردنـا ان نلاحظه بشكل اكثر كمالا . لكـن الملاحظة نفسـها تنتقل ممـا يمكن ان يسمى الملاحظة السلبية الى الملاحظة الايجابية ، وهذه الاخيرة هي التي لها الاهمية الاولى في بناء معرفة اكمل بالاشـياء .

والملاحظة ذاتهـا لا تغير مـا تلاحظه ، وبهذا المعنى فـانها سلبية ، فمن يراقب الطيور مثلا يحصل على معرفة عن الطيور لكنه لا يتدخل معها بـاي حال وهو يقوم بملاحظاته ، بالعكس ان عليه في هذه الحـالة ان يحرص تماما على عـدم التدخل . وتنشأ الملاحظة الايجابية حين نشترك نحن انفسـنا ـ بنشاطنا ـ فـي

احداث مختلف التغييرات في الاشياء ، وتلاحظ نتائج العلاقات او التغيرات التي اجريناها نحن انفسنا تحت سيطرتنا .

ومن اهم اساليب الملاحظة الايجابية للأشياء مثلا قياسها . فعملية القياس ايا كان ما نقيسه تتضمن ادخال شيء في علاقة بشيء آخر وملاحظة النتائج . ومن الامثلة الاخرى لأساليب الملاحظة الايجابية تقسيم شيء ما الى اجزائه او عناصره ثم اعادة ترتيبه من جديد ، او احداث تغييرات في خواصه بواسطة اشياء اخرى . وبشكل عام فاننا بانضاج اساليب الملاحظة الايجابية الملائمة لمختلف الاشياء التي نريد ان نعرفها ، ولما نريد ان نعرفه عنها ، نحصل على كثير من الملاحظات ذات الدلالة ، التي تقودنا الى استخلاصات عن خواصها وعلاقاتها وحركاتها وقوانين حركتها ، واسبابها ونتائجها ، وتكوينها وما الى ذلك .

وبعد ان نحصل من خلال كل من الملاحظات السلبية والايجابية وترجمتها الى احكام على جسم معين من المعرفة يعبر عنه في الاحكام فاننا نستطيع عندئذ ان نستخدم هذه المعرفة لكي نحصل على مزيد من المعرفة ، لانها ستوحي لنا بميادين جديدة للاستكشاف ، واساليب لاقامة علاقات جديدة بالاشياء . وتستخدم المعرفة التي اقيمت بالفعل في توجيه المزيد من النشاط ، والتوصل منه الى مزيد من الملاحظات . وبهذه الطريقة فان المعرفة التي اقيمت بالفعل تختبر ثانية وتصحح ، وتستمر كل عملية بناء المعرفة .

وتؤدي عملية الانتقال من الملاحظة الى الحكم ، ثم من الملاحظة الاكثر ايجابية وشمولا الى احكام اكثر شمولا ، تؤدي في المقام الاول الى تصحيح الاستخلاصات المباشرة المبنية على ملاحظة غير كافية .

وتعلمنا الخبرة العادية بالفعل ان ثمة فارقا بين المظهر الاول للأشياء في الادراك الحسي وبين واقعها . فكثيرا ما يحدث ان نجد الاشياء مختلفة عما بدت عليه لنا في البداية ، ويتضح هذا في الممارسة بعدم تحقق التوقع القائم على المظاهر الاولى . فنحن في عملية بناء المعرفة نمر دائما من استخلاصات لا تعبر الا عن خواص

الاشياء وعلاقاتها وحركاتها الظاهرة الى استخلاصات تقترب بكمال اكبر من الاشياء كما هي عليه حقا .

وعلى سبيل المثال فحين ندرك الشمس حسيا فانها تبدو لنا جسما صغيرا نسبيا ـ ولفترة طويلة استخلص الناس انها في الواقع صغيرة حقا ، لكننا توصلنا الى معرفة ان الشمس في الواقع كبيرة للغاية ، ثم ان الشمس تبدو وكانها تدور حول الارض ـ ولفترة طويلة استخلص الناس انها في الواقع تدور حول الارض ، لكننا توصلنا الى معرفة ان الارض هي التي تدور في الواقع حول الشمس .

وفي المقام الثاني ننتقل في عملية تشكيل احكام اكثر شمولا عن الاشياء من المعرفة المجزاة عن اشياء خاصة بخواصها وحركاتها الخاصة الى معرفة اكثر ترابطا لقوانين وجودها وتغيرها وصلاتها المتداخلة .

والمعرفة الاولى القائمة على الملاحظات الاولى عن الاشياء هي معرفة بعدد من الوقائع عن هذه الاشياء ، وليس بقوانين وجودها والصلات المتداخلة بينها والتي تتجلى في هذه الوقائع وتحددها . ومن هنا ففي ذات الوقت الذي نصحح فيه استخلاصاتنا القائمة على المظهر الاول للاشياء ، ونكوّن احكاما عن خواصها وعلاقاتها وحركاتها الواقعية التي ولدت المظاهر فاننا نكوّن ايضا احكاما عن القوانين والصلات المتداخلة العامة التي تتجلى في الخواص والحركات والعلاقات الخاصة للأشياء التي تبدو اولا للملاحظة .

وعلى سبيل المثال بعد ان ارسينا الوقائع الاساسية عن المجموعة الشمسية ـ ان الكواكب ومن بينها الارض تدور حول الشمس ـ ارسينا ايضا القوانين التي تتجلى في المجموعة ، والتي توجد هذه المجموعة وتظل في الوجود بفعلها .

كما اننا بمعرفتنا من الخبرة المشتركة ان الماء يتحول الى ثلج حين يبرد بالدرجة الكافية نمضي ـ كنتيجة لتركيب كثير من الملاحظات الخاصة والاستدلال منها ـ الى ارساء اسباب هذه الظاهرة ، وهي انها ترجع الى اعادة ترتيب الجزيئيات بسبب

التغيرات في حركتها حين تهبط درجة الحرارة .

وهكذا فاننا ننجح في عملية الانتقال من الملاحظة الى الحكم في الانتقال ايضا من الاحكام السطحية الى احكام اكثر عمقا ـ من احكام تكتفي بتقرير ما لاحظناه الى احكام تمضي الى ابعد من ذلك ، وتستخلص نتائج عن تكوين الاشياء وتنظيمها الداخلي ، وعن اسبابها وآثارها وافعالها المتبادلة وصلاتها المتداخلة وحركاتها وقوانين الصلات المتداخلة والحركات .

وهذا تغيير كيفي في مضمون الاحكام ، وانتقال من احكام ذات مضمون سطحي الى احكام ذات مضمون اعمق ، من احكام في شكل افكار اولية تتوافق معها الاشياء التي تدركها الحواس مباشرة الى احكام في شكل افكار مجردة تقرر اسباب الاشياء التي نلاحظها وتفسيراتها وآثارها وقوانينها .

من المعرفة السطحية الى معرفة أعمق :

نستطيع ان نستخلص ان المعرفة عموما لا تتحقق الا بالانتقال من الادراك الحسي الى الحكم ، وانه بعدئذ تمر عملية تطوير المعرفة المعبّر عنها في احكام وتوسيعها وتعميقها عبر مرحلتين متميزتين كيفيا ـ الاولى المعرفة السطحية الجزئية بالاشياء ، المستمدة مباشرة من ادراكاتها الحسية ، والثانية معرفة خواصها الجوهرية وصلاتها المتداخلة وقوانينها .

وفي المرحلة الاولى لا تعبّر افكارنا الا على ما اسماه ماوتسي تونغ « الجوانب المنفصلة للاشياء ، والعلاقات الخارجية بين مثل هذه الاشياء » . وفي المرحلة الثانية نصل الى الاحكام التي لم تعد ـ على حد تعبيره ـ « تمثل مظاهر الاشياء ، او جوانبها المنفصلة ، او علاقاتها الخارجية وانما تشمل جوهرها ، وكليتها ، وعلاقاتها الداخلية » .

ويشمل الانتقال من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية في المقام الاول الملاحظة الايجابية ، فدون الملاحظة الايجابية سنفتقر الى المعطيات التي نقيم عليها احكاما اكثر عمقا وشمولا ، ولا يمكن

لاي حكم نقوم به الا ان يكون تامليا او وهميا .

غير انها تشمل ـ في المقام الثاني ـ عملية تفكير منبعث من الملاحظة ، ـ عملية تمحيص الملاحظات ومقارنتها ، عملية تعميم وتكوين افكار مجردة ، عملية تدليل واستخلاص نتائج من مثل هذا التعميم والتجريد . وبعد ان نصل الى نتائج لا بد مرة اخرى من اختبارها في الملاحظة الايجابية ، حتى نتاكد من اتفاقها معها ، ومن ان التعميمات المجردة التي توصل اليها الفكر تعبّر فعلا عن الوقائع العينية التي يعطينا اياها الادراك الحسي . ومن هنا فان الانتقال من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية تشمل انتقالا من احكام تعبّر مباشرة عن معطيات الادراك الحسي ، الى احكام مستمدة من معطيات الادراك الحسي خلال عملية تجريد وتعميم .

وعلى سبيل المثال يعد الانتقال من الحكم القائل ان الشمس ساخنة الى الحكم القائل ان درجة حرارة سطحها تبلغ نحو ستة آلاف درجة مئوية مثالا لهذا الانتقال من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية . فالحكم بان الشمس ساخنة يعبّر مباشرة عن احدى الطرق التي تؤثر بها الشمس على حواسنا . لكن الحكم عن درجة حرارتها يشمل اولا اننا كوّنا فكرة مجردة عن درجة الحرارة ، واننا بمعونة هذه الفكرة توصلنا الى نتائج عن درجة حرارة الشمس بواسطة عملية ناضجة من الملاحظة الايجابية والتدليل القائم عليها . ونتيجة لذلك ننتقل من حكم لا يعبّر الا عن ملاحظات معينة عن الشمس الى حكم يعبّر عن حالتها الداخلية .

ومثال آخر ، لنفترض اننا ندرس تنظيم الدولة في بلد ما ، في بريطانيا مثلا . ان الملاحظات الاولى التي يمكن ان نتوصل اليها تتعلق بوقائع خاصة ـ مثل ان عاصمتها هي لندن ، وان القوانين يسنها اناس يجتمعون في مجلس البرلمان ، وان هذه القوانين توقعها الملكة وينفذها رجال الشرطة وما الى ذلك . وكثير من الابحاث عن طبيعة الديمقراطية البرلمانية البريطانية لا تمضي الى ابعد من صياغة احكام تلخص مثل هذه الملاحظات ، مما يعني

انها لا تمضي الى ابعد من المرحلة الاولى من المعرفة ، غير اننا اذا سرنا بالبحث الى ما هو ابعد ، اذا درسنا الدولة في تطورها التاريخي على اساس كل تطور البنية الاقتصادية للمجتمع ، واذا استخلصنا من هذا البحث نتائج معقولة ، فسنصل الى الحكم بأن الدولة البرلمانية البريطانية هي جهاز حكم الطبقة الراسمالية البريطانية . ويعني هذا التقدم بمعرفة الدولة الى المرحلة الثانية ؛ التي لا تشمل فحسب عددا من الوقائع الملحوظة عنها بل تشمل طبيعتها الجوهرية .

قال ماوتسي تونغ في كتابه عن نظرية المعرفة (« عن الممارسة ») ان المعرفة في المرحلة الاولى تقتصر على « الجوانب المنفصلة للأشياء ، المظاهر ، العلاقات الخارجية بين الاشياء » . اما في المرحلة الثانية فانها

« تحقق وثبة كبيرة الى الامام لتشمل الكل ، الماهية ، والعلاقات الداخلية للأشياء ، وتكشف التناقضات الداخلية للعالم المحيط ، ومن ثم تكون قادرة على ادراك تطور العالم المحيط في كليته ، في العلاقات الداخلية بين كل جوانبه » .

وقد انكر كثير من الفلاسفة (اولئك الذين ينتمون الى ما يسمى بالمدارس « التجريدية » و « الوضعية ») ان المعرفة تتطور عبر مثل هاتين المرحلتين ، فعندهم اننا نحصل اولا على مختلف « معطيات الحواس » ثم نقارنها ونربطها لكي نصوغ احكاما او قضايا تلخص الملاحظات . وتلك بالنسبة لهم هي كل عملية المعرفة . ومن هنا فان المعرفة لديهم قاصرة تماما على « الجوانب المنفصلة للأشياء ، المظاهر ، العلاقات الخارجية » ، ومن الوهم ان نفترض امكان وجود اي معرفة اعمق بالاشياء ــ بواقعها المعارض لمظهرها امامنا ، بخواصها الجوهرية وصلاتها المتداخلة وقوانينها .

وفي معارضة هذا الطراز التجريبي او الوضعي من الفلسفة تتتبع الماركسية نمو المعرفة من المرحلة الادنى الى المرحلة الارقى ، فاولا بالحصول على المعلومات من خلال الحواس ننتقل من الاحساسات الى الاحكام ، ثم بتطوير معرفتنا المعبّر عنها في افكار واحكام ننتقل من المعرفة السطحية بالمظاهر والعلاقات

الخارجية للأشياء الى المعرفة الاعمق بخواصها الجوهرية وعلاقاتها الداخلية .

المظهر والواقع :

حين ننتقل من الافكار الاولية الى الافكار المجردة ، من الاحكام السطحية الى الاحكام الاكثر عمقا ، يتم الانتقال من مظهر الاشياء الى واقعها . وينبغي ونحن ندرس المعرفة ان نميز دائما بين المظهر والواقع ـ بين الظاهرة الخاصة الواضحة مباشرة للملاحظة والعمليات والصلات المتداخلة والقوانين الخبيئة التي تتجلى في المظاهر ، وتكمن خلف الوقائع الملحوظة . ومهمة معرفة الاشياء هي دائما التقدم من المظهر الى الواقع ، حتى نصل الى معرفة المزيد عن الحركة والصلات المتداخلة الواقعية للاشياء ، التي تتجلى في وجودها الخاص واسلوب مظهرها .

وهكذا اكد ماركس ان مهمة العلم هي ان يتقدم دائما من المعرفة المباشرة للمظاهر الى اكتشاف الواقع ، الصلات الداخلية والقوانين الكامنة خلف المظاهر ، وهكذا يصل في النهاية الى الفهم الشامل للمظاهر .

وقال ماركس ان على البحث :

« ان يمتلك الموضوع بالتفصيل ، ويحلل مختلف اشكال تطوره ، ويتتبع صلاته الداخلية . وبعد هذا العمل فقط يمكن أن توصف الحركة الفعلية وصفا كافيا . واذا قمنا بهذا بنجاح ... فان حياة الموضوع تنعكس ذهنيا كانما في مرآة »(٢) .

وهكذا اكد ماركس ان معرفة الطابع الواقعي وقوانين اي موضوع لا بد دائما ان تكون مستمدة من تحليل تفصيلي لكل الوقائع ذات الشأن ، ولا بد بدورها ان تخدم في ايضاحها ـ ان

(٢) ك. ماركس « راس المال » ـ المقدمة .

توضح صلاتها الداخلية وحركتها الفعلية .

ويعطينا عمله في العلوم الاجتماعية امثلة على هذا . فقد اوضح في « راس المال » انه في حين لم يتناول « الاقتصاديون المبتذلون » الا المظاهر السطحية للاقتصاد الراسمالي فان الاقتصاد السياسي العلمي يسعى الى ان يكشف علاقات الانتاج الواقعية الكامنة خلف المظاهر ، وعلى هذا الاساس يفسر المظاهر . ولو كانت العمليات الكامنة واضحة على السطح للملاحظة السطحية لما كانت هناك حاجة الى مزيد من البحث العميق ، لكن الواقع لا يكون ابدا واضحا على السطح ، ولا يمكن ان يكتشف الا بتحليل علمي دؤوب .

يقول ماركس :

« ان طريقة تفكير الاقتصاديين المبتذلين مستمدة من حقيقة ان الشكل المباشر الذي تظهر فيه العلاقات هو دائما الذي ينعكس في المخ وليس صلاتها الداخلية . فلو كان هذا الوضع الاخير هو ما يحدث فما هي الحاجة الى علم اصلا ؟ »

ثم يشرح ماركس منهجه في التحليل العلمي للاقتصاد الراسمالي فيبين انه في نهايته :

« وصلنا الى اشكال المظهر التي هي نقطة البدء لدى الاقتصاد المبتذل . الريع الذي ياتي من الارض ، والربح (الفائدة) الذي ياتي من راس المال ، والاجور التي تاتي من العمل . لكننا نرى الامر الآن من وجهة نظرنا بصورة مختلفة ، ان الحركة الظاهرة قد فسرت »(٣) .

وواضح من هذا ـ بالمناسبة ـ ان الفلسفة الوضعية التي تقصر المعرفة كليا على معالجة المظاهر السطحية كانت تتفق تماما مع اجراءات « الاقتصاديين المبتذلين » الذين انتقدهم ماركس ، وان اجراءاتهم تتفق تماما معها . فالحق ان هذه الفلسفة هي انسب فلسفة للمدافعين عن الراسمالية ، الذين تعتمد كل نظرتهم

(٣) ك. ماركس ـ رسالتان الى انجلز في ٢٧ يونيو ١٨٦٧ و ٣٠ ابريل ١٨٥٨ .

على عـدم رؤية مـا تحت سطح الحياة الاجتماعية .

ونستطيع ان نـاخذ موضوع الاجور كمثال حي على اهمية الحكم على الاشياء لا من المظاهر السطحية وانما من زاوية العلاقات والصلات الداخلية . فلو اننا لـم نحكم الا من المظاهر الخارجية فلن تكون الاجور سوى مـا يدفع مقابل العمل ، فشخص ما يعمل عددا مـا من السـاعات ويتقاضى مبلغا مـا مقابل كل سـاعة . وفي هذه الحالة لن نستطيع ان نتبين فارقـا بين الاجور في مجتمع راسمالي مثلا والاجور في مجتمع اشتراكي . فسواء كان الشخص يعمل في مصنع راسمالي او في مصنع اشتراكي فـانه يعمل عددا من السـاعات ويتقاضى مبلغا مـا . فما هو الفارق ؟ الفارق هو ان الشكل الخارجي للأجور يعبّر عن علاقـات اجتماعية مختلفة . فالاجور في المجتمع الراسمالي هي ثمن قوة عمل العـامل التي باعها للراسمالي ، امـا في المجتمع الاشتراكي فـان الاجور لـم تعد ثمن قوة العمل ، لان المصانع مملوكة للشغيلة الذين لا يبيعون قوة عملهم لانفسهم . ان الاجور هنا تعبّر عن تخصيص نصيب معين للعامل من القيم التي انتجها وفقـا للعمل الذي اسهم بـه ، وهكذا ففي حين لا يستطيع العمـال في المجتمع الراسمـالي ان يحافظوا على اجورهم او يرفعوها الا بمحاربة الطبقة الراسمـالية والتهديد بالاضراب فانهم في المجتمع الاشتراكي يرفعون مستوياتهم دائما بزيـادة الانتاج . وبعبارة اخرى فـان القوانين التي تحـدد الاجور تختلف كل الاختلاف في المجتمع الاشتراكي عنها في المجتمع الراسمالي . لكننا لا نستطيع ان نفهم لماذا هي مختلفة الا اذا مضينا الى خلف مظاهر الاشياء ، وسعينا الى اكتشاف العلاقات والصلات الداخلية التي تحـدد المظاهر .

النظرية الثورية والممارسة الثورية :

يعني الانتقال مـن الحكم السطحي على الاشياء الى الحكـم العميق عليها ؛ ومن مظهرها الى واقعها ـ كما قلنا ـ الانتقال من مرحلة من مراحل معرفة الاشياء الى مرحلة اخرى ، ومثل هـذا

التغير الكيفي في المعرفة هو ايضا ـ كقاعدة ـ تغير ثوري ، وهو ثوري لانه يحدث تغييرا ثوريا فيما نستطيع ان نفعله .

فحين لا تسترشد الممارسة الا بما تعلمناه عن المظاهر الخارجية للأشياء فانها تفتقر الى القدرة على احداث تغييرات عميقة ـ عن علم ـ في هذه الاشياء ، او استخدامها استخداما واسعا لاغراض بعيدة المدى . بالعكس حين لا نعرف الاشياء الا بمظاهرها فان علينا في الممارسة عموما ان ننتظر ما يحدث ، وان نتكيف مع الاشياء ـ وغالبا ما يتم ذلك بصورة سيئة نتعرض فيها للمفاجآت والنكسات والكوارث ـ لا ان نسيطر عليها ونكيفها مع اغراضنا نحن .

لكننا حين نبدا في ادراك الواقع الذي يحدد المظاهر فاننا عندئذ نستطيع ان نتعامل مع الاشياء بفعالية اكبر ، وان نحدث تغييرات عميقة فيها ، ونستخدمها لاغراضنا .

وعلى سبيل المثال لم تكن لدى الناس حتى العصور الحديثة سوى معرفة سطحية بالعمليات الكيميائية ، ومن ثم لم يكن هناك سوى قليل من الاستخدام المخطط الفعال لهذه العمليات في الانتاج . لكن الكيمياء الحديثة مكنتنا من ان نحلل الجواهر ونشكلها ثانية من مكوناتها ، بحيث نستطيع صنع كثير من المواد بأساليب تخليقية ، وبخواص تتلاءم مع احتياجاتنا . اننا نستطيع ان نقسم الذرة ، وان نحلل عنصرا ما الى عناصر اخرى ، ونستخدم الطاقة الناتجة عن العملية ، بل ان نخلق عناصر جديدة صنعها الانسان مثل البلوتنيوم .

ومثال آخر ، لم يكن في وسع الاشتراكيين الطوباويين وحركة الطبقة العاملة القديمة ان يغيروا المجتمع تغييرا فعالا . لكن النظرية الماركسية ـ التي نفذت الى واقع العمليات الاجتماعية مكنت حركة الطبقة العاملة من ان تحول المجتمع تماما في بعض البلدان ، وتبدا في بناء الاشتراكية .

وسواء نظرنا الى معرفة الطبيعة او المجتمع فحيثما ارتفعت المعرفة الى معرفة الواقع وليس المظهر وحده فقد كان هذا تطورا ثوريا ، ثورة فيما يستطيع الناس ان يفعلوه .

ومثل هذا التقدم في المعرفة ـ سواء ربطه اولئك الذين لعبوا الدور النظري الرئيسي في الوصول اليه بالممارسة بوعي او لم يربطوه ـ هو دائما في التحليل الاخير نتاج تطلعات ثورية في الممارسة الاجتماعية . فحين يسعى الناس لفعل شيء جديد حتى يزيدوا قدراتهم ، ويحسنوا ظروفهم ، حينئذ يحسون بضرورة تعميق معرفتهم . ولا يمكن ان توجد ممارسة ثورية دون معرفة ، لان الممارسة دون المعرفة تفتقر الى الاتجاه ، ولا تستطيع ان تبلغ غايتها . فالوثبة في المعرفة شرط لتحقيق ثورة في الممارسة .

ومن المستحيل رفع مستوى المعرفة بمعزل عن ممارسة تتمشى معها او قبل هذه الممارسة ، تماما كما تتعثر الممارسة في الظلام بغير المعرفة الضرورية . فبمعزل عن الممارسة الملائمة لا يمكن ان توجد معرفة حقيقية وانما تخمين وتكهن . وكل معرفة حقيقية تنشأ عن الممارسة ، وتختبر بدورها في الممارسة ـ وان لم يعن هذا ان الاستنباطات النظرية من اكتشاف ما قد لا تتقدم عن اجراء كل نتائجه العملية الممكنة ، فليس من طريق لاكتشاف قوانين العالم الواقعي الا طريق الدخول في علاقات عملية بالموضوعات والعمليات الواقعية ، والسعي الى السيطرة عليها وتغييرها ، وتكوين مفهومات على اساس الخبرة المكتسبة ، ثم اختبار الاستخلاصات النظرية مرة اخرى في الممارسة الحية .

الاشياء في ذاتها :

وينتج عن هذا التحليل لنمو المعرفة انه في كل مراحله نمو للانعكاس الامين للعالم الموضوعي في الوعي الانساني .

وقد زعم كثير من الفلاسفة ان معرفتنا قاصرة على مظاهر الاشياء في اذهاننا ، وان « الاشياء في ذاتها » ، الاشياء كما هي عليه حقا « في ذاتها » ، ومستقلة عما تبدو عليه لنا ، لا بد ان تكون غير قابلة للمعرفة ، ووفقا لمثل هؤلاء الفلاسفة فان ثمة هوة لا اجتياز لها بين معطيات الحس القائمة في وعينا من ناحية والاشياء في ذاتها من الناحية الاخرى . وكثيرون لا ينكرون فحسب اننا

نستطيع ان نعرف الاشياء في ذاتها بل ينكرون وجود مثل هذه الاشياء اصلا .

غير اننا نكسب بالفعل في الاحكام القائمة مباشرة على الادراك الحسي معرفة بالاشياء في ذاتها ـ ليست منذ البداية معرفة كاملة او عميقة لكنها على الاقل معرفة بعدة جوانب منفصلة وعلاقات خارجية للأشياء . ونحن نحصل على هذه المعرفة بالتحديد بواسطة معطيات الحس ، وحين نتوصل بالمزيد من الدراسات والتدليل الى استخلاصات عن العلاقات بين الاشياء ، وخواصها ، والعمليات التي تدخل فيها ، وقوانين حركتها ، فاننا نحصل على معرفة اعمق بهذه الاشياء نفسها ، التي توجد مستقلة عن وعينا بها ، والتي لم نكن نعرفها من قبل الا معرفة سطحية .

فليس ثمة اذن هوة بين الاشياء في ذاتها ومظاهرها او « الظواهر » . اننا نعرف الاشياء بالتحديد بواسطة مظاهرها لنا ، وكلما درسنا المظاهر استطعنا ان نكتشف المزيد من الاشياء . كما ليس ثمة هوة بين مظاهر الاشياء وواقعها ، لأن المظهر هو تجل للواقع ، ونحن لا نعرف الواقع منفصلا عن المظهر وانما من خلاله . يقول انجلز في مقدمة « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » : « اذا عرفت كل خواص شيء ما فقد عرفت الشيء في ذاته » . ونحن نعرف الخواص والعلاقات الواقعية للأشياء بالممارسة والدراسة، فحين نكتشف ما نستطيع ان نفعله بالاشياء، وندرس مختلف مظاهر جوانبها المختلفة في ظل كثير من الظروف ، نكسب مزيدا ومزيدا من معرفة الاشياء في ذاتها .

ومن هنا فان كل معرفتنا معرفة باشياء واقعية توجد بالتاكيد مستقلة عن مظاهرها لنا . يقول لينين:« يؤكد المادي وجود الاشياء في ذاتها وقابليتها للمعرفة »(٤) . فنحن اولا نعرف الاشياء معرفة سطحية من خلال الادراك الحسي ، ثم معرفة اكثر عمقا وشمولا بواسطة الفكر الذي يعمل بمعطيات الادراك الحسي ، وليس هناك ـ ولا يمكن ان يكون هناك ـ فارق بين

(٤) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثاني .

الاشياء كما نعرفها والاشياء في ذاتها ، والفارق الوحيد هو الفارق بين ما عرف وما لم يعرف بعد ، وبين ما لم يعرف الا معرفة سطحية في بعض جوانبه وما عرف معرفة اكمل .

التغلب على حدود المعرفة :

اهناك اذن حدود للمعرفة الانسانية ؟

تصطدم المعرفة ـ في اية مرحلة خاصة من تطور الانسانية ـ بحدود يضعها الطابع المحدود بالضرورة للخبرة المتاحة ، وللوسائل القائمة للحصول على المعرفة .

لكن الانسانية تتقدم بالتغلب على مثل هذه الحدود ، فالخبرة الجديدة تلقى جانبا بحدود الخبرة القديمة ، والتقنيات الجديدة ، الوسائل الجديدة للحصول على المعرفة ، تلقي جانبا بحدود التقنيات القديمة والوسائل القديمة للحصول على المعرفة .

وعندئذ تظهر ثانية حدود جديدة ، غير انه ليس ثمة ما يدعو الى افتراض ان هذه الحدود الجديدة مطلقة ونهائية ، تماما كما لم يكن ثمة ما يدعو الى افتراض ان الحدود القديمة كانت مطلقة ونهائية . وفي كل مرحلة نجد اناسا يتصورون اننا قد بلغنا الحد النهائي ، ولا ينظرون الى ابعد من ذلك . لكن هناك دائما ـ عاجلا او آجلا ـ اناس يلقون جانبا بهذه الحدود ، ويتقدمون بجرأة بعدها نحو حدود جديدة .

ومن هنا فالمعرفة دائما محدودة ، وهي تتقدم بالتغلب على الحدود القائمة .

وعلى سبيل المثال كان من المستحيل ان يعرف الناس في المجتمع الاقطاعي شيئا عن المجتمع الاشتراكي وقوانينه ، وان يصوغوا الحقيقة عن الاشتراكية والانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية . ولم يصبح هذا ممكنا الا بتطور المجتمع الراسمالي ، فعندئذ فحسب اتيحت الوسائل لتشكيل تصور علمي عن الاشتراكية . وبالمثل يستحيل علينا اليوم ان نعرف كيف سيتطور المجتمع الشيوعي الكامل بعد اقامته ، لكن الناس سيتمكنون

ـ في مجرى الزمن ـ من ادراك الحقيقة عن هذا التطور اللاحق وقوانينه .

كذلك كان من المستحيل ان نكتسب معرفة بالذرة وتركيبها قبل اختراع التقنيات الالكترونية الحديثة . واليوم استطعنا بهذه التقنيات الحديثة ان نتخطى ما كان يعتقد يوما انه حدود كل معرفة فيزيائية ممكنة . بيد ان هذه التقنيات ذاتها تفرض حدودها الخاصة على المعرفة الفيزيائية ـ بحيث يزعم بعض علماء الفيزياء الآن استحالة معرفة اكثر مما هو متاح لنا في نظرية الكم المعاصرة عن العمليات دون الذرية . لكن من الدوغماتيكية وقصر النظر ان نزعم ان هذه الحدود اكثر اطلاقا مما كانت عليه حدود تقنيات الماضي الاخرى التي كانت ذات يوم حدودا لا اجتياز لها . يقول لينين :

« وفي حين لم يكن عمق هذه المعرفة بالامس يتجاوز الذرة، وهو اليوم لا يتجاوز الالكترون .. فان المادية الجدلية تؤكد الطابع المؤقت النسبي التقريبي لكل هذه **العلامات البارزة في طريق** معرفة الطبيعة التي يحققها علم الانسان المتقدم . ان الالكترون **لا ينفد** كالذرة ، والطبيعة لا نهائية ... »(٥) .

فالمعرفة في كل مرحلة وفي كل الظروف غير كاملة ومؤقتة ، تحكمها وتحددها الظروف التاريخية التي اكتسبت في ظلها ، بما في ذلك الوسائل والاساليب المستخدمة لكسبها ، والافتراضات والمقولات المحكومة تاريخيا والمستخدمة في صياغة افكارها واستخلاصاتها .

لكن هذا التطور للمعرفة ـ وكل مرحلة من مراحله ذات طابع مشروط ـ هو تطور لمعرفة العالم المادي الواقعي ، واكتشاف الصلات المتداخلة وقوانين حركة العمليات المادية الواقعية ، بما فيها المجتمع الانساني والوعي الانساني ، انه تطور تقدمي ، يزيد

(٥) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الخامس .

فيه مرحلة بعد مرحلة توافق الافكار والنظريات مع الواقع الموضوعي ، ويخلي فيه ما هو مؤقت وافتراضي ـ مرحلة بعد مرحلة ـ المكان لما هو اكيد محقق .

ويصطدم تقدم المعرفة دائما بحواجز تنشأ عن حدود المعرفة القائمة والممارسة القائمة . ولكن في حين يواجه تقدم المعرفة دائما حواجز امام المزيد من التقدم فان المعرفة تنطلق الى الامام باكتشاف الطريق للتغلب عليها .

الفصل الثالث عشر

الضرورة والحرية

الضرورة والعارض :

حين تتقدم المعرفة الى مرحلة معرفة قوانين الحركة ، والصلات المتداخلة التي تحدد مظاهر الاشياء فاننا نبدأ في فهم **الضرورة** التي تنطبق على ظواهر كل من الطبيعة والمجتمع .

ونحن نسمي بالضروري ذلك الذي لا يمكن ان يكون على غير ما هو عليه بحكم طبيعة الحالة . فحين تكون العمليات الواقعية التي تحدد اسلوب وجود شيء ما مفضية بالضرورة الى ظهور خصائص معينة وليس خصائص اخرى ، والى التطور في اتجاه معين لا اتجاه آخر ، فاننا نعتبر هذه الخصائص وهذا التطور ضروريا .

وبشكل عام فبقدر ما نكتسب معرفة بالصلات الداخلية وقوانين تطور الاشياء فاننا نستطيع لا ان نقرر الوقائع فحسب بل ان نفسرها ، ونفهم اسبابها ، ونستوعب ضرورتها .

وعلى سبيل المثال ـ في ميدان العلم الطبيعي ـ بينت اكتشافات نيوتن بشان مبادىء الميكانيكا ضرورة الكثير من ظواهر الطبيعة . وهكذا اوضحت مبادىء نيوتن ـ من بين ما اوضحته ـ ضرورة اتصاف المجموعة الشمسية التي تشكل الارض جزءا منها بصفات معينة . فمن الحقائق المعروفة مثلا ان الكواكب تدور حول الشمس في مدارات بيضاوية . وقد طرح كيبلر هذه الواقعية . لكن نيوتن كان هو الذي وضح ضرورة قانون كيبلر

عن حركة الكواكب ، اذ بين تحليله لميكانيكا المجموعة الشمسية انه لا بد للكواكب بحكم طبيعة القوى الفعالة في مثل هذه المجموعة ذاتها من ان تدور في مدارات بيضاوية ، وليس في دوائر او في اي شكل آخر من المدارات . وهكذا فان الطابع العام للمجموعة الشمسية ليس عارضا ـ انه نتيجة ضرورية لطبيعة مثل هذه المجموعة ، ولصلاتها الداخلية وقوانين تطورها .

ولناخذ مثالا آخر من الحياة الاجتماعية . من الوقائع المعروفة ان الشرطة في بريطانيا تتدخل دائما في النزاعات الصناعية الى جانب اصحاب العمل . وليس هذا ـ من زاوية الملاحظة السطحية ـ الا مجرد واقعة . غير انها ليست عارضة ، لانه ما ان ندرك طبيعة الدولة البريطانية المعاصرة كدولة راسمالية حتى نستطيع ان نفهم انه اذا كانت الشرطة تساعد اصحاب العمل فليس ذلك امرا عارضا ، وانما نتيجة ضرورية للنظام الراسمالي .

بيد ان ادراكنا لضرورة جوانب معينة للأشياء ، وطرازات معينة من الاحداث ، لا يعني اننا نفهم كل شيء باعتباره ضرورة ، وانه لا مكان في العالم **للعارض** . بالعكس ان للأحداث الخاصة دائما طابعا صدفيا او عارضا . وادراك الضرورة في الاشياء لا ينفصل عن ادراك العارض في ذات الوقت .

فمثلا تخدم الشرطة في الدولة الراسمالية بالضرورة الطبقة الراسمالية ، لكنها لا ترتدي بالضرورة حللا زرقاء . بالعكس انها تستطيع ان تخدم الراسماليين بنفس الدرجة في حلل من اي لون آخر ، ومن هنا فان واقعة ارتداء الشرطة البريطانية لحلل زرقاء واقعة عارضة ـ انها ترجع الى ظروف عارضة .

وبالمثل اذا كان من السمات الضرورية للمجموعة الشمسية ان تدور الارض حول الشمس في مدار بيضاوي فليس من السمات الضرورية ان يكون للأرض هذا الحجم بالتحديد ـ فحجمها المحدد يرجع الى ظروف عارضة .

ومن زاوية الملاحظة السطحية يبدو كل شيء عارض ، اننا نواجه وقائع ملحوظة وصلات خارجية بينها فحسب ، واذ لم

ندرك بعد قوانين التغير والصلات المتداخلة التي تحكم الاشياء التي نلحظها وتتجلى فيها فاننا ندرك كل واقعة نلحظها كمجرد واقعة كان يمكن بالمثل أن تكون على غير ما هي عليه . « ان كل واقعة يمكن ان تكون ما هي عليه او لا تكون ويظل كل شيء آخر على ما هو عليه »(١) ، تلك هي نتيجة النظرة السطحية الى الاشياء .

لكن البحث الاعمق يبين انه « حيث يسود العارض على السطح فانه دائما في الواقع محكوم بقوانين داخلية مستترة ، وليست المسالة الا اكتشاف هذه القوانين »(٢) .

غير ان اكتشافها لا يلغي تصور العارض ؛ بالاحرى انه يكشف ان السمات الضرورية للأشياء تتجلى خلال سلسلة مما هو عارض ، وان العارض ـ من الناحية الاخرى ـ محكوم دائما بالضروري .

وهكذا فان من الضروري في تطور المجتمع ان تحل الاشتراكية محل الراسمالية ، اما متى وكيف ستحدث هذه الثورة بالدقة فان الامر يشمل سلسلة من الظروف العارضة ، لكن تطور هذه الظروف تحكمه ـ بدوره ـ الضرورة التاريخية .

وبالمثل يتبع تطور المادة في الطبيعة بالضرورة مسارا معينا ، اما متى وكيف ستتحقق بالدقة في نظام خاص المراحل المختلفة للتطور ، او ما اذا كانت قابلة للتحقق اصلا في حالات معينة ، فهذا امر يتوقف على ظروف عارضة .

وهكذا كتب انجلز وهو يتناول العلاقة المتبادلة بين العارض والضرورة في الطبيعة يقول ان المجموعة الشمسية

« قد نتجت بطريقة طبيعية بتحولات للحركة ملازمة بالطبيعة للمادة المتحركة ، ولا بد للمادة ان تكرر ظروف

---

(١) ل. فيتجينستاين « بحث منطقي ـ فلسفي » ـ ٢١:١ .

(٢) ف. انجلز « لودفيغ فيورباخ » ـ الفصل الرابع .

انتاجها ايضا حتى ولو بعد الملايين والملايين من السنوات ، وبقدر او آخر من الصدفة ، ومن الضرورة الملازمة ايضا للصدفة » .

وهو يفهم ظهور الوعي ـ باعتباره ارقى اشكال حركة المادة ـ بنفس الطريقة :

« من طبيعة المادة ان تتقدم الى تطور الكائنات المفكرة ، ومن هنا ايضا فان هذا يحدث بالضرورة دائما حيثما تتوافر الظروف اللازمة له (وهي ليست بالضرورة متطابقة في كل الاماكن وفي كل الاوقات) » .

ومن هنا يستخلص انجلز ان :

« ما يعتبر ضروريا يتالف من مصادفات محضة ، وما يسمى عارضا هو الشكل الذي تختفي خلفه الضرورة »(٣) .

واذا كان الضروري هو ذلك الذي لا يمكن ان يكون على غير ما هو عليه بحكم طبيعة الحالة فان العارض هو ما يمكن ان يكون على غير ما هو عليه ، وكلا الجانبين موجودان دائما في كل شيء . وبشكل عام فان خصائص شاملة معينة في الاحداث ، والطابع الشامل لحصيلتها ، هو الضروري ، ومن الناحية الاخرى فان التفصيلات ، السمات الخاصة للاحداث الخاصة ، وما يتبع ذلك من سمات تفصيلية خاصة لحصيلتها ، ليست ضرورية بل عارضة . وبهذا المعنى فان « ما هو ضروري يتالف من مصادفات » . ففي التفصيلات العارضة بالتحديد تتجلى الضرورة الملازمة ، وهذه التفصيلات ـ العارضة في ذاتها ـ انما بشكلها الضروري وبحكمها .

الضرورة والعارض والسببية :

يرتبط اكتشاف الضرورة في الطبيعة والمجتمع باكتشاف الاسباب واكتشاف القوانين التي تحكم العلاقة بين الاسباب

(٣) ف. انجلز « جدليات الطبيعة » .

والنتائج . فما هو ضروري ، ضروري نتيجة فعل الاسباب ، فاذا كانت هناك اشياء تظهر الى الوجود دون سبب ، اذا كانت هناك احداث تقع عشوائيا ودون ان تحكمها قوانين سببية ، فلن يمكن ان تكون هناك ضرورة قابلة للاكتشاف في مثل هذه الاشياء والاحداث .

وهكذا فاذا كانت خاصية ما ، خاصية ضرورية لاحداث معينة ، واذا كانت نتيجة ما ، هي حصيلتها الضرورية ، فان هذا يرجع الى طبيعة العمليات السببية التي تعمل في هذه الاحداث . ويعني فهم الضرورة الكامنة في الاحداث التوصل الى معرفة عميقة للعمليات السببية التي تعمل فيها .

فمثلا اذا كانت الاشتراكية ستحل بالضرورة محل الراسمالية فذلك لأن اسباب الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية تولد داخل النظام الراسمالي . واذا عرفنا بعمق طبيعة الراسمالية فسنعرف ان مثل هذه الاسباب موجودة ولا يمكن الا ان توجد وتستمر في العمل في مثل هذا النظام .

وفي الوقت نفسه تمكننا معرفة الاسباب ايضا من فهم السمات العارضة للأشياء .

فاسباب الاشتراكية مثلا تظهر الى الوجود وتعمل داخل الراسمالية ، ومن ثم فاننا نعرف ان مقدم الاشتراكية ضروري ، لكن السمات الخاصة لهذه الاسباب عارضة ، وليس ثمة ضرورة فيها ، وهكذا فان من الضروري ان تزيد الطبقة العاملة عدديا وتنظيميا مع تطور الراسمالية ، هذا امر مقيض له ان يحدث ، وهو احد الاسباب المؤدية الى ان تخلي الراسمالية المكان للاشتراكية ، ولكن اذا كان التطور المستمر للراسمالية يعني بالضرورة مزيدا من العمال ، ويعني انهم سينظمون انفسهم ، ويطوحون في النهاية بالنظام فانه لا يتضمن بالضرورة ان ينضم جونز او سميث مثلا الى تنظيم ما ويلعب دورا بارزا كقائد للحركة . من الضروري ان يظهر قادة ، اما ان يصبح طفل ما لابوين معينين قائدا فهو امر يتوقف على كثير من العوامل العارضة ، غير ان مثل هذه العوامل العارضة ـ في مجموعها وفي

المدى الطويل ـ لا بد ان تؤدي الى ظهور القادة .

وهكذا يبين فعل السببية ان العالم يحوي كلا من الضروري والعارض ، وان الضروري يتجلى من خلال العارض .

ويترتب على ذلك ان من الخطأ ان نزعم ـ كما زعم الكثيرون ـ اننا حين نعزو سببا ما لأي شيء نكون قد اوضحنا ان هذا الشيء ضروري ، ومن الخطأ كذلك ان نعرف العارض بأنه ، يحدث دون سبب ، فلكل الاحداث اسباب ، سواء كانت احداثا ضرورية او عارضة . وليس مجرد تتبع شيء ما الى آثاره البعيدة اثباتا لضرورته ، لأن العارض يعمل طيلة سلسلة الاحداث ، واذا كان شيء ما ضروريا فليس هذا نتيجة للأسباب الخاصة وانما للقوانين العامة .

وهكذا فاننا نفهم اذن العلاقة المتبادلة بين العارض والضروري في الاحداث نتيجة لتقدم المعرفة من الصلات الخارجية للأشياء الى صلاتها الداخلية ، من المظهر الى الواقع، من الملاحظة السطحية والربط بين الوقائع الى دراسة الجدل الواقعي للتطور ، وحينئذ سنرى ان الآثار الضرورية للصلات المتداخلة الواقعية بين الاشياء تتجلى عبر سلسلة من الظروف العارضة ، وان الاحداث العارضة مشروطة ومحكومة بضرورة داخلية ، وانها تسهم في الوصول الى نتيجة ضرورية .

الضرورة والحرية في الممارسة الانسانية :

درسنا الصلة المتبادلة بين الضرورة والعارض ، وكيف ينشأ كلاهما عن الفعل الكلي للسببية في الطبيعة والمجتمع . وسندرس الآن آثار هذه الاستخلاصات على الحياة العملية .

هل نتمتع حين نقوم بنشاط عملي بأي حرية فيما نقوم به ام انه جميعا محدد بالضرورة في استقلال عن ارادتنا ؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي الآن ان نجيب عليه . وكما يتصور البعض احيانا ان الضرورة والعارض ضدين لا يتفقان بحيث اذا وجد احدهما فلا بد الا يوجد الآخر فكثيرا ما يقال نفس الشيء عن

الضرورة والحرية . ويتصور البعض انه حيثما توجد الضرورة فليس ثمة حرية ، ومن الناحية الاخرى فاذا كنا نتصرف بحرية فلا بد اننا قد افلتنا من الضرورة بصورة ما .

ولو كانت هذه الفكرة صحيحة لكانت الحرية الانسانية وهما . فكل اوجه نشاط الناس ـ ككل شيء آخر في العالم ـ محكومة في جميع جوانبها بقوانين السببية ، وفعل السببية يولد الخصائص الضرورية للأحداث ، ويحدد حصيلتها الضرورية ، وينطبق هذا على الافعال الانسانية كما ينطبق على كل شيء آخر ، بحيث لا يمكن للناس ان يستقلوا عن الضرورة في الطبيعة وفي المجتمع . لكن من الخطأ ان نقابل بين الحرية والضرورة كشيئين لا يمكن التوفيق بينهما . بالعكس ان الضرورة تولد الحرية ، وهي شرطها المسبق .

وفعل القوانين الطبيعية والاجتماعية والضرورات الناجمة عن ذلك مستقلة عن ارادتنا ووعينا . ومن هنا فأيا كان ما نفكر فيه او نرغبه او نقرره فان افعالنا محددة دائما بما يتفق مع قوانين الطبيعة عموما وطبيعتنا نحن بوجه خاص ، وهي تتمثل ـ في تنفيذها وفي آثارها ـ مع ما تمليه الضرورة .

والانسان ذاته جزء من الطبيعة

« والضرورة الطبيعية هي الاولى والارادة والذهن الانساني هما الثانويين ولا بد لهذين الاخيرين ان يتكيفا حتما وبالضرورة مع الاولى »(٤) .

غير ان خاصية الممارسة الاجتماعية ، وما يميزها عن السلوك الحيواني ، هو ان الناس في مجرى ممارستهم الاجتماعية يكتسبون المعرفة بالضرورة ، وبالضرورة الطبيعية في المقام الاول ، ومن ثم يتعلمون كيف يتصرفون وفقا لهذه المعرفة ، ويستخدمونها لتحقيق الاهداف المنشودة ، وبلوغ غاياتهم .

ويبدأ هذا مع عملية الانتاج ذاتها حيث « يحرك (الانسان) القوى الطبيعية لجسده لكي يهيء منتجات الطبيعة في شكل يتكيف

---

(٤) ف. ا. لينين « المادية والنقد التجريبي » ـ الفصل الثالث ـ القسم السادس .

مع احتياجاته » ومن ثم « يحقق غاية يقصدها هو »(٥) .

ومن هنا فالناس ليسوا مجبرين ـ كالحيوانات ـ على ان يتبعوا نموذج سلوك محدد من قبل ، انهم لا يقتصرون ـ كالحيوانات ـ على ان يتكيفوا مع بيئتهم ، بل هم كذلك يكيفون بيئتهم مع انفسهم بارادتهم . انهم **يجعلون انفسهم احرارا** في السعي الى غايات تصوروها هم انفسهم وارادوها . وهم اذ يفعلون ذلك يغيرون انفسهم ايضا ، يغيرون طبيعتهم هم .

لكن السيطرة على الطبيعة ـ وهي التي تميز الانسان عن الحيوانات ـ لا تعني ادنى استقلال للانسان عن القانون الطبيعي والضرورة الطبيعية ، بالعكس ان ما تعتمد عليه ليس الغاء القوانين الطبيعية والضرورة الطبيعية وانما هو معرفتها واستخدامها الواعي .

وبالمثل فحين يتعلم الناس ايضا ان يتحكموا في نشاطهم الاجتماعي ويخططوه كيما يشبعوا احتياجاتهم المادية والثقافية فان هذا بدوره لا يعني انهم بلغوا الاستقلال عن قوانين المجتمع الموضوعية ، عن الضرورة الاجتماعية . بالعكس ان ما يعتمد عليه ذلك ليس الغاء قوانين المجتمع الموضوعية وانما هو معرفة هذه القوانين واستخدامها الواعي ـ ليس انهاء الضرورة في المجتمع وانما ادراكها . وتوجيه النشاط الاجتماعي بما يتفق مع ادراك الضرورة.

ومن هنا فان الناس ليسوا ابدا وفي اي جانب واي نشاط مستقلين عن القوانين الطبيعية او الاجتماعية وعن آثارها الضرورية . وينتج عن ذلك انه بقدر ما يفتقرون إلى معرفة هذه القوانين وآثارها فانهم مقيدون غير احرار ، فان هذه القوانين وآثارها الضرورية تؤكد ذاتها عندئذ كقوة غريبة ، ذات نتائج مدمرة غير متوقعة ، تحبط الغايات الانسانية . ولكن بقدر ما يكسب الناس معرفة بهذه القوانين ، ومعرفة بآثارها الضرورية ، فانهم يستطيعون ان يتعلموا استخدامها لأغراضهم .

وليست الحرية هي الانفلات من فعل عمليات السببية بل

---

(٥) ك. ماركس « راس المال » ـ المجلد الاول ـ الفصل السابع ـ القسم الاول .

فهمها ؛ انها لا تعتمد على التخلص من الضرورة بل على معرفتها .

ومن ثم فليس وجود الضرورة والحرية الانسانية امران لا يمكن التوفيق بينهما . بالعكس ان الضرورة ـ كما قلنا ـ تولد الحرية ؛ وبالتحديد حين يكتسب الناس المعرفة بالضرورة ومن ثم يستطيعون ان يدركوها ، ويتخذوا قراراتهم في ضوء الفهم الواقعي لما يفعلونه .

ماذا كان يمكن ان يحدث لو لم تكن هناك قوانين سببية في الطبيعة والمجتمع ، لو لم تكن هناك ضرورة موضوعية تضبط مجرى الاحداث ؟ في هذه الحالة يمكن ان يحدث اي شيء . ولا نستطيع ان نقرر او ننفذ حتى ابسط الافعال ، لاننا لن نستطيع ابدا ان نعرف ماذا نفعل كي نحقق النتائج التي ننشدها ، ولن نمتلك حتى حرية اعداد قدح من الشاي مثلا لاننا لن نعرف ابدا هل سيغلي الماء ، او ما هو الشراب الذي سينتج حين نصب الماء في وعاء الشاي . وبالاحرى لن نستطيع ان نقوم باوجه النشاط الاجتماعي الاكثر تعقيدا ، لان كل شيء سيكون في فوضى . والواقع اننا لن نستطيع ان نوجد اصلا .

فنحن لا نستطيع ان نقرر افعالا محددة وننفذها الا لان الاشياء تخضع **حقا** للقوانين ، لان الضرورة الموضوعية توجد **فعلا** في الطبيعة والمجتمع . فهذا هو شرط الحرية الانسانية ، وتتحقق هذه الحرية بقدر ما نوسع معرفتنا وبالتالي قدرتنا على اتخاذ القرارات على اساس المعرفة ، والسير بها الى نتائجها .

واكثر من هذا فاننا حين نعرف القوانين التي تحكم الاشياء نستطيع ان نقوم تجاهها بنشاط لم نكن لنستطيعه دون هذه المعرفة . فمثلا ، كثيرا ما حلم الناس بالطيران لكنهم حتى فترة قريبة كانوا يعتبرون ان قوانين الطبيعة تحول بينهم وبين القدرة على الطيران ، لكننا حين اكتشفنا القوانين التي تحكم الطيران تمكنا من صنع وسائل الطيران . وفي كثير من مثل هذه الحالات تمكننا معرفة القوانين التي ولدت قيودا معينة على فعلنا من تخطي هذه القيود في الممارسة .

المعرفة كوسيلة للحرية الانسانية :

ولكن اليست افعالنا محددة باسباب مختلفة ومن ثم خاضعة لضرورة قاهرة ؟ فكيف يمكن اذن ان نكون احرارا ؟

صحيح اننا نحن انفسنا نتاج ظروف محددة ، نتاج كان يمكن ان يختلف لو اختلفت هذه الظروف ، واننا نتصرف وفقا لضرورة ظروفنا وطبيعتنا ، لكن هذا لا يتناقض ادنى تناقض مع امكانية ان نكون عناصر حرة .

وايا كان ما نفعله فان هناك سببا لفعله ، واذا كان هذا السبب قوة خارجية من نوع ما ، تؤثر علينا بطريقة تجعلنا نفعل شيئا ما دون تدخل اي فعل ارادي من جانبنا ، فمن المؤكد اننا في هذه الحالة مقيدون لا احرار . فمثلا اذا دفعني احد في الزحام بطريقة تجعلني ادفع شخصا آخر فانا لست عنصرا حرا في هذه الحالة . ولا تثور مشكلة الحرية الا حين نفعل شيئا بارادتنا ـ اي حين يكون سبب ما نفعله هو تصرفنا الارادي . ولكن كيف تتحدد ارادتنا ؟ اذا كانت تتحدد بمختلف القوى الخارجية التي تعمل على ارادتنا وتصوغها بحيث تحقق غايات ليست غاياتنا نحن فاننا لا نزال نفتقر الى الحرية . وفي هذه الحالة قد يخامرنا وهم التصرف بحرية لكنه لن يكون سوى وهم . ولكن اخيرا اذا كانت ارادتنا تتحدد بمعرفتنا بظروف تصرفنا وما يجب فعله لتحقيق غاية ما هي غايتنا ، ففي هذه الحالة لا نحس فقط باننا احرار بل نكون احرارا حقا .

ومثل هذه الصفة للفعل الحر ليست كامنة في الارادة وانما هي شيء يولد . ويتبع مولدها ومدى تطورها بدورهما اسبابا محددة تعمل في الحياة الاجتماعية .

ونتيجة لفعل قوانين تطورنا ، نتيجة لضرورات طبيعتنا ، نكتسب معرفة بالاشياء الخارجية وبطبيعتنا واحتياجاتنا ثم نتصرف على اساس مثل هذه المعرفة ، وبقدر ما يحدث هذا فان ما نفعله ينبع عن قراراتنا الواعية القائمة على معرفة احتياجاتنا . وكيف نحققها . وهكذا نكون احرارا . فاي نوع آخر من الحرية

نتوقعه او يمكن ان نرغبه ؟

وبالمناسبة فتلك نقطة اوضحها ـ في جوهرها ـ الفيلسوف المادي العظيم اسبينوزا منذ امد طويل حين اوضح ان الافعال الانسانية ككل شيء آخر تحددها اسباب سابقة ، وان الناس لا يكونون احرارا حين تحدث افعالهم دون اسباب وانما حين تحدد افعالهم معرفتهم باحتياجاتهم وكيف يحققونها .

يقول انجلز :

« الحرية لا تتالف من حلم الاستقلال عن القوانين الطبيعية ، وانما من معرفة هذه القوانين ، والامكانية التي توفرها هذه المعرفة لجعلها بشكل منظم تعمل نحو غايات محددة . وينطبق هذا على كل من قوانين الطبيعة الخارجية والقوانين التي تحكم الوجود البدني والذهني للناس انفسهم ؛ وهما نوعان من القوانين لا يمكن ان نفصل بينهما ـ على اقصى تقدير ـ الا في الفكر وليس في الواقع . وهكذا فان حرية الارادة لا تعني الا القدرة على اتخاذ القرارات مع معرفة الموضوع ... ومن هنا تتالف الحرية من السيطرة على انفسنا وعلى الطبيعة الخارجية ، وهي سيطرة تقوم على معرفة الضرورة الطبيعية »(٦) .

واذن فالمعرفة الانسانية وسيلة جوهرية للحرية الانسانية . واذا كانت المعرفة تتوقف على الممارسة فان لنمو المعرفة كذلك تاثيرا تحويليا على الممارسة . فالممارسة المستندة الى المعرفة تختلف عن الممارسة التي لا تستند الى المعرفة ، ذلك انه بقدر ما نعرف خواص الاشياء وقوانينها بقدر ما نستطيع ان نسيطر عليها في الممارسة ـ ان نجعلها خاضعة لنا بدلا من ان نخضع نحن لها . ويسهم نمو المعرفة ـ وهو نتاج لسعي الانسان للسيطرة على الطبيعة وتنظيم حياته الاجتماعية ـ في تحقيق هذه السيطرة خطوة خطوة ، واقامة اشكال ارقى من التنظيم الاجتماعي ،

(٦) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل الحادي عشر .

وتحقيق امكانية حياة حرة كاملة للجميع .

الحرية والعارض :

درسنا الآن الرابطة بين الضرورة والعارض في الطبيعة والمجتمع ، ورأينا ان الضرورة تحقق ذاتها عبر سلسلة مما هو عارض ، كما يعني التصرف بحرية على اساس المعرفة اننا كعناصر واعية لا بد ان نمارس سيطرة عملية على هذا العارض ، حتى نزيل العنصر العارض او الصدفي في تحديد نتائج نشاطنا ، ونجعل هذه النتائج تتوافق تماما مع مقاصدنا . وبعبارة اخرى تعني ممارسة حرية فعلنا اننا في قيامنا بنشاطنا الموجه نحو غاية محددة نمارس ـ على اساس معرفتنا لقوانين موضوع فعلنا ـ قدرا من السيطرة على الموضوع يلغي فعل الصدفة في تحديد النتيجة .

وهكذا فاذا كان تحقيق حرية الفعل الانساني لا يعني باي حال التخلص من الضرورة فانه ـ بمعنى معين ـ يعني التخلص من العارض ، او ازالة الصدفة .

فلا ينبغي لنا عند الاضطلاع بمهمة ما ـ كما يعرف الجميع ـ ان نترك للصدفة شيئا يؤثر على نجاح مهمتنا ، واذا نحن فعلنا فاننا نعرض نجاح المهمة للخطر ، فان هي نجحت عندئذ فسيكون نجاحها راجعا الى الحظ وليس الى حكمنا ، لقد جلبت الظروف النجاح لنا ، ولم نكن نحن بفعلنا العمدي الذين حققنا النجاح لانفسنا . لكننا لا نستطيع عموما الاعتماد على مواتاة الظروف .

وعلى سبيل المثال ينسى من ينظمون اجتماعات الشوارع احيانا اختيار شخص يضع خطة للاجتماع ، انهم يتركون ذلك للصدفة ، واحيانا ما يجدون انفسهم بلا خطة ، بل احيانا ما لا يجدون متحدثا لنفس السبب ، وبالطبع فان على كل من ينظم عملا ان ياخذ في اعتباره كل العوامل التي تؤثر على نجاح المهمة ، والا يترك ايا منها للصدفة .

وتتجسد الخصائص الاولية للفعل الحر ، ونعني بها معرفة الضرورة وازالة الصدفة ، في عملية العمل ، العملية الاساسية

في النشاط الانساني .

ففي عملية العمل يعمل الانسان ـ مستخدما ادوات العمل ـ على موضوع عمله لاحداث تغيير مرسوم فيه . وعليه لكي يفعل ذلك أن يعرف ويقدر الخصائص الضرورية لموضوع العمل ، كما ان عليه ان يزيل تاثيرات الصدفة على موضوع العمل .

وكلما زاد اتساع مهام العمل الانساني وطموحها زاد نجاح الانسان في ازالة عامل الصدفة في المهام التي يضطلع بها .

وهذا اعتبار بالغ الاهمية في اي عمل هندسي . فعلى المهندسين عند بناء جسر مثلا ان يقيموا خططهم على معرفة الطبيعة الجوهرية للموقع وللمواد المستخدمة ، وعلى تقدير مختلف عوامل الصدفة التي قد يتعرض لها البناء . ولدينا مثال لا يرجع الى سنوات بعيدة للعجز عن تقدير مختلف المصادفات الممكنة هو الاستحكامات البحرية عند ساحل انكلترا الشرقي . فالمسؤولون عن هذه الاستحكامات اغفلوا تقدير مصادفة التوافق بين مد بالغ الارتفاع ورياح شرقية بالغة القوة . وحين وقعت هذه المصادفة اخترق البحر الاستحكامات ، لكن لو ان هذه الاستحكامات ـ او غيرها من الاعمال الهندسية ـ قد خططت تخطيطا سليما فان مثل هذه المصادفات توضع في الاعتبار وتزال آثارها .

عناصر السيطرة الواعية :

نستطيع بدراسة مثل هذه الامثلة ان نستخلص مزيدا من النتائج عن العلاقة المتبادلة بين الضرورة والعارض والحرية الانسانية .

فقولنا إن الحرية تستلزم ازالة الصدف لا يعني بالطبع اننا بممارسة الحرية نتمكن بشكل ما من ازالة الرابطة بين العارض والضرورة . فقل العارض او الصدفة ورابطته بالضرورة واقعة موضوعية ، وسمة كلية للأحداث في كل من الطبيعة والمجتمع ، علينا ان نقدرها ونكيف افعالنا معها . انها توجد مستقلة عنا ولا نستطيع بأي حال ان نقضي عليها او نغيرها . ان ما علينا ان

نقوم به لكي نحقق حرية فعلنا هو ان نحرك ـ من خلال معرفتنا بالضرورة ـ عملية باسرها ، تشمل المصادفات الكامنة فيها ، تحت سيطرتنا ، وبذا نوجهها نحو غاية قررناها بانفسنا . ومن هنا فان ازالة الصدفة تعني السيطرة عليها بحيث نوجه فعلها فلا يعود الناتج عارضا . ويتم هذا عن طريق (أ) ممارسة سيطرة مباشرة على عوامل الصدفة (ب) ممارسة بعد النظر واتخاذ الاحتياطات لمواجهتها بقدر ما تظل خارج السيطرة المباشرة . وهذا هو السبب في ان الخطة الاقتصادية الاشتراكية مثلا لا بد أن تشمل دائما تكوين « احتياطيات » .

ويجد احد جوانب العلاقة بالصدفة تعبيرا عنه في المثل القائل « اذا سقطت العملة على وجهها كسبت انا ، واذا سقطت على ظهرها خسرت انت » ، فلو امكنني تدبير مثل هذا الوضع اكون قد ضمنت الفوز في الحالتين ، اما اذا كانت النتيجة تتوقف على مصادفة دوران قطعة العملة فانها حينئذ تتقرر في استقلال عن ارادة الانسان وليس بارادة الانسان . ولكن لو دبرت الامور بحيث يتخذ احتياط ملائم لتحقيق النتيجة المرجوة ايا كانت المصادفات فان ارادة الانسان هي التي تقرر النتيجة . وفي مجال المراهنات يكون هذا غشا ، لكننا لا نعتبره غشا بالنسبة للطبيعة .

ومن الجوانب الاخرى لازالة الصدفة استخدام عملة دوارة احدثنا فيها انحرافا ما .

وقد راينا ان الضرورة تحقق ذاتها خلال سلسلة مما هو عارض ، وكذلك ان الاحداث العارضة تحكمها ضرورة داخلية . وحين ندرك هذه النقطة بطريقة عملية ، وحين نتزود بمعرفة قوانين موضوع نشاطنا ، فاننا نكون في وضع يمكننا من تقدير العوامل العارضة الكامنة في الموضوع والسيطرة عليها ، بحيث نوجهها بانفسنا الى نتيجة ضرورية تتفق مع نوايانا .

وهذا يتطلب فضلا عن ذلك الا تكون معرفتنا معرفة بالحتمي فحسب بل بالمجتمع كذلك . فعلينا بالنسبة لعملية معينة مثلا الا نعرف فقط اية نتيجة تترتب كليا على اي سبب بحيث نستطيع بايجاد السبب ان نكفل النتيجة التي تتمشى معه بل ينبغي

ان نعرف كذلك احتمالات مختلف الاسباب التي يمكن ان تعمل ، ومختلف النتائج التي يمكن ان تترتب . ويمكننا هذا من ان نقدر كيف نتصرف للسيطرة على العملية باسرها بما فيها سماتها العارضة .

وتعبّر احكام الاحتمالات عن توقعنا لحدوث المصادفات ووفقاً لبعض النظريات فان الاحتمالات ذاتية محضة ، بمعنى أن الحكم عن الاحتمال لا يعبّر الا عن عدم يقيننا الذاتي او افتقارنا الذاتي الى المعرفة . لكن فكرة الاحتمال تعكس على النقيض واقعا موضوعيا ـ او بالاحرى احد جوانب الواقع الموضوعي ـ وهو فعل الاسباب العارضة في سلسلة باسرها من الاحداث او في مجموعة من الحالات . وهذا واقع موضوعي شانه شان فعل سبب واحد في مناسبة واحدة ، الامر الذي لا يخضع للاحتمال .

وبقدر ما نعرف الاحتمالات الكامنة في الاحداث نستطيع ان نصل الى احكام صحيحة عن الاحتمال ، ونتمكن من ان نقدر بصورة افضل كل العوامل التي تؤثر في مجرى عملية باسرها ، بما في ذلك العوامل العارضة ، ومن ثم نوجه العملية باسرها نحو غاية محددة .

ولنوجز ما قلناه :

ان الحرية هي السيطرة على انفسنا وعلى الطبيعة الخارجية، وهي سيطرة تقوم على معرفة الضرورة . وتتطلب مثل هذه المعرفة ايضا ان نعرف اي عوامل صدفية تدخل في العملية التي تعنينا ، والاحتمالات التي تميز فعلها بحيث نستطيع (ا) ان نسيطر على فعل الصدفة و (ب) نتخذ الاحتياطات لمواجهة فعلها حيثما لا نسيطر عليها ، ونتيجة لذلك نوجه العملية كلها نحو الغاية المنشودة .

يقول انجلز :

« فالصدفة ليست سوى قطب في علاقة قطبها الآخر يدعى « الضرورة » ... وكلما اصبح نشاط اجتماعي ما ، سلسلة من العمليات الاجتماعية ، اقوى من سيطرة الناس

الواعية بحيث ينمو فوق رؤوسهم ، وزاد ظهوره كصدفة خالصة ، فان من المؤكد ان القوانين الخاصة بهذه الصدفة والملازمة لها ، تؤكد نفسها فيها وكانما بفعل ضرورة طبيعية »(٧) .

وحين تقع الاحداث التي تعنينا دون سيطرة واعية عليها فان حاصلها تحدده ضرورة طبيعية تتحقق خلال سلسلة مما هو عارض ، ولكن بقدر ما نبلغ سيطرة واعية على الاحداث فاننا نحن الذين نحدد مسارها بوعي ، بالتصرف استنادا الى معرفة قوانين مثل هذه الاحداث ، والعوامل التي تؤثر على نتيجتها .

(٧) ف. انجلز « اصل العائلة ... » ـ الفصل التاسع .

الفصل الرابع عشر

تحقيق الحرية

كسب الحرية :

تنشأ اغلب المصاعب النظرية التي يواجهها الناس حين يفكرون في مشكلة الحرية عن الاعتقاد بأن الحرية صفة فطرية للارادة ، لكن الحرية ليست صفة فطرية للارادة ، وليست هبة او منحة اضفاها الله او الطبيعة على الانسان ، انها شيء ينتزع ـ وينتزع بالتدريج ، شيئا فشيئا ، ويخلق ويتحقق في مجرى عصور من النشاط الانساني الاجتماعي .

يبدأ جان جاك روسو كتابه « العقد الاجتماعي » بالعبارة الشهيرة « ولد الانسان حرا » . لكن الانسان لم يولد حرا ، بالعكس لقد ولد الانسان دونما حرية على الاطلاق ، لكنه ولد مخلوقا تحدده ظروف مستقلة عن ارادته ، وبفضل حياته الاجتماعية وقوانين تطورها يطور بالتدريج في الممارسة الاجتماعية تلك القدرات التي تجعله يصبح حرا ، وهو يفعل ذلك في صراع مع الطبيعة الخارجية ، وفي صراع اجتماعي وطبقي ، وايضا في صراع فردي . انه يخلق لنفسه وينتزع لنفسه تلك الحرية التي يمتلكها ، ومن ثم فانه لا يستطيع ان يتملك اكثر مما خلق وانتزع لنفسه .

ليست الحرية صفة فطرية ، وليست هي مسالة « كل شيء

او لا شيء » . فالميتافيزيقيون يقولون اننا امـا ان نكون احرارا او لا احرار ، ويعني هذا اننا نتناسى اننا قـد نكون احرارا في بعض النواحي وغير احرار في بعضها الآخر ، واننا قـد نكون اكثر او اقل حريـة .

وفي الجـدال بين النزعة الارادية التي تقول ان الارادة لا يحددها شيء والنزعة الحتمية التي تقول ان الارادة **يحددها** شيء ، تقف الماركسية الى جانب الحتمية ؛ لان لكل فعل من افعال الارادة سببا ، لكن المسالة الاساسية ليست هي ما اذا كانت افعالنا محددة ام لا ـ اذ مـا من شك في انها محددة ـ وانما هي كيف تتحـدد ومـا الذي يحـددها ـ الاسباب الخـارجية ام معرفتنا باحتياجاتنا وكيف نشبعها ، وحين تطرح المسالة بهذا الشكل فان من الواضح ان الحرية مسالة درجة ، اننا لا نجعل انفسنا احرارا الا بقدر مـا نبين ان قراراتنا الواعية القائمة على المعرفة هي التي تحدد مـا نفعل ومـا نحقق ، لكن مثل هذه الحرية لا يمكن الا نـادرا ـ او لا يمكن اطلاقـا ـ ان تكون مطلقة ، **فكلما زاد** القـدر الذي تحدد به قراراتنا القائمة على المعرفة افعالنا ونتيجتها **قل** القـدر الذي تتحدد بـه بعوامل اخرى ، **وزادت درجة حرية الفعل** التي نكون قـد حققناها .

حرية الفرد والحرية في المجتمع :

الحريـة شـيء يحققه الفرد ، فليست البشرية عمومـا او المجتمع هو الحر وانما الفرد .

لكن الفرد ـ في المقام الاول ـ لا يحقق حريته الا في مجتمع . ووسيلة الحرية هي المعرفة ، وهي شيء اجتماعي . وتتوقف حرية الفرد عـلى متطلبات المجتمع الـذي ينتمي اليه ، وعلى التعليم والمساعدة التي يتيحها لـه المجتمع ، وكذلـك على المدى الـذي يستطيع فيه ـ في المجتمع ـ ان يتعاون مع الآخرين ويدفعهم الى التعاون معه .

وفي المقام الثاني اذن يبلغ الفرد تلك الدرجة من الحرية التي

بلغها المجتمع والتي يسمح له بها المجتمع الذي ينتمي اليه . ويتوقف نطاق حريته على مكتسبات مجتمعه ، لكنه يتوقف ايضا على المدى الذي سيسمح له المجتمع فيه بالمشاركة في هذه المكتسبات . ولما كان الامر كذلك فان الافراد يصارعون معا ـ سواء مع بعضهم البعض او ضد بعضهم البعض ـ من اجل درجة أعلى من الحرية ، ومن ثم يرفعون درجة الحرية التي يمتلكها كل الافراد ويحققونها في المجتمع .

ويترتب على ذلك اذن ان الفرد يتطور كعنصر حر في مجرى حياته ، بما يتمشى مع ما يتيحه المجتمع من تربية وحوافز وفرص . وبالمثل طوّر الناس في المجتمع الحرية الانسانية في مجرى التطور الاجتماعي . وتتقدم البشرية بالتدريج في طريق المزيد من حرية الفعل . والحق ان حرية الفعل هذه مقياس او معيار للتقدم الاجتماعي .

النضال من اجل الحرية :

كانت حرية الناس في المجتمع البدائي مقيدة اساسا بافتقارهم الى السيطرة على الطبيعة ، فقد كانوا الى حد بعيد تحت رحمة الطبيعة الخارجية ، ووجود المتوحش يتحدد الى درجة كبيرة بالظروف الخارجية كما هو شان الحيوانات .

وكما تطورت المدنية تطورت كذلك سيطرة الناس على الطبيعة ، ومن هنا اصبحت حريتهم في هذا المجال اقل فاقل تقييدا ، واكثر فاكثر اتساعا ، بيد ان قيدا جديدا بدا يعمل ، ففي المجتمعات المتمدينة حتى الآن قيدت الظروف الاجتماعية حرية الناس . وبوجه خاص قهر طبقة لطبقة . ومن هنا ، فمع ازدياد الحرية المرتبطة بالسيطرة على الطبيعة قابلها القهر الطبقي . ويعني هذا ان الناس قد عانوا الاستغلال والقسر ، وانكرت عليهم في الوقت نفسه فرصة استخدام المعرفة والقوة القائمة في المجتمع

لصالحهم .

واذا اردنا ان يكون الناس احرارا فانهم لا بد الا يجبروا ـ في نشاطهم الاقتصادي ولا في اي نشاط آخر لهم ـ على ان يعملوا او يتصرفوا او يفكروا بما يتعارض مع مصالحهم ، وبما يسيء الى احتياجاتهم الجوهرية ، نتيجة ضغط خارجي ، ولصالح آخرين . وينبغي الا تنكر عليهم فرصة استخدام كل ما يتيحه المجتمع لاشباع احتياجاتهم . مثل هذه الظروف نفي لحرية الناس ، وكانت سيادتها حتى الآن راجعة الى تقسيم المجتمع الى طبقات مستغلة وطبقات مستغلة .

وقد فصّل الفلاسفة الميتافيزيقيون بحرص مسالة ما يسمى حرية الارادة عن مسالة الحرية الاقتصادية والسياسية ، وساعدهم هذا الفصل على تضليل الناس بشان المسالتين معا . لكن هاتين المسالتين ليستا في الواقع مسالتين منفصلتين وانما جانبين لمسالة واحدة هي نضال الانسان من اجل الحرية . وفي المجتمع الذي تستغل فيه طبقة اخرى يكون النضال الاساسي من اجل الحرية هو النضال من اجل الاطاحة باشكال الاستغلال والقهر القائمة ، وهنا في هذا النضال يتصرف الناس بحرية ، ويجعلون انفسهم احرارا ، ويوسعون حدود الحرية الانسانية . فالعبد السلبي مجرد عبد ، لكن العبد المتمرد انسان حر وان ظلّ مقيدا بالاغلال ، ومثل هؤلاء هم رواد الحرية الانسانية .

ويترتب على ذلك انه كان للحرية ولكسب الحرية دائما ارضية طبقية في المجتمع الطبقي ، ومن هنا فان لمفهوم الحرية دلالة طبقية . ففي المقام الاول كانت الحرية التي انتزعت وتحققت في اي مرحلة ـ وكذلك الافتقار الى الحرية ـ هي حرية طبقات محددة او افتقارها الى الحرية . وفي المقام الثاني تختلف حرية طبقة ما او افتقارها الى الحرية بطرق ملموسة عن حرية طبقة اخرى او افتقارها الى الحرية ، وبالتالي تكون للطبقات المختلفة افكار مختلفة ايضا عما يشكل الحرية .

وتقدمت الحرية الانسانية دوما بالصراع الطبقي ، فمختلف الطبقات اذ تسعى لتحقيق اهدافها ولتحرير انفسها لبلوغ هذه

الاهداف قد تقدمت بحرية الناس عموما من مرحلة الى مرحلة . وتتحقق كل مرحلة نتيجة للصراع ضد القيود التي يفرضها نظام محدد من الحكم الطبقي على الحرية ، وتنتج بدورها قيودها على الحرية .

وهكذا مثلا انتهى الحكم الاقطاعي والقنانة نتيجة الصراع الذي قادته البرجوازية ضد القيود الاقطاعية . وكانت هذه خطوة الى الامام لحرية الانسان ، جلبت معها اشكالا جديدة للاستغلال والقهر ، لكنها ايضا حققت الوان تقدم جديدة ، وكسبا لحقوق وحريات سياسية اوسع ، وتنظيما جديدا اقوى ، وتقدما للمعرفة والحضارة . وفي الوقت نفسه كانت تعني في الممارسة اشياء مختلفة للطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الراسمالي. فالطبقة الراسمالية حريصة على الابقاء على حكمها وزيادة ارباحها ، اما الطبقة العاملة من الناحية الاخرى فتواجه مهمة التخلص من الحكم الراسمالي والاستغلال الراسمالي ، واستخدام الحرية التي كسبتها بالفعل كيما تتقدم الى مستوى اعلى من الحرية .

وبالمثل تعاني الطبقات المختلفة القيود على الحرية بصورة مختلفة ، فكل نظام استغلالي يفرض اشكالا محددة للقسر والقهر على المستغلين ، والطبقة العاملة اليوم مثلا تعاني ذلك . وفي الوقت نفسه فان كل طبقة حاكمة ـ وان بدت لذاتها وكانها حققت حريتها باستغلال الآخرين ـ تجد في الممارسة ان حريتها وهمية الى حد بعيد ، فالبرجوازيون مثلا يجدون انفسهم عبيد قوانين نظامهم ، ولا بد لهم ان يمضوا في تجميع راس المال ، والمنافسة فيما بينهم ، والصراع فيما بينهم حتى النهاية .

وبالنسبة لافراد عائلة فقيرة اليوم ـ تتجادل حول ما اذا كان عليها ان تمارس ارادتها الحرة في دفع الايجار ام في شراء بعض الطعام ـ كثيرا ما يبدو الراسمالي الغني اكثر حرية منهم . انهم لايدركون المدى الذي يكون فيه هذا التعس عبدا لمنشآته ، يعاني ضغط الدم والقلق والاحباط المستمرين ، ولو انهم فعلوا فلربما دفعتهم انسانيتهم الى ان يخلصوه من قلقه ـ ويصنعون خيرا لانفسهم ايضا ـ بان يستولوا على منشآته ويتيحوا له حرية

العمل الامين . وكثيرا ما اعتقد ابناء الطبقات المستغلة ان الثروة والقدرة ستتيح لهم الحرية الكاملة . ولكن حتى فلاسفتهم هم قد اوضحوا لهم ـ بحزن وانما بصدق ـ ان الثروة والقدرة تستعبد اصحابها في ذات الوقت الذي ينخرطون فيه في استعباد الآخرين .

من الافتقار الى الحرية حتى الحرية :

ويعني النضال من اجل الحرية في جوهره نضال الناس من اجل القدرة على اشباع احتياجاتهم المادية والثقافية ، الامر الذي يتطلب معرفة هذه الحاجات وكيفية اشباعها ، والقدرة على تحقيق هذا الاشباع .

وحين يصل الناس في المجتمع الاشتراكي ـ بعد ان وسعوا بالفعل سيطرتهم على الطبيعة ـ الى وضع تنظيمهم الاجتماعي تحت سيطرتهم الواعية بفضل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج فان خطوة حاسمة تكون قد اتخذت نحو الحرية الانسانية . ففي المجتمع الاشتراكي ـ حيث لم يعد هناك استغلال انسان لانسان ، وحيث وسائل الانتاج مملوكة ملكية مشتركة وتستخدم لاشباع احتياجات كل فرد ـ لا يصارع الناس من اجل الحرية بقدر ما يستمتعون بها ويتعلمون كيف يمضون قدما الى ممارستها الكاملة . وحين يقضي الناس في المجتمع الشيوعي نهائيا على كل آثار تبعية الناس لوسائل انتاجهم ولمنتجاتهم ، فسيكونون قد حققوا اعلى درجة من الحرية يمكن ان نتصورها . وعندئذ ـ وكما قال انجلز ـ

« ينفصل الانسان تماما للمرة الاولى ـ بمعنى ما ـ عن بقية المملكة الحيوانية ، وينتقل من ظروف الوجود الحيوانية المحضة الى ظروف انسانية حقا ... انه ارتقاء الانسان من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية »(١) .

---

(١) ف. ا. انجلز « الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية » ـ الفصل الثالث .

ونستطيع ان نقول ان الناس قد انطلقوا من ظروف وجود حيوانية محضة لكنهم اخذوا يخلقون ظروف الحرية حين بداوا للمرة الاولى الانتاج الاجتماعي ـ اي حين بداوا يستخدمون الادوات والمعدات لتغيير الاشياء ، بما يتفق مع القوانين الموضوعية للطبيعة ، وبنية واعية لاشباع احتياجاتهم .

وفي الانتاج دخل الناس في علاقات انتاجية ، وفي مجرى عصور من النضال من اجل اشباع احتياجاتهم المتزايدة على الدوام ـ تقدموا باستمرار بمعرفتهم ، وبالتالي بسيطرتهم على شؤونهم وعلى الطبيعة الخارجية . وتقدم هذا النضال عبر سلسلة من المراحل ، غيّر الناس في كل منها علاقاتهم الانتاجية لتتمشى مع تطور قواهم الانتاجية ، ووسعت مختلف الطبقات في كل منها مجال نشاطها الحر على حساب اشكال جديدة من سيطرة طبقة على اخرى ، واشكال جديدة من الخضوع للقوانين الموضوعية لتنظيمهم الاجتماعي ـ وفي النهاية وصل الصراع الطبقي تلك المرحلة التي سيؤدي فيها صراع الطبقة المستغلة من اجل تحررها الى تحرر المجتمع كله نهائيا من كل استغلال وقهر ، ومن ثم يوفر الظروف التي يخضع فيها تنظيم الناس الاجتماعي لسيطرتهم الاجتماعية الواعية ، ويصبح نتاجا لفعلهم الحر . وعندئذ ايضا ستصبح عملية العمل ـ التي بدا بها الناس مسيرتهم الى الحرية لكنها اصبحت عملية استعباد ـ الوسيلة الواعية التي يحققون بها اشباع كل احتياجاتهم ، ويتمكن كل منهم بتقصير ساعات العمل من ان يطور كل قدراته بحرية ، ويستمتع بممارستها .

وبهذه الطريقة ـ وفي عملية يحكمها القانون تماما ويحددها في كل نقطة فعل القوانين الموضوعية ـ يخرج الناس بالتدريج من ظرف الافتقار الكامل الى الحرية ـ حيث لا يتحدد ما يفعلون وما يبلغون بقرارهم الواعي وانما بظروفهم ـ ويكسبون الحرية بالتدريج ، ويبلغون في النهاية ظرفا يستطيعون فيه ـ فرديا وجماعيا ـ ان يقرروا بوعي مصيرهم على اساس معرفة احتياجاتهم ، والسيطرة الواعية على ظروف اشباعها .

الاخـــلاق :

ترتبط مراحل تطور الحرية ارتباطا وثيقا بتطور الاخلاق . والواقع ان تطور الاخـلاق هو جانب أو وجـه لتطور الحريـة ، والمراحل المختلفة لتطور الافكـار الاخلاقية هي المراحل العديدة لتطور الحرية الانـسانية .

وقد لاحظ كثير من فلاسفة الاخلاق ان الاخلاق تعبير عـن الحرية ، وان الحياة الاخلاقية لا تعني شيئا الا بقدر مـا يتصرف الناس بحرية . وبالطبع اذا لـم تكن كل تصرفاتنا الا نتائج محددة لاسباب خارجية فليس من معنى لتسميتها صوابـا او خطأ ، او للقول باننا نتحمل واجب القيام بشيء مـا وليس شيئا آخر ، اذ اننا في هذه الحالة لا نملك ان نفعل غير مـا نفعل . ومن الواضح ان هؤلاء الفلاسفة على حق في ذلـك ، لكن مـا لـم يلحظوه هو ان الحرية شيء يتطور اجتماعيا على اسـاس نشاط طبقات محددة ، وان نفس الشيء ينطبق على الاخلاق .

فليست الاخلاق الانـسانية تعبيرا عن قانون اخلاقي خارجي ما اصدرته السماء وتكشف بشكل ما للبشرية ، ولا هي ـ كما تصور كانط ـ « امر قاطع » كامن في الارادة الانسانية ، لكنها نتاج طبيعي لتنظيم الانـسان الاجتماعي . ولمـا كان الناس يعيشون في مجتمع فانهم بالضرورة يضعون قانونـا اخلاقيا لضبط علاقـاتهم المتبادلة ونشاطهم في المجتمع . ويفترض هذا بالنسـبة للأفراد ظهور قوة مفروضة من الخـارج وملزمة معنويـا ، بحكم طبيعتها كضابط اجتماعي للسلوك ، وهي تتخذ الطابع الخاص للقوة « المعنوية » : فنحن لسنا مجبرين عـلى ان نتصرف التصرف المستقيم وانمـا « ينبغي » ان نفعل ذلـك .

وتتالف الاخلاق من معـايير ومبادىء سلوك معينة ، تقول ان اشياء معينة ينبغي ان تصنع واشياء اخرى ينبغي الا تصنع ، بصرف النظر عما اذا كان الافراد يريدون ان يصنعوها ام لا ، او يصنعوها فعلا ام لا ، ويكمن كل معنى العبارات الاخـلاقية مثل « الخير » و « الشر » و « مـا ينبغي » ومـا اليها في تاكيد معـايير

لا تتوقف على الرغبات والدوافع والافعال الخاصة للأفراد . ونحن نصل الى تصور هذه المعايير ـ ولا بد بالضرورة ان نصل الى تصورها ـ بالتحديد بسبب الضرورة الاجتماعية لتنظيم سلوك الفرد .

وبالطبع فان تصور مثل هذه المعايير وادراكها شيء وتنفيذها شيء آخر . وبشكل عام يضع كل مجتمع مختلف اشكال الجزاءات لتعليم الناس واقناعهم بفعل ما ينبغي ان يفعلوه ، جزاءات تتراوح بين الثناء او اللوم ونظم من المكافأة والعقاب ـ الا ان هذا الاخير يقتصر في الاغلب على التصرفات التي تمس امن الحياة او الملكية مباشرة . غير ان جانبا كبيرا من الاخلاق في المجتمعات التي تضم طبقات متناحرة ، حيث يكسب اناس على حساب آخرين ويتنافسون مع بعضهم البعض ، يكتسب حتماً شكل شيء يعظ به الآخرين لكنه يحاول هو نفسه ان يتهرب منه . فالاخلاق هنا لا تنفصل عن النفاق . واخيرا فحين لا يعود الامر قاصرا على التهرب من المعايير الاخلاقية بل توضع هذه المعايير موضع الشك ويتم تجاهلها كلية ، وحين تتذبذب مختلف الجزاءات الاخلاقية وتضعف ، يكون هذا احد الامارات على ان النظام الاجتماعي المعني يتحلل ويتغير .

والتواصل الاجتماعي كله محكوم بالعلاقات الانتاجية للمجتمع ويقوم عليها . ومن ثم فان الاخلاق ـ كضابط للتواصل الاجتماعي ـ هي في كل مجتمع نتاج علاقات انتاجية محددة ، انها تعكسها وتتغير معها ، وتضع كل طبقة في المجتمع افكارها الاخلاقية الخاصة التي تتمشى مع وضعها الطبقي الخاص .

يقول انجلز :

« يستمد الناس افكارهم الاخلاقية بوعي او بدون وعي في التحليل الاخير من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي ، من العلاقات الاقتصادية التي يقومون في ظلها بالانتاج والتبادل ... وكل النظريات الاخلاقية السابقة هي ـ في التحليل الاخير ـ نتاج المرحلة الاقتصادية التي

بلغها المجتمع في الحقبة الخاصة »(٢) .

ولما كان الامر كذلك فان من الطبيعي أن تختلف الافكار الاخلاقية في كثير من النواحي باختلاف النظم الاجتماعية واختلاف الطبقات . وفي الوقت نفسه ينبغي أن نتوقع ان نجد ـ ونحن نجد فعلا ـ ان هناك دائما قدرا ـ وقدرا كبيرا في الاغلب ـ مشتركا فيما بينها . لان النظم الاجتماعية المختلفة والطبقات المختلفة تمثل

« مراحل مختلفة لنفس التطور التاريخي ، ومن ثم فان لها خلفية تاريخية مشتركة ، ولهذا السبب وحده فان بينها بالضرورة الكثير مما هو مشترك . واكثر من هذا ، ففي المراحل المتماثلة او التي تكاد ان تكون متماثلة من التطور الاقتصادي لا بد للنظريات الاخلاقية بالضرورة ان تتفق بقدر او آخر » ، وعلى سبيل المثال « منذ اللحظة التي تطورت فيها الملكية الخاصة للأشياء المنقولة فلا بد ان يوجد في كل المجتمعات التي توجد فيها هذه الملكية ذلك القانون الاخلاقي المشترك : لا تسرق »(٣) .

واخلاقيات اية مجموعة اجتماعية هي التعبير عن الطبيعة المحددة لحريتها وامانيها في الحرية ـ ويكمن اساسها في المكان الذي تشغله في الانتاج الاجتماعي وعلاقتها بوسائل الانتاج . وبقدر ما تظل مثل هذه المجموعة تحت تاثير مجموعة اخرى وسيطرتها فانها قد تتقبل الافكار الاخلاقية لتلك المجموعة الاخرى ـ وكثيرا ما يكون ذلك على حسابها ولصالح هذه المجموعة الاخرى اذ يستخدم في ابقائها خاضعة . ولكن بقدر ما تصبح هذه المجموعة واعية بأهدافها ، وتبدا في النضال من اجلها ، اي تبدا في اداء دور ايجابي لا سلبي في عملية التغيير الاجتماعي ، تبدا في تاكيد حريتها ، فانها تطور اخلاقها في هذه العملية .

---

(٢) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل التاسع .

(٣) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل التاسع .

لماذا تستلزم الحرية الاخلاق ؟ لان حرية الفعل هي النقيض المباشر للتصرف نتيجة اندفاع او قسر خارجي . وبقدر ما يتصرف الناس نتيجة اندفاع او قسر خارجي فانهم على النقيض تماما من الحرية بل هم مقيدون بالصدفة او الاسباب الخارجية . والناس يتصرفون بحرية حين يحددون بانفسهم ـ عن عمد ومعرفة ـ مسار اعمالهم . ومن هنا يخلق الناس في تحقيق حريتهم وممارستها قواعدهم او مبادىء تصرفهم التي تشكل افكارهم الاخلاقية . ومن ثم فان اخلاقهم تتوافق مع ظروف نضالهم واهدافه ، كما تتحدد على اساس الظروف الفعلية للحياة المادية . وفي الوقت نفسه فانهم يخلقون المؤسسات والجزاءات الاجتماعية التي تغدو ـ في هذا المجال ـ التجسيد الخارجي والدفاع عن اخلاقهم ونوع حرية الفعل التي بلغوها او التي يتطلعون اليها ودرجتها .

وعلى سبيل المثال خلقت الطبقة العاملة الحديثة وتخلق اخلاقها التي تجد تعبيرا خاصا عنها في مؤسسات مثل الحركة النقابية والحزب الشيوعي ـ اخلاق التضامن والمساعدة المتبادلة ووضع النضال المشترك قبل مصالح الفرد الخاصة وقصيرة الاجل . وتختلف الاخلاق البرجوازية عن هذه الاخلاق في كثير من النواحي . واذا ظلّ الشغيلة تحت نفوذ الاخلاق البرجوازية ـ او ما وصلت اليه الآن من افتقار برجوازي الى الاخلاق ـ فان هذا لا يعني الا انهم يظلون عبيدا سلبيين نسبيا للنظام الراسمالي ، رغم انهم قد يتصورون ـ ويؤكد لهم اصحاب عملهم ـ انهم يتصرفون بقدر كبير من قوة الذهن والاستقلال .

وهكذا فاذا اجاب عامل دعي الى المشاركة في نضال نقابته بانه لن يفعل لان على كل امرىء ان يهتم بشؤونه ، فان هذا يعني ببساطة انه قد تشرب العناصر الفردية في الاخلاق البرجوازية التي تضخها الدعاية البرجوازية . كما يعني انه لا يعرف في الواقع كيف يهتم بشؤونه ، لان الافكار التي وضعها الراسماليون للاهتمام بشؤونهم لا تتلاءم مع الغرض المضاد تماما وهو مساعدة العمال .

فالاخلاق في المجتمع المنقسم الى طبقات هي دائما وبالضرورة اخلاق طبقية . انها تعبّر بالتحديد عن احتياجات مختلف الطبقات ووعيها الاجتماعي وقدر حريتها ونوعها . وحين تندحر طبقة ما فان اخلاقها تندحر معها ، وتخلي المكان لاخلاق جديدة . ونستطيع ان نقول ان تلك الاخلاق التي تخدم دفع المجتمع خطوة الى الامام في طريق التقدم المادي والحرية هي الاخلاق الارقى . وهذان الامران الاخيران لا ينفصلان ، لأن الناس في نضالهم من اجل الحرية يحققون تقدمهم المادي ، وفي نضالهم من اجل التقدم المادي يحققون مزيدا من الحرية . والحياة الاكثر كمالا هي هدف كل حياة حرة نشطة ، وهذا وحده هو الذي يزودنا بالمعيار الموضوعي للحكم على اية اخلاقية هي الارقى .

وفي الوقت الحالي ليس من اخلاقية ارقى من تلك التي تعبّر عن الصراع الطبقي للطبقة العاملة . واذا اراد اولئك الذين ينوحون على تدهور الاخلاق في المجتمع الراسمالي ان يجدوا نماذج للمبدأ الاخلاقي فهذا هو المكان الذي ينبغي ان يبحثوا فيه ، وهم لا يفعلون ذلك لانهم يحسون بالخزي وبالخوف .

يقول لينين :

« تخضع اخلاقياتنا كلية لمصالح الصراع الطبقي للبروليتاريا ، فاخلاقياتنا مستمدة من مصالح صراع البروليتاريا الطبقي ... فالاخلاق هي ما يساعد على تحطيم المجتمع الاستغلالي القديم ، وتوحيد كل الكادحين حول البروليتاريا التي تبني مجتمعا شيوعيا جديدا . ان الاخلاق الشيوعية هي الاخلاق التي تخدم هذا الصراع ، التي توحد الكادحين ... »(٤) .

وحين تلغى التناحرات الطبقية في المجتمع الاشتراكي والشيوعي فستصبح الاخلاق اخلاقا انسانية وليس اخلاقا طبقية .

---

(٤) ف. ا. لينين « مهام روابط الشباب » .

يقول انجلز :

« ولما كان المجتمع حتى الآن قد تحرك في تناحر طبقي فقد كانت الاخلاق دائما طبقية ؛ فهي اما برّرت سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، او مثلت ـ حالما تصبح الطبقية المقهورة قوية بما يكفي ـ التمرد على هذه السيطرة ، والمصالح المقبلة للمقهورين ... وما من شك في انه حدث في هذه العملية تقدم للأخلاق بشكل عام . لكننا لم نتخط بعد الاخلاق الطبقية . ولن تصبح الاخلاق الانسانية حقا والتي تتجاوز التناحرات الطبقية وتراثها في الفكر ممكنة الا في مرحلة مجتمع لم يتغلب فحسب على التناقضات الطبقية بل حتى نسيها في الحياة العملية »(٥) .

ومثل هذه الاخلاق تعبر عن مبادىء وقواعد الفعل الحر في « اتحاد يكون التطور الحر لكل فرد فيه شرط التطور الحر للجميع »(٦) ، انها لا تستخلص الا من معرفة الاحتياجات الانسانية وكيفية اشباعها وهي ـ في الظروف التي يحقق فيها الناس سيطرة واعية هادفة على وسائل اشباع احتياجاتهم ـ تعبير عن حريتهم ، والمبدأ الذي يرشد نشاطهم الحر . وتمهد اخلاق نضال الحرية الذي تخوضه الطبقة العاملة ـ والتي لا تنبذ بل تجسد كل ما هو ايجابي وثابت في كل تطور البشرية الاخلاقي ـ الطريق وترسي الاساس .

ورغم ان الاخلاق الانسانية لم توجد بعد فقد نستطيع ان نستشف بعض خصائصها . انها ليست دوغماتيكية بل علمية تنتقد ذاتها، وهي لا تدعو الى ان تمارس شعورا بالتفوق الاخلاقي، او الى ان ترغي وتزبد حول الاخلاق ، بل هي اخلاق هادئة عاقلة ، وبالنسبة لها لا يعدو السلوك غير الاخلاقي ان يكون سلوكا معاديا للمجتمع يرجع الى الضعف ونقص التربية ، وليس هدفها هو

(٥) ف. انجلز « انتي دوهرينغ » ـ الجزء الاول ـ الفصل التاسع .
(٦) ماركس وانجلز « البيان الشيوعي » ـ الفصل الثاني .

العقاب وانما الاصلاح والتربية ، وهي من كل النواحي رحمية انسانية ، تقيم قبل كل شيء التطور الحر للفرد الانساني وسعادته .

ونستطيع ان نختم حديثنا قائلين انه اذا كان علينا ان نعارض الفلسفة التي تقول ان الاخلاق تصدر عن السماء فان علينا أن نعارض فلسفة لا تقل عنها انتشارا اليوم في الدوائر البرجوازية وتقول ان احكام الخير والشر لا تعدو ان تكون تعبيرات عن مواقف عاطفية ولا يمكن ان يكون لها اساس في الواقع . فلو ان الاشتراكيين سئلوا لماذا تعتبرون هذا خيرا وذاك شرا فانهم لن يلقوا المواعظ ، ولن يهزوا اكتفاهم في استخفاف ، فالاخلاق الاشتراكية تقوم على تقدير الظروف الواقعية والاحتياجات الواقعية لنضال البشرية الفعلي من اجل الحرية .

Aram Kerkuky

Mouyn

قائمة بالقراءات

نورد فيما يلي قائمة بمؤلفات ماركس وانجلز ولينين الرئيسية التي تعالج مشكلات نظرية المعرفة ، والتي رجعنا اليها واستشهدنا بها في هذا المجلد .

ماركس :

راس المال .
نقد الاقتصاد السياسي ـ المقدمة .
بؤس الفلسفة .
المخطوطات الاقتصادية والفلسفية .

ماركس وانجلز :

الايديولوجية الالمانية .
المراسلات .

انجلز :

آنتي دوهرينغ .
لودفيغ فيورباخ .
الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية ـ المقدمة .
جدليات الطبيعة .

لينين :

المادية والنقد التجريبي .
كارل ماركس .
مهام روابط الشباب .
الملاحظات الفلسفية .

الفهرس

صفحة

مقدمة ٥

الجزء الاول :

الطبيعة ونشاة الذهن ٧

الفصل الاول :
الذهن والجسد ٩

الفصل الثاني :
الذهن نتاج وانعكاس للمادة ٢٣

الفصل الثالث :
العمل الاجتماعي والتفكير الاجتماعي . . . ٣٧

الفصل الرابع :

الجزء الثاني :

تطور الافكار ٦١

الفصل الخامس :
الافكار المجردة ٦٣

الفصل السادس :
الايديولوجية ٧٥

الفصل السابع :
الاوهام الايديولوجية ٩١

الفصل الثامن :
العلم والاشتراكية ١٣١

الجزء الثالث :

الحقيقة والحرية ١٣٥

الفصل العاشر :
الحقيقة ١٥٥

الفصل الحادي عشر :
جذور المعرفة ١٧١

الفصل الثاني عشر :
نمو المعرفة ١٨٧

الفصل الثالث عشر :
الضرورة والحرية ٢٠٦

الفصل الرابع عشر :
تحقيق الحرية ٢٢٣

قائمة بالقراءات ٢٣٧